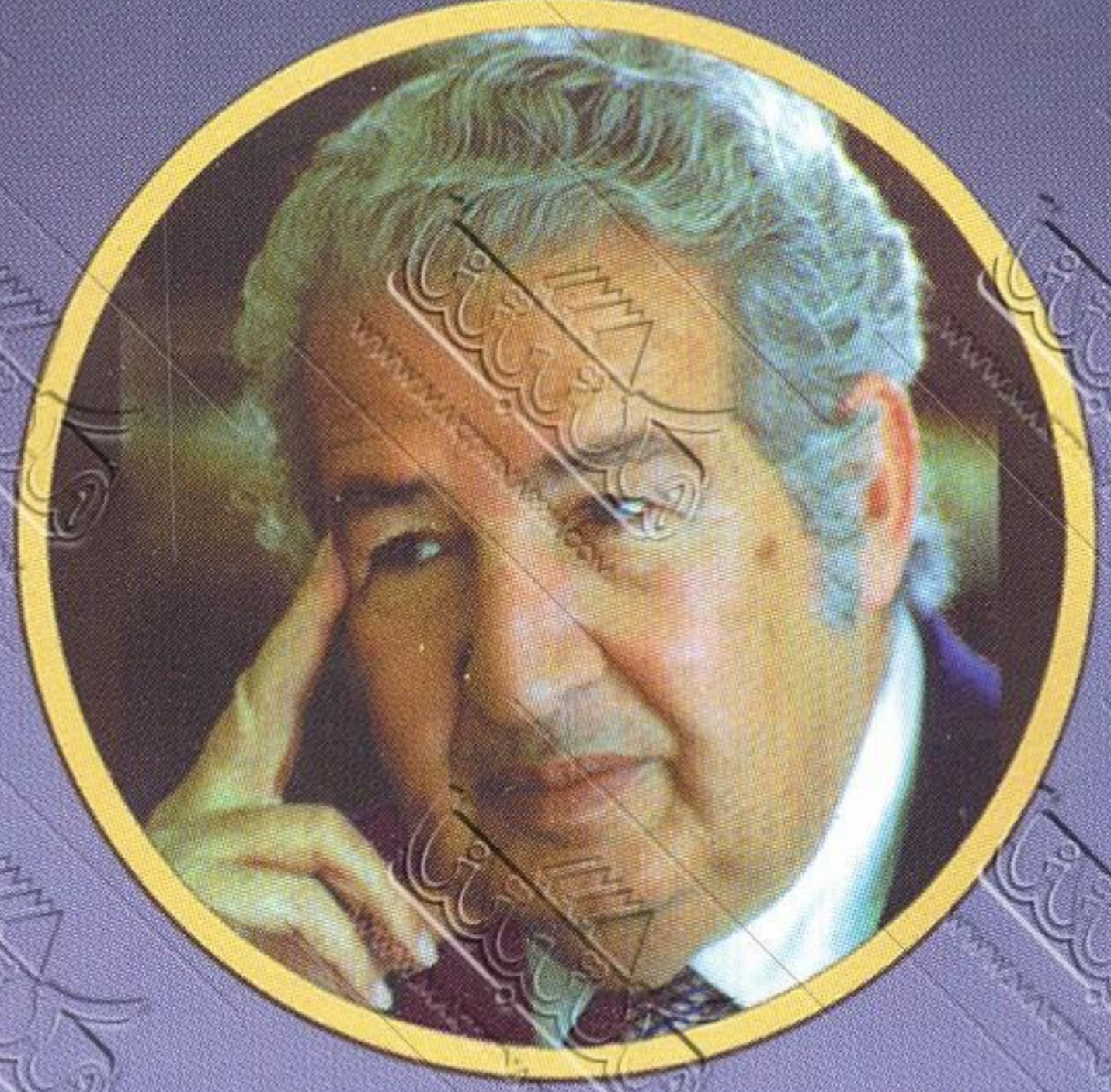




فصل الثقافة

إحسان عبد القدوس



عيدكم مبارك

بننت السلطان

<http://www.makbtna2211.com/>

الأعمال الكاملة

A
h
m
e
d

M
a
d
y

Thurs.
25/10/2012
Riyadh

ليلة عيد الأضحى إحسان عبد القدوس

- ولد إحسان محمد عبد القدوس أحمد رضوان في أول يناير عام ١٩١٩ بالعباسية بالقاهرة . والده المهندس الفنان الممثل والشاعر / محمد عبد القدوس . والدته السيدة فاطمة محيي الدين اليوسف ، لبنانية الأصل ، ممثلة مسرح وأسست دار روز اليوسف للصحافة والنشر عام ١٩٥٢ .
- تخرج في كلية الحقوق عام ١٩٢٤ . عمل لمدة سنة كمحام ثم عمل بعدها كصحفي بمجلة روز اليوسف ثم عينته والدته رئيساً لتحرير المجلة ، وظل بها رئيساً للتحرير حتى عام ١٩٦٤ .
- تولى رئاسة تحرير « أخبار اليوم » من عام ١٩٦٦ حتى ١٩٧٤ ورئيساً لمجلس إدارتها من عام ١٩٧١ حتى عام ١٩٧٤ .
- عمل كاتباً بالأهرام من عام ١٩٧٤ حتى وفاته وكان قد عُين رئيساً لمجلس إدارة مؤسسة الأهرام خلال عامي ١٩٧٥ ، ١٩٧٦ .
- تعرض للاغتيال والسجن عدة مرات بسبب كتاباته السياسية وخصوصاً عن قضية الأسلحة الفاسدة التي استخدمت في حرب فلسطين وكان لهذه الكتابات أثر كبير لتهينة الرأي العام لقيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .
- كتب مئات الروايات والقصص القصيرة نشرت في جرائد ومجلات مصرية وعربية وجمعت في ٦٠ كتاباً وترجم العديد منها إلى أكثر من لغة أجنبية وتم تحويل عشرات منها إلى أعمال سينمائية وتلفزيونية ومسرحية وإذاعية .
- كان يؤمن بشدة بأن الحب والصدق وحرية الرأي هي أسس العلاقات الإنسانية .
- أنعش الحركة الثقافية بدعوته لإنشاء المجلس الأعلى للفنون والأدب ومشاركته الإيجابية في تأسيس نادي القصة وجمعية الأدباء .
- حاز على العديد من الجوائز والأوسمة المصرية والأجنبية من جمعيات ومهرجانات سينمائية تقديراً لقصص أفلامه منها جائزة الدولة التقديرية في الأدب بعد وفاته .
- توفاه الله إلى رحمته في ١١ يناير ١٩٩٠ .

المكتبة القومية الحديثة

مصطفى إسماعيل

ت: ٣٣٤٩٠٦٩ / ٠١٠٧٤٧٠٠٦٠ / ٠١٢٣٥٩٨٩٤٧ / ٠١١٦٩٢٧٢٧٠
E-Mail:Elkawmia 68@hotmail.com

تأسست سنة ١٩٦٨

المكتبة
القومية
الحديثة

طنطا ٦ شارع القاضي



منصور عبد الحكيم

كتابنا القادم

الاجل

بن يوسلف

الثقافة

طغية بنكية أمية

دار الفكر العربي
دمشق القاهرة

الاجل

دار
أخبار اليوم
قطاع الثقافة

مجموعة قصصية بنيت السلطان

إحسان عبد القدوس

مجموعة قصصية

بنت السلطان



قتل عمري

يا حضرات المستشارين.. أرجوكم أن
تسمحوا لى بأن أتكم.. إنى أثق فى الأستاذ
المحامى الذى يتولى الدفاع عنى.. وأثق أنه
يستطيع أن يتكم أحسن منى.. ولكنى أريد
الكلام.. لا أستطيع أن أذهب إلى حبل المشنقة
دون أن أتكم.. وأتكم حديثاً متصلاً.. هذه



الأسئلة التى توجهونها إلىّ لن تزيدكم شيئاً.. ولكن حديثى..
خواطرى.. أحاسيسى.. قد تلقى ضوءاً أكثر ، إذا استطعت أن أعبر
عنها.. فالذى يرتكب جريمة ، ينسى أسبابها لحظة ارتكابها ، ويعيش
فى أحاسيسه.. الأسباب مهما عظمت لا تؤدى إلى ارتكاب جريمة..
ولكنها الأحاسيس.. الأحاسيس يا حضرات المستشارين..
وأنا معترف..

لقد قتلت عمى توحيدة..

كتمت أنفاسها بوسادة السرير حتى ماتت..

وقد كنت أحب عمى.. صدقونى.. كنت أحبها أكثر من أمى.. ولا
زلت أحبها.. أحبها أكثر منكم يا حضرات المستشارين.. إن اهتمامكم
كل هذا الاهتمام بمقتل عمى ، لا يعنى أنكم تحبونها أكثر منى..
ولولا اقتناعى بقتلها لحكمت على نفسى بالإعدام ، قبل أن تحكموا به
على.. والواقع أنى حاكمت نفسى قبل أن تحاكمونى.. حبست نفسى
فى غرفتى ثلاثة أيام قبل أن يقبض على.. وعلقت حبلاً فى نافذة
الغرفة ليكون مشنقتى.. وجلست تحت حبل المشنقة أحاكم نفسى..
وكنت قاسياً فى محاكمتها.. أقسى منكم.. لا.. أنتم لستم قساة.. أنتم
رحماء.. صبركم الطويل فى محاكمتى دليل رحمتكم.. ولكنى لم
أرحم نفسى.. أخذتها بمنتهى القسوة.. وحاسبتها حساباً عسيراً..
حساب الملكين «ناكر ونكير».. وخرجت من هذه المحاكمة وقد ازدادت

اقتناعاً بجريمتي.. لا.. لم يكن قتل عمتي جريمة ، كان عملاً
ضرورياً.. لو اقتنعت أن قتل عمتي جريمة ، لشنقت نفسي..
واسمحوا لي أن أفيض في التفاصيل..

كانت عمتي توحيدة تعيش مع أختها الأصغر منها فريدة ، في
شقة من بيت يملكه في حدائق القبة مكون من ثلاثة أدوار.. شقة
شرقية بحرية.. ثلاث غرف.. تطل على الشارع العمومي.. وبينها
وبين محطة الأتوبيس مسافة لا تزيد على مائة متر.. دقيقة واحدة
وأجد نفسي في الأتوبيس.. تصوروا..

ومن صغرى وأنا أتردد على بيت عمتي.. كانت أحب الأوقات إلى
هي التي أقضيها في الشرفة المطلة على الشارع العمومي.. أتفرج
على الناس... والأتوبيسات.. والعربات.. وأملاً أذني بصراخ الباعة
وضجيج الحياة..

وكانت عمتي فريدة... طيبة.. هادئة.. مستسلمة دائماً.. وعمتي
توحيدة هي الأمرة الناهية.. شخصية قوية مسيطرة.. لم تكن
تتركني هنا بالوقوف طويلاً في الشرفة.. انزل يا منعم اشترى لنا
رغيفين.. روح يا منعم أقف قدام كنكة القهوة ، وخليها تغلي مرتين..
منعم ، تعال احسب لي حساب البقال.. في كل دقيقة أمر.. في كل
دقيقة شغلانة.. وكنت أطيعها.. وأحبها.. فقد كانت تعطيني قرشاً
قبل أن أعود إلى بيتنا.. وكانت هي أيضاً تحبني ، دون بقية أخوتي..
وكانت تقول لي كثيراً.. أنت رجل البيت.. وقد كنت أحس فعلاً بأنني
رجل البيت.. فكما تعلمون.. عمتي توحيدة عانس ، وأختها فريدة
عانس أيضاً.. وكان أبي قبل أن يموت ، لا يتردد عليهما كثيراً.. كان
بينه وبينهما جفاء ، خصوصاً بعد أن باع ما ورثه عن أبيه ،
وأصبحت عمتي توحيدة وعمتي فريدة أغنى منه.. لم يكن هناك رجل
يتردد على البيت بانتظام إلا أنا..

وواظبت على التردد على البيت إلى أن كبرت.. ونلت التجارة المتوسطة.. وتوظفت.. وارتفع مرتبى إلى خمسة وعشرين جنيهاً.. وكبرت عمتى توحيدة ، وعمتى فريدة.. وأصبحت أنا المسئول عنهما.. أنا الذى أحاسب السكان.. وأنا الذى أشتري لهما حاجياتهما... أنا رجلهما... ولكن عمتى توحيدة ظلت محتفظة بشخصيتها القوية، المسيطرة.. الأمرة الناهية.. وقد ارتفع القرش الذى كانت تعطيه لى إلى جنيه.. ثم إلى جنيهين.. جنيهين فى الشهر يا حضرات المستشارين..

وصدقونى أنى لم أناقشها أبداً فيما تعطيه لى.. لم يكن يهمنى إذا أعطتنى جنيهين أو عشرة ، أو لم تعطنى شيئاً.. مرتبى يكفينى والحمد لله.. وقد ادخرت منه مائة جنيه.. مائة وثلاثة وعشرين جنيهاً على وجه التحديد.. وكان عوضى الوحيد عن الخدمات التى أؤديها لها ، هو جلوسى فى الشرفة المطلة على الشارع العمومى.. ساعة أو ساعتين ، أدخن سيجارتى.. كنت أحب هذه الشرفة.. كنت أحس أنها عرشى الذى أطل منه على عالمى.. والواقع أنى كنت أحب شقة عمتى كلها.. إنها كما قلت لكم ، شرقية بحرية.. ثلاث غرف.. واسعة.. منورة.. بينها وبين محطة الأتوبيس مائة متر.. تصوروا يا حضرات المستشارين.. مائة متر وأصبح فى الأتوبيس.. إلى أن خطبت..

خطبت فتاة من عندنا فى شبرا.. فتاة رأيت فيها كل أحلامى... جميلة.. هادئة.. حاصلة على شهادة الإعدادية.. هوايتها التدبير المنزلى.. كنت سعيداً بها.. أكاد أطير من السعادة.. عالمى أصبح أوسع بكثير من العالم الذى أطل عليه وأنا جالس فى شرفة عمتى توحيدة.. ولكن أحداً من عائلتى لم يفرح لسعادتى..

أمى قالت لى.. مش كنت تستنى لما يتجوزوا إخواتك البنات.. ثم
ذهبت معى إلى بيت خطيبتى وهى مرتدية ثياب الحداد..
وأخواتى البنات يخرجن لى ألسنتهن.. ويلصقن بخطيبتى مائة
عيب.. دى رجليها معوجة.. دى عنيا مبقررة..
ولكن عمتى توحيدة كانت أعنف منهن جميعاً فى السخط على
خطيبتى.. لقد اعتبرتنى كأنى تخلت عنها.. قذفت فى وجهى بكل
أنواع السباب.. وتنبأت قبل أن ترى خطيبتى ، بأنها لابد أن تكون
فتاة مائعة.. من بنات اليومين دول..
الوحيدة التى فرحت بى.. وبلغت فرحتها إلى حد أن دمعت عيناها
هى عمتى فريدة.. عمتى الضعيفة ، التى لا حول لها ولا قوة..
وقد تقولون يا حضرات المستشارين.. وما دخل كل هذا فى دافع
الجريمة.. وأنا أقول إن هذا الموقف الذى وقفته عائلتى منى كان له
دخول كبير فى تكوين أحاسيسى التى عشت فيها ساعة ارتكاب
الجريمة.. فقد دفعنى هذا الموقف إلى الإحساس بالتحدى.. تحدى
عائلتى.. ولم أكن فى يوم من الأيام إنساناً متحدياً.. لم أفكر من قبل
فى أن أتحدى ناموسة.. ولكننى أصبحت أتحدى.. أتحدى أمى
وأجبرها على أن تأتى معى إلى بيت خطيبتى.. وأتحدى أخواتى
وأجبرهن على الابتسام.. ثم أتحدى عمتى توحيدة - لأول مرة -
وأخالف أمرها بأن أعدل عن خطبتي.. وقد كبر فى نفسى هذا
التحدى كما سترون.. أصبحت طاغية..
ونعود إلى القصة..

بعد يومين من إعلان خطوبتى ، فاتحت حماتى المستقبلية فى
تحديد موعد عقد القران.. فابتسمت حماتى ، ابتسامة لا تزال
مرسومة فى خيالى حتى الآن ، وقالت.. مش لما تشوفوا شقة الأول..
ولا تكتبوا الكتاب وما تلاقوش حيطه تقعدوا وراها.. وتعجبت من

كلام حماتي.. لم يكن يخطر في بالي أن العثور على شقة يمكن أن
يؤجل عقد قران.. ولكن حماتي صممت على رأيها ، وانضم إليها
حمای.. واستسلمت.. لم تكن هذه مشكلة في نظري.. ولكن..

يا حضرات المستشارين.. هل حاول أحد منكم أن يبحث عن شقة
للإيجار.. إنى أطالب المحكمة بأن تنتقل للبحث عن شقة.. أطلبها
باسم العدالة.. باسم الضمير الإنساني.. فإنكم لن تستطيعوا أن
تعدلوا في حكمكم علىّ ، ولن تستطيعوا أن ترضوا ضمائرکم ، إلا
إذا اكتشفتم وقدرتم مدى ما يعانيه العريس في البحث عن شقة..
سته شهر يا حضرات المستشارين.. سته شهر وأنا أسعى على
قدمي من حارة إلى حارة.. ومن شارع إلى شارع.. ومن حي إلى
حي.. أسعى إلى السماسرة، وإلى أصحاب العمارات.. وإلى محافظة
العاصمة التي تشرف على المساكن الشعبية.. وإلى.. وإلى.. وكنت قد
قدرت أن أدفع سته جنيهاً للشقة التي أسكن فيها.. فرفعت المبلغ
إلى ثمانية.. ثم إلى عشرة.. ثم إلى اثني عشر.. نصف مرتبي يا
حضرات المستشارين خصصته إيجاراً للشقة.. ورغم ذلك لم أجدها..
رغم أني تنازلت عن جميع الشروط.. لم أعد أريدها تطل على
الشارع العمومي كشقة عمتي.. لم أعد أريدها شرقية بحرية ، كشقة
عمتي.. أريدها أي شيء.. ولو كانت جحراً في بطن الجبل..
ولكني لا أجدها..

وخطيبي تزداد جمالاً في عيني ، وازداد لهفة إليها.. وهي تزداد
نفوراً مني ، وأرى في عينيها كأنها تتهمني بأني خيبة.. بأني لست
رجلاً..

وزاد إحساسي بالتحدي..

أصبحت أتحدى البوابين ، وأصحاب العمارات ، والسكان.. بل
أصبحت أتحدى الحكومة ، والناس كلهم..

وطبعاً فكرت أن أتزوج وأقيم مع عائلتي.. ولكن.. مستحيل.. نحن عشرة أفراد نقيم فى ثلاث غرف.. وضقت بعائلتي لأنها تضم عشرة أفراد وتقيم فى ثلاث غرف.. وأصبحت أدخل البيت كالزوبعة.. أشخط فى أمى.. وأضرب أخواتى.. وألعن الدنيا.. وفكرت أن نقيم مع أهل خطيبتى.. مستحيل.. الزواج ليس غرفة.. إنه بيت.. وبيت حماتى لا يمكن أن يكون بيتنا.. ثم ليس فى البيت غرفة يمكن التنازل عنها لنا..

ثم.. يا حضرات المستشارين.. كان البيت الوحيد الذى يمكن أن يؤوينا هو بيت عمتى.. كان يمكن أن تنتقل عمتى فريدة إلى غرفة عمتى توحيدة.. فتخلو بذلك غرفة نقيم فيها أنا وعروسى.. أو كان يمكن إخلاء غرفة الضيوف، خصوصاً وأنها غرفة لا تفتح فى السنة إلا مرة أو مرتين.. ولكن.. لا.. توصلت.. بكيت.. ثرت.. هددت ولكن، لا.. أتدرون لماذا يا حضرات المستشارين.. لأن عمتى توحيدة تعتبر الزواج، نجاسة.. وهى لا تسمح بأن تدخل النجاسة إلى بيتها.. هذه العانس الحيزبون..

هل كرهتها.. أبدأ والله يا حضرات المستشارين.. وإلا كنت كرهت أمى.. كل ما هنالك أنى ثرت عليها.. تحديثها.. ثم لا شىء.. ولا زلت أتولى تحصيل الإيجار من السكان.. وأشتري لها ما تحتاجه.. لا زلت رجلها..

إلى أن انفتح باب الأمل..

مرضت عمتى توحيدة..

مرضت مرضاً خطيراً.. الطبيب يشك فى أنه السرطان..

وفرحت.. وفرحت خطيبتى.. إذا ماتت عمتى توحيدة، فمن

السهل أن تقبل عمتى فريدة أن نقيم معها..

وأصبح موت عمتى توحيدة حقيقة فى حياتى، وحياة خطيبتى..

حتى أننا بدأنا نتحدث فى تحديد موعد عقد القرآن.. وقالت حماتى..
بعد ما تموت المرحومة ، يبقى تانى يوم الأربعاء.. وعليك خير.
وهى تموت..

قطعاً تموت.. إنها لا تستطيع أن تتحرك من السرير.. وتنطلق
منها صرخات الألم ليل نهار.. ووجها ليس له لون.. وأنفاسها
ضعيفة..

ومر شهر.. شهران.. ثلاثة.. ستة أشهر.. وهى تنازع.. ثم..
أتدرون من مات يا حضرات المستشارين.. عمى فريدة.. ماتت
بالسكتة القلبية.. وبكى بحرقه.. بحرقه.. كنت أشد شعري ،
وأضرب الأرض بقدمى.. حتى اعتقد المعزون أننى جننت.. وقد كنت
على وشك الجنون فعلاً.. لا لأن عمى فريدة ماتت ، ولكن لأن عمى
توحيدة لم تمت..

وبدأ أهل خطيبتى يغيرون موقفهم.. ملوا الانتظار.. انتظار الموت
الذى سيتم به فرحى.. وبدأت أسمع همسات غريبة.. ثم سمعت أنه
تقدم لخطبة خطيبتى شاب أعزب ، يعيش فى شقة وحده.. تقدم
ومعه الشقة.. ثم أعلنتنى حماتى بأنها قررت فسخ الخطبة..
وجننت.. لقد أحببت خطيبتى.. أحببتها فعلاً.. أحببتها بكل أنفاسى..
بكل دقات قلبى.. بكل نبضة فى عروقى.. لم أكن أستطيع احتمال
فسخ الخطبة.. أبداً ، لم أكن أستطيع.. وبكى.. وتوسلت.. توسلت أن
يمهلونى أسبوعاً واحداً.. فإذا لم أجد خلال هذا الأسبوع شقة ، فلهم
أن يفسخوا الخطبة.. وقبلوا إمهالى هذا الأسبوع ، فقد كنت أفضل
من العريس الآخر.. مرتبى أكبر.. وأخلاقى أحسن بشهادة الجميع..
ثم إن خطيبتى كانت قد بدأت تحبنى هى الأخرى.

ولكن يا حضرات المستشارين ، لم أحاول أن أبحث عن شقة
خلال هذا الأسبوع.. كنت أعلم أنه لا أمل.. لم أعد أصدق كلام

الجرائد ، ولا كلام أصدقائي ، عن وجود شقق خالية.. إنما قضيت هذا الأسبوع أناقش موضوع موت عمتي توحيدة.. إن الموت قطعاً سيريحها من آلامها.. والمجتمع لن يخسر شيئاً إذا ماتت.. بالعكس إنها عالة على المجتمع.. ومن صالح المجتمع أن تخلو شقتها ، لعائلة جديدة ، شابة ، تعطى للمجتمع حياة جديدة.. فإذا لم يستطع المجتمع أن يخلو الشقة بالقانون ، فإنه لن يعترض إذا أخليت بالموت.. ثم.. الله.. هل يغضب الله.. ولكن الله سيأخذها إن لم يكن هذا الأسبوع ففي الأسبوع التالي.. بعد شهر على الأكثر.. فإذا جدت ظروف تساعد الله على أخذها ، فلن يغضب الله سبحانه وتعالى.. أبداً.. لن يغضب..

وأعدت هذا النقاش عدة مرات بيني وبين نفسي ، ثم ذهبت إلى عمتي.. كنت هادئاً عندما ذهبت إليها.. لم أكن هادئاً مثل هذا الهدوء في أي ساعة من عمري..

ورأيتها في سريرها.. تتألم.. الألم يمزقها.. وجلست بجانبها.. وأنا أبتسم لها ابتسامة حب.. كنت أحبها فعلاً.. حب فيه شفقة ، وفيه حنان ، وفيه لوعة على حالها.. وقلت لها.. وأرجوكم يا حضرات المستشارين ، أن تتابعوا باهتمام تطور الحديث بيني وبينها.. قلت لها من خلال ابتسامتي الحزينة :

- عمتي.. يجب أن تموتى..
ورفعت إلى عينيها الزائغتين ، وفيها زعر.. وهزت رأسها بعنف فوق الوسادة.. ترفض فكرة الموت.. تمت بلسانها المشلول :
- لا.. لا..

قلت وأنا أمسك بيدها وأربت عليها :
- الموت يريحك من الألم..
وأشارت بأصبعها نحو السماء ، واهتز لسانها قائلاً :

- الله..

تقصد أن الله هو الذى يريها من الألم..

قلت وأنا أمسح بيدي على شعرها كأنى أغريها بأن تفهمنى :

- الله يريد لك الموت.. ومن حقه أن تختارى بين أن تتعذبى أياماً

أخرى.. أو تموتى الآن..

هل فهتمم يا حضرات المستشارين.. إنى إلى هذه اللحظة لم أكن

أفكر فى قتلها.. ولكنى كنت أغريها بالانتحار.. وفعلاً.. قلت لها

بصراحة :

- عمتى.. ألقى نفسك من الشرفة ، فتستريحى..

فهزت رأسها فى عنف : لا.. لا.. وشفتها ترتعشان..

قلت فى هدوء :

- هذا أرحم من أن تشعلى فى نفسك النار..

وعادت تهز رأسها ، وتحاول أن تصرخ...

وقلت :

- هل تفضلين زجاجة بوليس النجدة..

وأخذت تشوح بذراعيها ، وتحاول أن تدفعنى عنها.. ودبت فيها

قوة تعينها على الصراخ..

هذه المجنونة.. إنها لا تفهم أبداً.. العجائز فى هذه السن يا

حضرات المستشارين ، يفقدون القدرة على الفهم.. مهما بذلت

معهم.. ومهما كان المنطق الذى تحدثهم به واضحاً معقولاً..

وضقت.. زهقت من غبائها وقلة فهمها.. وثرث.. وبسرعة رفعت

وسادة السرير وكتمت أنفاسها.. وأخذت أضغط.. وأضغط.. وأنا

أردد.. يجب أن تموتى يا عمتى.. من أجلك.. من أجلى.. من أجل

خطيبتى.. من أجل الناس كلهم..

وتركتها جثة هامدة.. لم أشعر بأى اضطراب.. وخرجت من

الغرفة ، وناديت الخادمة العجوز التي تعيش معها ، وقلت لها.. ستك ماتت.. ولم تنزعج الخادمة.. فد كانت تنتظر موت سيدتها فى كل لحظة.. ومصصت شفيتها ، وقالت :

- ارتاحت..

واستدعينا الطبيب الذى كان يعالجها.. ونظر إلى عمى من بعيد ، وكتب شهادة الوفاة.. فهو الآخر كان ينتظر موتها فى كل لحظة.. وقد هز رأسه وقال هو الآخر :

- ارتاحت..

ثم ذهبت إلى بيت خطيبتى ، وبشرتهم بوفاة عمى.. وأطلقت حماتى زغرودة.. يا ألف نهار أبيض يا خويا.. وابتسمت خطيبتى.. منحتنى أجمل ابتساماتها..

وأنتم تعلمون الباقي يا حضرات المستشارين.. تعلمون كما هو ثابت فى محضر التحقيق ، أن البوليس لم يقبض علىّ ، ولم تحم شبهاً حولى ، ولم يشك أحد فى أن الوفاة طبيعية.. وكل ما حدث أنى بعد أن شيعت الجنازة.. جنازة عمى.. ذهبت إلى البيت.. وحبست نفسى فى غرفتى ، وعلقت حبل المشنقة ، ثم جلست تحته ، وحاكمت نفسى.. وعندما انتهت المحاكمة بأن أصدرت حكماً على نفسى بالبراءة.. خرجت من غرفتى وسلمت نفسى إلى البوليس.. واعترفت بكل شىء.. اعترفت وأنا واثق من براءتى..

والأمر متروك لكم يا حضرات المستشارين.. وأنا واثق من عدالكتم.. ولكنى مصر على طلبى ، بأن تنتقل المحكمة قبل أن تصدر حكمها ، وتحاول أن تجد شقة فاضية..



الحاج مديوني حرامى!



يا حضرة القاضى..

صبرك على... لست أنا الحرامى.. إنى متأكد
أن سيادتك تتألم وأنت تحقق فى اتهامى
بالسرقة قدر ألى.. أرجوك يا سعادة القاضى..
أرجوك أن تستسلم لهذا الألم ، أرجوك أن تنظر
إلى من خلال ألمك.. لا تتعجل.. أستحلفك

بأولادك وأولادى ألا تتعجل.. إنى أعلم أن أمامك كثيراً من القضايا..
وأن عملك مرهق.. مرهق لعقلك ولضميرك.. ولكن قضيتى ليست
عادية.. إن اتهام رجل فى مثل مركزى بسرقة سوار ذهبى لا يزيد
ثمنه على أربعة جنيهات ، لا يمكن أن يكون أمراً عادياً.. رئيس إدارة
الحسابات بمؤسسة أبو الهول ، يسرق سواراً !! مستحيل.. إن بين
يدى كل أموال المؤسسة.... وأستطيع أن أسرق آلاف الجنيهات.. لو
كنت لصاً... أو لو كان يمكن أن أكون فى يوم من الأيام لصاً..

أرجوك يا سيادة القاضى.. دعنى أتكلم.. لا تقاطعنى.. لا
تتعجلنى.. إنى أقف أمامك فى اللحظة الحرجة التى يتقرر فيها
مصيرى ، ومصير أولادى.. وأقل ما أطلب به من حق هو أن أتكلم..
ولن أبرىء نفسى..

ولكنى سأقدم لك نفسى فى جريمة أخرى غير جريمة السرقة..
أما إذا كان لابد أن يكون فى هذه القضية لص، إرضاء للتكليف
القانونى، الذى وضعته النيابة ، فاللص هو الحاج مدبولى
الذكرورى..

الحاج مدبولى يا سيادة القاضى ، حرامى..

ولكن لا البوليس ، ولا النيابة ، ولا المحكمة تستطيع أن تثبت أنه
حرامى.. لو كان هناك طريق لإثبات التهمة عليه. لما كنت الآن واقفاً
متهماً أمامكم.. بل أؤكد لك يا سيادة القاضى أنه لو كانت هناك

وسيلة لإثبات التهمة على أمثال الحاج مدبولي ، لنقص عدد المتهمين بالسرقة في الجمهورية العربية ، إلى النصف.. أكثر.. تسعون في المائة من جرائم السرقة ، والرشوة ، والاختلاس ، وكل أصناف الجرائم التي ترد في هذا القطاع ، ستختفى.. ولي أمل كبير في أن تساهم عدالتكم في اختفائها.. بتبرئتي.. إن الحكم ببراءتي معناه الحكم بإدانة الحاج مدبولي.. ليس هناك طريق آخر لإثبات التهمة عليه.. على الحاج مدبولي.. إلا إثبات براءتي..

حلمك يا سيادة القاضي.. إنى لم أبدأ بعد في سرد قصتي.. سكنت في عمارة الحاج مدبولي بشارع المقياس في المنيل ، منذ انتقلت وعائلتي من الإسكندرية لأتسلم عملي في مؤسسة أبو الهول.. العمارة جديدة ، ورغم ذلك فقد أصرّ الحاج مدبولي على أن أدفع له مبلغ مائة وخمسين جنيهاً كخلو رجل.. لم يكن هو الذي طلبها.. ولكنه البواب.. وقد ذهبت إلى الحاج مدبولي لأرجوه أن يعفيني من هذا المبلغ.. ولكنه صرخ في وجهي.. مبلغ إيه يا أستاذ.. أنا ما عرفش حاجة... الاتفاق مع البواب.. أنا مش فاضى للعمارة ولا بلاوى سكانها.. ورانا شغل.. و.. اضطررت أن أدفع المبلغ.. تحويشة العمر يا سعادة القاضي.. حق أولادى الأربعة وزوجتى ، اغتصبه الحاج مدبولي..

واقتنعت بأن الحاج مدبولي حرامى.. سرقنى... وكنت أصعد السلم كل يوم ، وأنا أهمس لنفسي فوق كل درجة.. حرامى.. حرامى.. وأنزل وأنا أهمس.. حرامى.. حرامى.. اثنتان وأربعون درجة يا سيادة القاضي ، أنزلها وأطلعها كل يوم أربع مرات ، وكل درجة تذكرنى بأن الحاج مدبولي حرامى..

هل كنت أستطيع أن أثبت عليه جريمة السرقة ؟

أبدأ..

والحاج مدبولى كما تعلمون جزار ، دكانه يقع فى شارع المنيل..
والمفروض أن أشتري منه اللحمه... كل سكان عمارته يشترون
اللحمه من دكانه.. غصب عنهم.. رغم أنوفهم... الذى يحاول أن
يتحرر ويشتري اللحمه من دكان آخر ، يسلط عليه البواب...
ويتعرض للمضايقات.. يجن.. على أن معامله البواب للسكان تتوقف
على كمية اللحم التى يشترونها من جزارة الحاج مدبولى.. الذى
يشتري كيلو لحم فى اليوم له معامله تختلف عن معامله الذى
يشتري نصف كيلو.. وإذا فرض ومرض أحد السكان وطال مرضه
وامتنع عن أكل اللحم ، كما حدث لجارنا السيد عبد العظيم.. انصبت
عليه مضايقات البواب.. فإذا احتج.. صرخ فيه البواب بكل وقاحة..
لما تبقوا تاكلوا لحمه ، ابقوا اتكلموا..

هل تعتقد أنى أبالغ يا سيادة القاضى..

أبدأ ، والله.. هذا ما كان يحدث..

وقد ذهبت بنفسى إلى دكان الحاج مدبولى منذ أن سكنت فى
عمارته ، ورحب بى.. وطلبت منه أن يزن لى كيلو لحمه بتلو.. فإذا
به يزن لى كيلو من العظم ، والشفت ، والدهن..

وقلت له فى أدب :

- إيه ده يا معلم.. ما تقطع من الحته اللى هناك دى..

قال وهو لا ينظر إلى :

- دى محجوزة لزباين يا أستاذ.. ما كانش ينعر..

قلت فى شبه توسل :

- ما احنا كمان زباين يا حاج..

قال وهو يرفع ساطوره ويهوى به على القرمة :

- كل زبون وله ثمن يا أستاذ..

وفهمت..

إنه حرامى يا حضرة القاضى.. حرامى..

لم يكتف بسرقتى فى خلو الرجل ، ولكن أيضاً يريد أن يسرقنى فى ثمن اللحم.. يريد أن يبيعنى بأكثر من التسعيرة.. ماذا أفعل.. ماذا تفعل أنت يا حضرة القاضى.. إنى واثق أن سيادتك أيضاً تضطر إلى أن تشتري اللحم بأعلى من التسعيرة.. رغم المهابة التى تحيط بك ، ورغم كلمة العدل المعلقة بين شفتيك.. دون أن تستطيع أن تفعل شيئاً.. دون أن يستطيع القانون أن يحميك.. ولا البوليس.. ولا النيابة.. ولا السيد وزير التموين..

وقد وضعت يومها يدي فى جيبى ، ودفعت له ثمن كيلو اللحم ، بزيادة خمسة قروش عن التسعيرة.. وقلت له وأنا أبتسم ابتسامة صفراء :

- عد الفلوس كويس يا حاج.. يمكن يكونوا ناقصين..

ونظر الحاج إلى النقود فى يده ، كأنه يزنها بكفه ، ثم ابتسم ولمعت عيناه الجشعتان ، وقال :

- ورينى اللفة اللى فى إيدك دى..

واستعاد منى ورقة اللحم ، وأعاد وزن قطعة جديدة خالية من العظم.

وهكذا اتفقنا..

كل يوم أَدفع له خمسة قروش فوق التسعيرة ، لأضمن لأولادى أن يأكلوا لحمًا.. مائة وخمسون قرشاً فى الشهر.. إنه حرامى يا سيادة القاضى.. حرامى.. ولا أستطيع أن أنسى فى أى لحظة من يومى أنه حرامى.. حتى وأنا فى مكتبى بمقر الشركة ، كنت أرفع رأسى عن الدوسيه فجأة كأنى لدغت ، وأكون لحظتها قد تذكرت أن الحاج مدبولى حرامى.. يسرقنى.. ويسرق رزق أولادى.. وأنتفض من نومى لأنى حلمت بالحاج مدبولى يسرقنى.. يسرق جيبى..

يسرق بيتى.. يسرق لقمة العيش من فمى..

وفكرت أن أبلغ عنه مراقبة التموين أو البوليس.. ولكنى كنت أعلم
أنى لو فعلت فلن أصل إلى شىء ، وسيصب على الحاج مدبولى
بعدها غضبه وانتقامه.. فالحاج مدبولى يا سيادة القاضى لا يسرق
إلا الذين يعرفهم شخصياً.. خصوصاً سكان عمارته.. إكراماً لهم..
ويرفض أن يسرق أى غريب.. من باب الحذر من أن يقع فى يد
مفتش التموين..

وكنت دائماً أتساءل لماذا يسرق الحاج مدبولى الناس.. لقد فتح
الله عليه ، وأصبح صاحب عمارة.. وعنده زوجتان.. وكارثة بحصان
واحد.. فما حاجته إلى نقود.. ماذا سيفعل بهذه النقود الحرام ؟
أتدرى ماذا يصنع بها يا سيادة القاضى..

إنه يضعها فى ذراعى الست نرجس.. زوجته الجديدة.. أكثر من
عشرين سواراً ذهبياً فى ذراعيها يا سيادة القاضى.. إنها دكان
صائع متنقل ، وفى كل شهر يزيد عدد الأساور.. جوز..

وكانت الست نرجس تأتى إلى زيارة زوجتى ، وأقف بعيداً أبحلق
فى أساورها الذهب ، وأتذكر الخمسة القروش التى أَدفعها كل يوم
للحاج مدبولى.. هذه الأساور الذهبية يا سيدى القاضى هى نقودى
أنا.. نقودى مجمدة فى سبائك ذهبية معلقة فوق ذراعى الست
نرجس.. وكنت أكاد أصيح فيها كلما رأيتها.. هاتى فلوسى يا
حرامية... يا مرات الحرامى.. ولكن صيحتى كانت تموت على
شفتى.. والست نرجس تبتسم فى دلال..

والست نرجس يا حضرة القاضى امرأة فى الخامسة والثلاثين
من عمرها.. ربما كانت فى الأربعين ولكنها تبدو فى الخامسة
والثلاثين.. وجهها كالرغيف الأبيض.. وشعرها مصبوغ باللون
الأصفر الفاقع... وتزجج حواجبها بكثير من الكحل... امرأة.. امرأة

لعبية.. نغشة.. مظهرة من الأنوثة الصارخة تتحرك فى أركان
العمارة الأربعة ، من شقة إلى شقة..

أرجوك يا حضرة القاضى.. لا تعترض على كلامى عن الست
نرجس.. إن الست نرجس هى العمود الفقرى لهذه القضية.. ولن
تستطيع أن تحكم بالعدل إلا إذا سمعت قصتها..

لقد خصتني الست نرجس باهتمامها.. كانت تأتى لزيارة زوجتى
كل مساء بعد أن تتأكد من وجودى فى البيت.. وكانت تفتح بابها كل
صباح بعد أن تسمع صوت أقدامى على السلم.. وتقول لى.. صباح
الخير يا سى محسن... ما تتفضل تشرب قهوة.. فكنت أهز لها
رأسى فى برود ، وأرفض دعوتها.. وأجرى من أمامها ، وشعاع
عينها ينطلق ورائى فى غيظ صامت..

إنى لم أكن أهتم بالست نرجس.. كل أنوثتها الصارخة لم تثر فى
شعرة.. وقد كنت قبل زواجى شاباً منطلقاً وراء شهواته... كانت لى
مغامرات نسائية لا حصر لها.. وربما لو قابلت الست نرجس أيامها ،
لأثارتنى.. ولكنى منذ زواجى وأنا رجل مستقيم.. رجولتى كلها
لزوجتى.. وعيناي مغمضتان عن كل نساء الأرض.. لا نرجس ، ولا
غيرها..

ولكنى كنت مهتماً بالأساور الذهبية التى تحملها الست نرجس
فى ذراعيها.. كنت أستطيع أن أعدها بعينى وأنا أقف بعيداً عنها..
وإحساسى يشتد يوماً بعد يوم بأن هذه الأساور ، ملكى أنا... إنها
نقودى مجمدة فوق ذراعيها.. نقودى التى يسرقها منى زوجها
الحاج مدبولى..

بل لقد بلغ اهتمامى بهذه الأساور أنى ذهبت إلى الصاغة وسألت
عن سعرها ، وعرفت أن ثمن الواحدة منها ثلاثة جنيهات..
وحسبت الحسبة..

إن الحاج مدبولى يسرق منى كل شهر مائة وخمسين قرشاً.. أى
أنه سرق منى خلال العام الذى مضى منذ سكنت العمارة ، ثمانية
عشر جنيهاً.

فإذا كان ثمن السوار ثلاثة جنيهات ، فمعنى ذلك أن لى ست
أساور فى ذمة الحاج مدبولى..

أليس هذا منطقاً يا حضرة القاضى..

إن القانون قد يحكم على الحاج مدبولى إذا ضبط بالبيع خارج
التسعيرة ، بغرامة قد تصل إلى ألف جنيه..

ولكن قانونى أنا لم يكن يريد من الحاج مدبولى إلا ثمانية عشر
جنيهاً.. فقط ما سرقه منى.. إنى لا أملك حق عقاب الحاج مدبولى..
فهذا من اختصاص الدولة.. ولكن من حقى قطعاً أن أسترد ما سرقه
منى.. أليس هذا حقى يا سعادة القاضى.. أرجوك.. دعنى أتم
كلامى..

ولم يكن معقولاً أن أذهب إلى الحاج مدبولى وأطالبه بما سرقه
منى.. هذا كلام غير عملى.. كلام مجانيين.. وأنا لست مجنوناً.. أنا
رجل واقعى.. عملى..

الوسيلة الوحيد لاسترد مالى المسروق ، هى أن أبتسم للست
نرجس..

وابتسمت لها.

ابتسامة تحمل كثيراً من المعانى ، التى كنت أجيد التعبير عنها قبل
زواجى..

وفرحت الست نرجس بابتسامتى.. وزاد اهتمامها بى.. أصبحت
ترسل بين كل يوم وآخر هدية.. طبق عاشورة.. طبق كعك ومنين..
حلة كشرى.. وزوجتى مندهشة.. وأنا واثق مقتنع بخطتى.. والست
نرجس تأتى إلينا كل مساء لتطمئن إلى أنى أكلت من هديتها. والنبي

يا سى محسن ما فيه حاجة تغلى عليك... ده أنت راجل سكرة يا
سى محسن من يوم ما سكنت والعمارة منورة..
وزوجتى العبيطة لا تفهم شيئاً.. وأنا أفهم..
ولم أندلق على الست نرجس.. عذبتها ورائى شهرأ.. وكلمها
فتحت بابها ودعتنى للدخول ، اعتذرت بأى عذر.. فبيبتش وجهها
الملغمط بالأصباغ ، وتقول... والنبي إنت محيرنى يا سى محسن..
باين عليك مش سهل..
إلى أن كان يوم..

ونزلت من البيت ساعة العصر.. وفتحت نرجس بابها.. وقالت
لى.. على فين يا سى محسن.. وأجبتها وأنا أرسم على وجهى
الضيق والزهق... والله متضايق وزهقان يا ست نرجس.. قلت أطلع
أتمشى على البحر شوية.. وأجابتنى وهى تغمز بعينيها.. طيب ما
تيجى وأنا أفك ضيقتك.. وقلت وأنا أدير لها ظهرى.. وإنت ذنبك إيه
يا ست نرجس.... معلش النهاردة..

وخرجت من العمارة ، وسرت فى خطى متمهلة على شاطئ
النيل ، القريب من العمارة.. وبعد دقائق ، أحسست بها ورائى... ثم
سمعت صوتاً ينادى.. سى محسن.. سى محسن.. استنى شوية..
ووقفت إلى أن لحقت بى.. وقالت وهى تتلفت حوالىها.. أنت مش
عايز تقوللى على اللى مضايك ليه.. هو أنا غريبة يا سى محسن..
وقلت وأنا أدعى الدهشة.. بس الكلام ده ما يبقاش فى الشارع يا
ست نرجس.. تيجى ناخذ تاكسى... وخبطت على صدرها وقالت..
يا خبر.. واللأ أقولك.. أحسن برضه..
وركبنا تاكسى..

هل تعتبرنى سافلاً يا سعادة القاضى.. أرجوك لا تقلب شفطيك
هكذا.. لا تحتقرنى.. تذكر دائماً أنى إنسان يسعى وراء ماله

المسروق.. ودعنى أتم حديثى قبل أن تحكم علىّ..
فى التاكسى عادت نرجس تسأل عن سر ضيقى..
وقلت لها بعد أن تمنعت كثيراً :

- تصورى إن واحد زى ماهيته خمسة وخمسون جنيها..
بيوصله منهم ثمانية وأربعون بعد خصم الضريبة والتمغة.. مش
قادر يوكل عياله.. تصورى إنى بعد ما حدفج أجرة التاكسى مش
حلاقى حق علة السجاير.. والبت الصغيرة عايزة فستان.. والواد
عايز ثلاثة جنيه علشان لبس الفتوة.. ومستلف ، والقسط يستحق
بكره.. وبعد كده مش عايزانى أبقي متضايق..

وابتسمت نرجس وقالت وابتسامتها تملأ وجهها :

- بس كده.. ده اللى مزعلك.. ولا يهملك.. خد دول ارهنهم.. واللا
إن شا الله تبيعهم.. وسد ضيقتك..

وخلعت من ذراعها ثلاث أساور..

قلت لها وأنا أشيخ عنها بوجهى :

- مش ممكن يا نرجس.. مش ممكن أبداً..

قالت :

- إخص عليك يا سى محسن.. هو أنا غريبة.. واللا فيه تكليف..

قلت :

- بس أنا عمرى ما قبلت حاجة زى دى..

قالت :

- أصل عمرك ما عرفت نرجس..

قلت :

- بس يمكن الحاج يعنى..

وقاطعتنى وهى تضحك قائلة :

- يا خويا.. يعنى هو بيعدهم.. واللا فاكر بيتهم عليهم قبل ما

ينام.

وأخذت الأساور الذهبية.. ثلاث أساور.. بقيت لى فى ذمة الحاج
مدبولى ثلاث أساور أخرى..

وقالت نرجس وهى تنزل من التاكسى :

- مش بكرة تفوت تشرب القهوة عندى..

قلت وأنا أعدها بابتسامتى :

-- بإذن الله.. بن ثقيل.. وسكر مضبوط..

وأخذت الأساور فى نفس اليوم يا حضرة القاضى ، وبعتهها فى
الصاغة.. بعث الواحدة باتنين جنيه ونصف.. الصائع أيضاً
يسرقنى..

وارتحت نفسياً..

أحسست أنى قد أقيمت العدالة.. من حق المسروق أن يسترد ماله
من السارق.. هذه هى العدالة..

وأصبحت أشرب القهوة كل يومين.. وأحياناً كل يوم.. عند الست
نرجس.. بن ثقيل.. وسكر مضبوط..

وفى خلال ثلاثة أشهر كنت قد استرددت مالى من الحاج
مدبولى ، على داير مليم.. ثمانية عشر جنيهاً.. ثمن ثمانى أساور.. لا
ست أساور كما حسبتها من قبل.. فالصائع يبيع للناس بثمان ،
ويشترى منى بثمان.

وطبت نفساً.. برئت من الحقد الذى كنت أشعر به نحو الحاج
مدبولى.. أصبحت أتعامل معه على قدم المساواة..

وكل ما حدث يا حضرة القاضى هو أن استقامت الدورة النقدية..
الحاج مدبولى يأخذ منى مائة وخمسين قرشاً فى الشهر.. ويشترى
بها أساور لنرجس.. وأنا آخذ الأساور من نرجس.. وأبيعها..
وأسترد مالى..

وعندما برئت من الحقد والسخط ، أحببت الحاج مدبولى نفسه ،

وأحبني الحاج مدبولي.. أصبحنا أصدقاء.. وأصبحت أمنح صبيه
بقشيشاً.. قرشين صاغ على كل كيلو لحم أشتريه.. وأضيف
القرشين صاغ أيضاً على ثمن الأساور..
هل هذه سرقة يا حضرة القاضي؟!
أبدأ..

إنها معاملة.. وإذا كان القانون أو الحكومة تفتح ثغرة للحاج
مدبولي ، لكي يسرق مالى ، فإن القانون والحكومة يجب أن يفتحا
لى ثغرة لأسترد مالى..
المهم..

بعد أن استعدت الثمانية عشر جنيهاً التي سرقها منى الحاج
مدبولي ، فكرت أن أسترد كل ما سرقه الحاج مدبولي من باقى
زبائنه ، وأرده إليهم.. ولكن هذا ليس شأنى.. وقررت فعلاً أن
أقطع علاقتى بنرجس.. ولكن الحاج مدبولي مستمر فى سرقتى
بواقع سبعة قروش فى اليوم.. أى مائتين وعشرة قروش فى
الشهر.. أى حوالى ثلاثة عشر جنيهاً كل ستة شهور.. ثم هناك
المائة وخمسون جنيهاً التي سرقها منى كخلو رجل عندما سكنت
فى عمارته..

واستمرت علاقتى بنرجس..

تعطينى الأساور ، بقدر ما يسرق منى زوجها..

وزوجها يشتري لها كل شهر أسورتين. وأحياناً أربع أساور..
معتقداً أن هذه هى أسلم طريقة لادخار أمواله.. خوفاً من أن يضعها
فى البنك.. فهو يصدق الإشاعات.. ويخاف أن تصدر الحكومة
أموال البنوك.. ويخاف أن يحتفظ بها تحت البلاطة.. خوفاً من إشاعة
أن الحكومة ستغير شكل أوراق النقد.
ولكن..

وأرجوك يا سيادة القاضى أن تقدر ما حدث بعد ذلك ، وتكون
منصفاً لى..

لقد بدأت نرجس تتغير..

بدأت تقلل من دعوتها لى لشرب فنجان القهوة.. وبدأت
تجاهلنى.. وتزداد تجاهلاً يوماً بعد يوم.. ثم.. اكتشفت أن ساكناً
جديداً قد سكن العمارة فى شقة بالدور الأرضى.. شاب أعزب.. أكثر
منى شباباً..

وجننت..

لم أجن على نرجس.. صدقنى يا حضرة القاضى.. إنى كنت
أحتمل من شرب فنجان القهوة ، أكثر من ثمن الأساور.. ولكنى
جننت لأنى لا أجد طريقاً آخر أسترد به مالى المسروق..

وفى يوم.. لم أطق جنونى.. وكانت نرجس قد أهملتنى مدة تزيد
على شهر.. فذهبت إلى شقتها ، وطرقت الباب بعنف.. وفتحت لى..
وهى دائماً تفتح بابها بنفسها.. وما أن رأتنى حتى قالت..
- المعلم زمانه جاى يا سى محسن.. بلاش النهاردة..

ولم أصدقها.. إنها تتحجج بزوجها منذ قررت أن تتركنى إلى
الشاب الذى يسكن الدور الأرضى..
وقلت لها فى لهجة أمرة :

- سيبينى أخش.. أنا عايزك فى كلمتين.. ومش حاشرب قهوة..
وتركتنى أدخل.. وما كادت تغلق الباب ورائى حتى قلت فى

هدوء :

- ناقص ست أساور..

فنظرت إلى كأنى مجنون ، وقالت :

- أساور إيه يا سى محسن..

قلت :

- الحساب لغاية آخر السنة..

قالت وهى تبتعد عنى :

- حساب إيه.. أنا مش فاهمة حاجة.. أنت فاكت إنى حأعيشك بأساورى.. ما خلاص يا سى محسن.. جبرنا..
وحاولت أن أفهمها كل شىء.. حاولت أن أقول لها بصراحة سر
علاقتى بها.. ولكنها لم تفهم شيئاً.. إنها لا تريد حتى أن تفهم أن
زوجها الحاج مدبولى ، حرامى.. وهى تقول لى كلاماً جارحاً..
تهيننى.. تشتمنى.. ولم يعد هناك مجال للمنطق ، ولا للتفاهم..
فهجمت عليها ، ونزعت من ذراعها أسورتين.. وسال الدم من يدها..
وصرخت.. وهبت زوبعة فى العمارة كلها.. وجاء البواب.. وقبض
على.. وقدمت إلى المحاكمة بتهمة مشينة.. تهمة كاذبة.. تهمة
السرقه..

هل أنا لص يا حضرة القاضى ؟

لا..

قد أكون أى شىء.. ولكننى لست لصاً..

وتذكر ما قلته لسيادتكم.. إذا كان القانون والحكومة قد فتحا
ثغرة للحاج مدبولى ليسرق مالى ، فيجب أن تفتح لى ثغرة لأسترد
مالى المسروق..

وأنا واثق من عدالتكم..

مستسلم لقدرى..

احكم على بأى عقوبة.. ولكن.. لا تحكم على بتهمة السرقة..



ساراف الأوتوبيس

يا سيادة القاضى..

كل هذا الكلام لن يؤدى بنا إلى شىء.. إنهم
يضيعون وقت المحكمة .. ما جدوى سماع
الشهود إذا كنت معترفاً.. وقد قلت فى اعترافى
أكثر مما يقوله الشهود.. ما جدوى هذه
الإجراءات.. إن هذه هى خامس جلسة.. وأنا لا



زلت فى السجن.. ورغم هذا فإن الموضوع الرئيسى فى القضية لم
يبحث بعد..

يا سيادة القاضى.. أنا لا أقصد نقد المحكمة.. أستغفر الله.. كل ما
أحاوله هو توفير وقت المحكمة.. أرجوك يا سيادة القاضى.. أبوس
إيد سعادتك.. وحياء والدك.. امنحنى فرصة الكلام.. أنا المتهم.. وأنا
الذى سأدخل السجن.. وحينخرب بيتى.. ويتشرد أولادى.. والأستاذ
المحامى الذى يترافع عنى ، لن يحدث له شىء من هذا. بالعكس
سيقبض أتعابه.. وقد باعت أمى اللبة الذهبية التى تعتز بها ، لتدفع
له مقدم الأتعاب.. وأنا لا أعترض على الأستاذ المحامى.. لا ، ورحمة
والدى.. إنى أقدره ، وأعتز بكلامه.. ولكن كل ما أريد أن أقوله
لسيادتك ، هو أنى أولى من المحامى بالكلام.. فأنا المتهم.. أنا الذى
سأدخل السجن.. وينخرب بيتى.. ويتشرد أولادى..

شكراً يا سيادة القاضى.. ربنا يديمك للعدالة وللغلاية.. وتأكد
سيادتك أنى سأختصر فى كلامى..

يا سيادة القاضى..

بالله عليك.. هل من المعقول أن أسرق سيارة أتوبيس مزدحمة
بركابها.. هل يبدو على أنى كالصعيدى الذى اشترى الترام.. هل
يبدو على أنى مجنون.. لو أن سيادتك تشك فى أنى مجنون ، فأرجو
إحالتى إلى طبيب.. بل أرجو أن تسألوا زملائى فى العمل،

وأصدقائي فى المقهى.. يا سيادة القاضى.. أنا أحسن واحد يلعب الكومى فى حى باب الشعريه كله... فهل هذا يدل على أنى مجنون.. لا يا سيادة القاضى.. لست مجنوناً.. ورغم ذلك فوكيل النيابة يصير على أنى سرقت سيارة الأتوبيس ، بركابها.. وهو متحمس فى اتهامى إلى حد أنه خيل إلى أن بينى وبينه ثأراً قديماً.. يا سيادة وكيل النيابة ، هل حدث - لا سمح الله - أن أغضبتك فى شىء.. دست لك على طرف... رفضت أن أودى لك خدمة.. ذكرنى يا حضرة وكيل النيابة ، إذا كنت نسيت..

معلش يا حضرة القاضى.. سامحنى الله يخليك.. أنا لم أقصد أى شىء يسىء إلى وكيل النيابة.. ولكن هذه أول مرة فى حياتى أقف فيها أمام محكمة.. وأجهل أصول الكلام.. علشان خاطرى يا سيادة القاضى.. وحياة ولادك.. لا تغضب على..

كل ما كنت أريد أن أقوله إن السيد وكيل النيابة ، عندما وجه إلىّ تهمة سرقة سيارة الأتوبيس ، لم يسأل نفسه ، ولم يسألنى ، لماذا أسرق سيارة أتوبيس.. ماذا أصنع بها بعد أن أسرقها؟ السيد وكيل النيابة يقول إنى سرقتها ، لأفك أجزاءها ، وأبيعها فى وكالة البلح..

طيب.. لنفرض أن هذا صحيح.. والركاب.. الركاب يا سيادة القاضى... ماذا أصنع بهم.. هل أبيعهم هم أيضاً فى وكالة البلح؟ العقل يا هوه.. أنا حاجتن.. إذا لم أكن مجنوناً.. فسأخرج مجنوناً من المحكمة.. إلا إذا أنصفتنى يا سيادة القاضى..

يا سيادة القاضى.. أنا لم أحاول أن أسرق سيارة الأتوبيس بركابها.. هذه تهمة ليس لها منطق.. وأنا لست مجنوناً.. و.. حلم سيادتك..

سأروى لك القصة كلها.. وأنا لا أفهم فى القانون.. ولكنى أفهم فى

العدل.. وربما كان العدل لا يحتاج إلى فهم بقدر ما يحتاج إلى إحساس..
وأنا أحس بالعدل بين شفقتي سيادتكم.. أنا مطمئن إلى العدل هنا..
حاضر.. لن أطيل..

لقد تزوجت رتيبة منذ خمس سنوات.. أرجوك يا سيادة
القاضي.. أرجوك.. أبوس جزمته.. لا تمنعني من الكلام.. إن رتيبة
ليست خارج الموضوع.. إنها أساس الموضوع.. هي السبب.. الله
يرحمها ، ويحسن إليها..

لقد كانت رتيبة يا سيادة القاضي فتاة يتيمة تعيش مع خالتها ،
فى البيت المواجه لبيتنا بحارة درويش بباب الشعرية.. وكانت
تصغرنى كثيراً.. بينى وبينها خمسة عشر عاماً.. ورغم ذلك
أحببتها.. أحببتها منذ كانت فى الثامنة من عمرها.. إنها جميلة يا
سيادة القاضي.. شعرها أصفر.. والشعر الأصفر ، نادر عندنا فى
باب الشعرية.. وربما قررت أن أتزوجها منذ كانت فى الثامنة..
ولكنى قبل أن أتزوجها ، كنت لها أخاً ، بل كنت لها أباً.. كنت أعود
كل مساء من عملى حاملاً لرتيبة وخالتها ، بقدر ما أحمله لأمى.. إذا
اشتريت أربعة أرغفة عيش لأمى ، اشتريت مثلها لرتيبة.. وإذا
أشريت أقة بلح لنا ، اشتريت أقة بلح لرتيبة.. بل إنى كنت أشتري
لرتيبة أرغفة العيش الفينو ، بين حين وآخر.. لأنها كانت تحب
العيش الفينو.. وأمى لم تكن تحب العيش الفينو ، ولكنها كانت تحب
رتيبة ، وكانت تتلهف أكثر منى على اليوم الذى تزوجنى فيه لها..
حاضر يا سيادة القاضي.. سأختصر..

كبرت رتيبة ، وأصبحت فى السادسة عشرة.. وفتح الله على
وأصبحت سائق سيارة لورى فى شركة نقل تعمل على خط الصعيد ،
ومكتبها فى شارع الأزهر.. وتزوجت رتيبة.. انتقلت بها من البيت
المواجه ، إلى بيتنا ، هى وخالتها.. وأقمت فرحاً كبيراً لا تزال باب

الشعرية تتحدث عنه إلى اليوم.. لقد اتهموني يوماً بالإسراف..
ولكنهم لا يعلمون أن كل ما صرفته يوماً على الفرح ، لم يكن يساوي
شيئاً بالنسبة لفرحتي.. فرحة الحب ، يا سيادة القاضى..

وأنجبت رتيبة لى ابني فتح الله.. وبنتي زهرة.. والله يوسعها على
بفضل دعوات أمى.. أصبحت أشهر سائق لورى.. أسطى بحق
وحقيق.. لم تكتب لى مخالفة واحدة طول مدة خدمتى ، كما هو
ثابت فى الملف.. ولم أتأخر يوماً عن موعدى.. موعد القيام وموعد
الوصول.. بل كنت حنبلياً فى مسألة المواعيد.. وكان الموعد الذى
أحدده كأنه القدر.. بل أحياناً كان رئيس المكتب يحدد لى موعداً
لوصولى إلى المنيا مثلاً.. فأرفضه.. ويلح... يا أسطى فهمى ، الزبون
عايز البضاعة تكون عنده بكرة الساعة تلاتة.. فأرفض هذا الكلام
وأقول لرئيس المكتب.. مش ممكن يا سى منير.. البضاعة حاتوصل
للزبون الساعة تلاتة ونص.. وكلمتى هى السارية.. هى القدر.. وقد
اشتهرت بين كل الزبائن بهذه الدقة التى أحرص عليها فى المواعيد...
كانوا يطلبوننى شخصياً لأنقل لهم بضائعهم... وكنت أتقاضى اثنين
جنيه على النقلة الواحدة.. وارتفعت إلى ثلاثة.. وأصبح دخلى فى
الشهر لا يقل عن ثمانين جنيهاً.. الحمد لله.. تشكر يا رب..
إلى أن مرضت رتيبة..

عمرها ما مرضت يا سيادة القاضى.. كانت دائماً جميلة مثل
الوردة.. قوية مثل البقرة.. ولكنها مرضت.. حكمة ربنا... واشتد
عليها المرض.. ومرضت معها حياتى كلها.. يا سيادة القاضى أنا
لست زوجها فحسب أنا أبوها.. وأخوها.. ليس لها أحد غيرى.. وأمى
وخالتها عجوزتان لا تقويان على رعايتها.. فجلست بجانبها.. أخذت
إجازة من الشركة... وإجازة ثانية.. وأنا بجانبها أراعيها برموش
عينى.. وأحضر لها أشهر الأطباء.. الفيزيطة اثنين جنيه.. وأحياناً

أربعة.. واستدعيت لها كونسلتو أطباء ، كلفنى عشرة جنيهاً..
وتحويشة العمر تذوب.. ولكن تهون الفلوس ، ويهون العمر ، فى
سبيل رتيبة.. حبيبتي.. رتيبة..

حاضر يا سيادة القاضى.. حاضر... سأختصر.. وتأكد سيادتك
أنى لا أبكى استدراراً لشفقتكم وعطفكم.. أبداً والله.. ولكن اعذرني
سيادتك ، إنى لا أستطيع أن أتذكر المرحومة ولا أبكى..

لقد استقر رأى الأطباء يا سيادة القاضى.. غفر الله لهم.. على إجراء
عملية استئصال المرارة لرتيبة.. ونقلناها إلى المستشفى الجمعية
الخيرية فى العجوزة.. درجة أولى ، وحياتك يا سيادة القاضى..
رفضت أن ترقد رتيبة فى الدرجة الثالثة ، أو الثانية.. وقد رجتنى
رتيبة أن أدخلها درجة ثانية.. وقالت : بلاش بعزقة فلوس يا فهمى.
كفاية اللي صرفته لغاية دلوقتى.. ولكنى صممت على أن تقيم فى
الدرجة الأولى.. هى أقل من مين.. ليست أقل من زوجة الأستاذ منير
مدير الشركة.. دى ست طيبة.. أميرة.. مافيش حاجة تغلى عليها..
واستدنت.. لازلنا إلى اليوم مديناً بخمسين جنيهاً للشركة.

وكنت أذهب كل صباح وأبقى بجانب رتيبة فى المستشفى..
وأراها بعينى وهى تذبل.. وتنطفىء.. وكانت تفتح عينيهما ، وتقول
لى.. قوم روح الشغل يا فهمى.. فأرد عليها.. مافيش شغل أهم من
صحتك يا رتيبة.. خفى انتى وشدى حيلك.. وكله يتعوض..

ولكنى اضطررت أن أعود إلى العمل..

الفلوس يا سيادة القاضى..

الفلوس التى أقامر بها على صحة رتيبة.. لم أكن أدفع هذه الفلوس
ثمناً لصحة رتيبة وعمرها.. فالصحة والأعمار بيد الله ، ولكنى كنت أقامر
بها لعلى أكسب صحة رتيبة وعمرها.. وكنت أدفعها للأطباء
وللمستشفى بروح المقامر.. ولهفة المقامر.. المقامر على صحة زوجته..

وكنت أذهب إلى مقر الشركة ، وأقود اللورى إلى بنى سويف..
وأعود به.. لأجرى إلى المستشفى.. وأبيت بجانب رتيبة.. اتفقت مع
السيد محمود التومرجى على أن يسمح لى بالمبيت على مقعد بجانب
زوجتى.. وكنت أرفض النقليات البعيدة.. لم أكن أقبل أن أسافر
باللورى إلى أبعد من بنى سويف حتى أعود بسرعة إلى المستشفى..
ورغم انشغال فكرى فى هذه الفترة ، وتلف أعصابى ، فإنى لم
أرتكب مخالفة مرور واحدة ، ولم أتأخر عن المواعيد التى أعددتها
دقيقة واحدة.. إن الأسطى فهمى... كلمته كالقدر..
إلى أن كان اليوم الأسود يا سيادة القاضى.. اليوم الذى اتهمت
فيه بسرقة سيارة أتوبيس.. أنا أسرق سيارة أتوبيس !! بأه ده
معقول يا عالم!!
المهم..

لقد تركت المستشفى فى ساعة مبكرة من الصباح ، وذهبت إلى
مكتب الشركة لأستلم اللورى.. وما كدت أصل إلى هناك ، حتى
اتصل بى محمود التومرجى ، بالتليفون ، وطلب منى أن أعود إلى
المستشفى حالاً.. رتيبة فى حالة خطرة وتريد أن ترانى..
وتركت مكتب الشركة دون استئذان.. وجريت فى شارع الأزهر..
جريت لم أمش.. ولم أمدد خطاى.. ولكنى جريت كالمجنون.. وكنت
أعرف خط سيرى.. سأجرى حتى ميدان العتبة الخضراء.. والمسافة
إلى هناك إذا جريتها لن تستغرق أكثر من عشر دقائق.. ثم سأركب
الأتوبيس نمرة ستة من محطته النهائية فى العتبة الخضراء بعد
عشر دقائق بالضبط.. إنى خبير فى تحديد المسافات..
ولكنى لم أجد الأتوبيس فى المحطة النهائية..
أرجوك يا سيادة القاضى أن تتبع أحاسيسى منذ تلك اللحظة..
المفروض أن يكون هناك دائماً سيارة أتوبيس فى المحطة

النهائية.. سيارة تصل ، وسيارة تقوم.. وبين كل سيارة وأخرى
عشر دقائق على الأكثر.. هكذا قرأنا فى الصحف.. ولكن المحطة
النهائية.. كرأس الأصلع.. ليس فيها ولا أتوبيس..
الصبر يا فهمى..

ووقفت بين عشرات من أفراد الجمهور المنتظرين فى الأتوبيس..
أنتظر... لماذا لم أركب تاكسى.. لأننى كما قلت لسيادتك كانت
تتملكنى روح المقامرة.. المقامر على حياة زوجته.. والمقامر يحتفظ
بكل مليم فى جيبه ليلعب به.. والسبب الأهم ، أنه لم يكن معى سوى
عشرة قروش.. كنت قد دفعت فى اليوم السابق كل ما معى وكل ما
استدنته ، تسديداً لفاتورة المستشفى.. وانتظرت عشر دقائق.. وأنا
أضرب الأرض بقدمى.. وأزفر أنفاسى.. وأمد ساقى فى كل لحظة
لأجرى إلى المستشفى.. ربما وصلت إليها قبل أن يصل الأوتوبيس..
اصبر يا أسطى فهمى..

وصبرت..

وجاء الأتوبيس بعد عشر دقائق.. وترك السائق مكانه ، وترك
الموتور دائراً.. وفى لحظة واحدة كان الأتوبيس قد أفرغ من فيه ،
وامتلاً من جديد بالركاب.. ووجدت مكاناً لقدم واحدة من قدمى على
السلم من ناحية مقعد القيادة.. ومرت الدقائق وأنا معلق على السلم
بقدمى الواحدة.. دقيقة اثنتين.. خمس.. ومر مفتش المحطة ، وقلت له:

- مش نطلع بأه يا أفندى..

ونظر إلى باحتقار :

- اصبر يا أخينا..

ثم تركنى..

وصحت بكل بأنفاسى :

- هو فى السواق..

ورد صوت لا أعرفه :
- بيشر ب شاي..
وصرخت بكل غللى :
- ده بيعطل الناس.. الله يعطل حاله..
وجاء الكمسارى يصرخ فى :
- خليك مؤدب يا حضرة.. هو احنا مش ناس زيكم ولا إيه..
وعدت أصرخ :
- لو كنتم ناس زينا ، كان بقى فى قلبكم رحمة.
وزغدننى الكمسارى قائلاً :
- ما تلم لسانك أمال..
وبدأ الصياح.. كل الركاب فى صفى.. وقدرت أن خناقة ستهب..
وأنا لا أريد أن تهب خناقة.. كل ما أريده أن أصل إلى رتيبة.. رتيبة
فى حالة خطرة يا حضرة القاضى..
وانحنيت على رأس الكمسارى أقبلها.. حقك على يا حضرة.. أنا
آسف.. اعذرنا.. أصل مراتى تعبانة فى المستشفى..
وشوح الكمسارى بيده قائلاً :
- قالوا لك علينا عربة إسعاف..
ثم ابتعد عنى..
وكتمت غيظى.. بل كتمت دموعى..
ثم جاء سلطان زمانه بعد أن انتهى من شرب كوب الشاي.. جاء
هتلى.. جاء أبو شنب فضة.. جاء حضرة السائق المغوار.. وأزاح
الركاب من طريقه.. ثم جلس على مقعده ، وأخذ يصدر الأوامر..
ابعد شوية عن الفتيس يا حضرة. تعال كده يا أخينا ما تطبقش على
نفسى..
وأنا صابر.. معلق على السلم من قدم واحدة.

وأخيراً تحرك الأتوبيس.. بعد عشر دقائق.. لم يبق من الموعد
الذى حددته سوى عشرين دقيقة..
وما كاد السائق يدور فى ميدان العتبة نصف دورة ، حتى وقف..
وقف أمام دكان بائع السجائر.. وأزاح الركاب الذين يقفون بجانبه
بذراعه.. ثم مد عنقه وصاح :
- ادينى خمسة بلمونت يا عليش..
وأنا صابر..
إلى رتيبة.. رتيبة فى حالة خطرة يا حضرة القاضى..
ثم قلت للسائق بعد أن تناول السجائر :
- وحياتك دوس شوية يا أسطى..
وكأنى كفرت..
صرخ فى وجهى :
- يعنى عايزنى أدوس الناس ولا إيه.. ما هو إحنا اللى بنروح فى
داهية.. مش أنتم..
وقلت فى هدوء يغطى نارى :
- ما احنا برضه سواقين يا أسطى.. أنا أسطى فهمى.. سواق
لورى..
قال :
- والله أنا مش شايل بضاعة.. أنا شايل أرواح ناس..
كل هذا وهو لم يتحرك..
وسكت حتى يتحرك..
وتحرك..
ورأى أمامه سيارة أتوبيس أخرى.. فجرى يسابقها.. ولمحه
السائق الآخر.. فقبل التحدى.. وسابقه..
وفرحت أنا بهذا السباق ، رغم أن قوة الاندفاع كانت تعصف بى

وتكاد تشدنى إلى الأرض ، وأنا معلق على السلم بقدم واحدة..
ولحق سائقنا بالسائق الآخر.. والسيارتان تسدان الشارع.. ثم
فجأة وقف.. ووقف السائق الآخر.. ومد سائقنا رأسه من بين زحام
الركاب.. وصرخ :

- صباح الخير يا محمود.. ما تنساش النهاردة عند المعلم
خميس.. وقوللى ، حاتفوت على حسنين ولا أفوت عليه أنا.. أصل
إنت عارف.. لو ما حدثش فات عليه.. مش حانشوفه.. و.. و..
إلى آخره يا سيادة القاضى..
وأنا واقف معلق بقدم واحدة..
ورتيبة فى حالة خطرة..
قد تموت..

يا خرابى لو ماتت.. ماذا أفعل.. أروح لمين.. وأولادى.. وحياتى..
وتحرك الأتوبيس.. وكانت قد فاتت خمس عشرة دقيقة، ونحن لا زلنا
فى أول شارع ٢٦ يوليو.. لم يبق من الحسبة التى حسبتهأ سوى
خمس دقائق.. وأنا أفكر فى موت رتيبة.. يخيل إلىّ أنى كنت أفكر فى
موتها ، حتى أشغل نفسى عن هذا السائق.. حتى لا أثور وأرتكب
جريمة.. حتى لا أطق من الغيظ.. وأموت أنا قبل أن تموت رتيبة..
ووصلنا إلى بولاق..

والنصف ساعة التى خدتها انتهت.. وانتهت معها عشر دقائق أخرى..
وفجأة وقف السائق مرة أخرى..
لم يكن أحد من الركاب يريد أن ينزل.. ولا أحد يريد أن يركب..
أبدأ.. السائق الهمام وقف أمام محل فول..
وقام من على مقعده ، وأزاح الركاب المستسلمين المساكين من
أمامه ، ونزل من الأتوبيس وذهب إلى محل الفول يشترى
سندويتشاً..

ونظرت خلفه..
وفكرت فى قتله..
لو كان مجرد التفكير فى قتل إنسان يعتبر جريمة ، فحاكمونى
على الشروع فى القتل.. فقد فكرت فعلاً فى قتله..
ورتيبة تموت..
ورغم ذلك لم أقتل السائق..
فقط أزحت الركاب من أمامى ، وجلست على مقعد القيادة ،
وقدت الأتوبيس.. وتركت السائق أمام محل الفول..
وصفق الركاب..
لقد شهد الشهود بأن الركاب صفقوا لى..
ولا أدرى من أين عرفوا اسمى.. فقد هتفوا.. ينصر دينك يا
أسطى فهمى.. عفارم عليك يا أسطى فهمى..
وحاول الكمسارى أن يصل إلىّ وأنا أقود الأتوبيس.. ولكن
الركاب حالوا بينه وبينى ، فقفز إلى الشارع ليبلغ البوليس..
والركاب يضحكون... ويهللون.. ويهتفون باسمى..
ولم أقف فى أى محطة.. لأن الأتوبيس كان مزدحماً على آخره ،
ولم يكن يتسع لأى راكب جديد.. لو كان فيه مكان ، لوقفت فى كل
محطة... بل إنى وقفت فعلاً فى نهاية الزمالك عندما أراد أحد الركاب
النزول.. لقد كنت أعرف مهمتى بالضبط.. لم أكن أشعر بأنى سرقت
الأتوبيس.. بل كنت أشعر بأنى أقوم بمهمة كلفتنى بها الدولة..
كلفنى بها المجتمع.. إن المجتمع قد كلف هذا السائق الذى يأكل
ساندويتش الفول بأن يوصل الركاب فى مدة محددة.. بأمانة.. فإذا
عجز أن يقوم بهذه الأمانة.. فإن أى مواطن قادر على القيام بها ،
يجب أن يتولاها.. تماماً كما يحدث فى الحرب.. إذا عجز جندى عن
القيام بواجبه فيجب أن يحل محله جندى آخر.. حتى دون أن يتلقى

أمراً بذلك.. أليس هذا منطقاً أقرب إلى العقل من منطق تهمة السرقة
التي توجهها إلى النيابة..
لقد كنت مقتنعاً بهذا المنطق..

أقسم لك يا حضرة القاضي أنى نسيت فى هذه اللحظات زوجتى
رتيبة.. كل ما كنت أشعر به هو أنى أقوم بواجبى كمواطن صالح
أمين على مصالح مواطنيه ، ويقوم بخدمتهم..

وفى خمس دقائق فقط وصلت إلى مستشفى العجوزة.. قطعت
أكثر من ضعف المسافة التي قطعها السائق الآخر ، فى أقل من واحد
على عشرة من الزمن الذى قضاه أمام عجلة القيادة.. ودون أن
أرتكب أى مخالفة مرور..

وأمام مستشفى العجوزة تغير الحال..

أوقفت الأتوبيس ، والتفت إلى الركاب ، وصحت :

- اللى يعرف منكم يسوق ييجى يكمل..

وكان هذا هو منطقى يا سيادة القاضي.. أن يتولى واحد من
الركاب قيادة الأتوبيس إلى أن يصل به إلى المحطة التي يريدتها ، ثم
يتولى راكب آخر القيادة..

ولكن كان فى هذا المنطق غلطة غير مقصودة.. سهوة.. فلأنى
سائق سيارة لورى اعتقدت أن كل الركاب مثلى ، يستطيعون قيادة
الأتوبيس..

وتبين أن ليس بينهم سائق غيرى..

وصرخوا فى وجهى..

الركاب الذين هتفوا لى منذ لحظات.. صرخوا فى وجهى.. بدأوا
يلعنوننى.. ثم أمسكوا بى قبل أن أصل إلى باب المستشفى.. وبدأ
صياحهم يشتد.. صوت يصيح.. وصلنا لغاية محطة الكوبرى..
وصوت آخر يصيح.. لأ.. أنا رايح الجيزة.. وثالث يصرخ.. إنت فاهم

إن الأتوبيس كان بتاع أبوك.. وأنا أصيح... يا اخوانى.. رتيبة فى
حالة خطرة.. رتيبة حاتموت... اعملوا معروف سيبونى..
ولكنهم لا يتركوننى.. وأعصابى تثور.. وزغدنى واحد منهم..
فاضطرت أن أصفعه.. فانهالوا علىّ ضرباً.. ضربونى يا حضرة
القاضى.. ضربونى.. لقد كانوا يهتفون لى منذ خمس دقائق فقط..
ولكنهم يضربوننى.. وبكيت.. بكيت من الغيظ ، لا من الضرب..
وجاء العسكرى وسحبنى إلى القسم..
ورتيبة ماتت..

ماتت يا حضرة القاضى..
ماتت دون أن أراها.. دون أن أتزود منها بنظرة أخيرة.. بهمسة
تعيش فى قلبى بقية حياتى..
بل ماتت دون أن أشيع جنازتها.. فلا زلت من يومها فى السجن..
الله يخليه الأسطى عوض.. هو الذى تكفل بالدفنة..
هذا هو ما حدث يا حضرة القاضى..
بأمانة..

فهل أنا لص.. هل أنا مجرم.. بالله عليك يا حضرة القاضى ، إنى
أحتكم إلى ضميرك وإلى عقلك قبل أن أحتكم إلى القانون...ولقد
مرت علىّ لحظات اعتقدت فيها أن الحكومة ستمنحنى وساماً لأنى
قمت بواجب المواطن الصالح فى خدمة المجتمع.. ولكننى اليوم لا
أريد وساماً.. أريد فقط حكماً بالبراءة.. وأرجوك يا حضرة القاضى..
أرجوك.. أتوسل إليك.. قبل أن تحكم علىّ ، حاول أن تتركب
الأتوبيس..



لاعب الكرة.. يجب

أنا برعى محمد السيد..
لا تقولوا إنكم نسيتموني..
برعى.. كابتن النادي الأهلي عام ٥٣..
وجناح أيمن منتخب مصر.. لا يمكن أن تكونوا
قد نسيتموه!
أين أنا الآن؟..



أنا موظف فى الدرجة الخامسة بوزارة الأشغال.. تزوجت..
وعندى ولدان وبنت..
ولكن..
هل أنا موظف؟..
أبدأ..

إنى لا زلت أعيش فى الملعب.. عقلى وروحى وأعصابى كلها فى
الملعب.. ولو أنى لا أذهب إلى الملاعب... فقط أتتبع المباريات فى
الإذاعة، ثم أصبحت أتتبعها على شاشة التليفزيون.. وعيناي
مفتوحتان على آخرهما.. وأصرخ.. شوط يا مغفل.. اصح يا ريعو..
وقدمى تتحرك فى الهواء كأنى أشوط الكرة..
وأنفاسى تلهث كأنى أجرى.. ومن حولى أولادى يضحكون
على.. وزوجتى تبتسم لى فى إشفاق.. وأسمع هتاف الجماهير،
فيخيل إلى أنهم يهتفون لى.. شوط يا برعى.. العب يا برعى.. ينصر
دينك يا برعى.. برافو يا برعى.. لقد هتفت لى الجماهير كثيراً.. كنت
أتغذى بهتافها.. لم أكن أجرى فى الملعب بأنفاسى كنت أجرى
بأنفاس هذه الألوف المتراسة فوق المدرجات.. وكنت أجرى نحو
هدف.. لم يكن الهدف الأخير هو أن أصيب الجول.. كان الهدف
الأخير هو أن أسمع هذه الصرخة القوية الحلوة التى تنطلق من أفواه
الجماهير.. جون.. جون.. وكان من عادتى وأنا أجرى أن أحادث

نفسى حاسب الفرد داخل عليك يا برعى.. انقل الكورة يا برعى..
اوعى الباك يا برعى.. خلى بالك يا برعى، الواد ده ناوى يكسرك. نط
من فوق رجليه يا برعى.. خلاص يا برعى.. قربت.. هانت.. عديت
خط الباكات.. فاضل كمان خطوتين.. أيوه كده يا برعى.. وصلت
خط البلنتى.. والكورة ملتصقة بقدمى، كأنها ملتصقة بقطعة
مغناطيس.. وأشوط.. فى التمانيات.. وأسمع الصرخة القوية
الحلوة.. جون جون.. كأن السماء تزغرد لى.. وقد زغردت لى
السماء عشرات المرات.. لقد أصبت جول الزمالك ٣٢ مرة.. وأصبت
جول الترسانة ١٧ مرة.. وأصبت جول الأولمبى ٤٣ مرة.. و.. و..
كانت كل طلعة من طلعاتى جول.. إذا التصقت الكرة بقدمى، فلا
أمل.. قل يا رحمن يا رحيم.. وأخرج محمولاً على الأعناق.. لم تكن
الدرجة الثالثة وحدها هى التى تجرى إلى داخل الملعب لتحملنى على
أعناقها.. الدرجة الأولى أيضاً.. فكرى أباطة اندفع نحوى مرة
ليقبلنى عقب مباراة الأهلى والزمالك.. ولم يستطع أن يصل إلى..
هصرته الجماهير.. وسقطت نظارته من فوق عينيه، وتحطمت تحت
أقدام الناس.. أتذكرون الأسلاك الشائكة التى وضعت حول ملعب
النادى الأهلى، لقد وضعت خصيصاً لتحمينى من الجمهور..
كانت أيام..

كنا نلعب كرة..

أما اليوم.. فاللاعبون يجرون، ولكنهم لا يلعبون.. وإذا كانوا
يلعبون، فهم يلعبون استغماية.. ضيعوا النادى الأهلى.. ضاع
الدورى وضاع الكاس.. الله يكسفهم!..

وقلبى ينشق.. إنى أرى الأهلى يتمرمط أمام عينى، ولا أستطيع
أن أفعل شيئاً.. وأرى الجون فاضى.. يكفى أن تزيع الكرة بقدمك
لتسجل هدفاً.. ولكن المغفل الذى يلعب للأهلى لا يستطيع أن يزيع

الكرة.. وأنا أمام شاشة التليفزيون لا أستطيع أن أفعل شيئاً.. فقط
أصرخ.. وأشوح بذراعى.. وأشد شعرى.. فقد اعتزلت.. اعتزلت الكرة
منذ عشر سنوات..

لم يبق لى سوى الذكريات.. ذكريات حلوة غالية..
ولا زلت أذكر آخر مباراة لعبتها.. كانت ضد الترسانة..
لقد نزلت الملعب.. وملأت أذنى بهتاف الجماهير.. ثم اتخذت
مكاني.. سنتر فرود.. وشريفة جالسة فى مدرجات الدرجة الأولى
مع أبيها.. إنى لا أراها.. ولم أرها.. والكرة بين قدمى.. ونفخ الحكم
فى صفارته.. ومررت الكرة إلى زميلى.. لا بد أن شريفة جالسة فى
المدرج كعادتها.. إنها لا تستطيع أن تغيب عن أى مباراة.. لقد كانت
مريضة يوماً.. حرارتها تسعة وتلاتين.. ورغم ذلك جاءت لتشاهد
المباراة.. وأعاد زميلى الكرة إلى.. وجريت بها.. انحرفت بها ناحية
اليسار لأتفادى السنتر هاف الذى يهجم على.. ولكن ماذا يهمنى من
شريفة.. لقد انتهى كل شىء.. يجب أن ينتهى كل شىء.. وباصيت
الكرة إلى الوينج لفت.. باصاة طويلة.. ولكن قطعها الأينسيد لفت..
إنى لم أره قبل أن أشوط الباصاة.. كيف سمحت شريفة لنفسها أن
تلقى سماعة التليفون فى وجهى هذا الصباح.. كان كل ما أريده منها
هو أن أقول لها إنى لا زلت أحبها.. ولكنها أقفلت السكة فى وجهى..
ظظ.. ولا يهمنى.. الكرة الآن مع الترسانة.. مررها الأينسيد لفت إلى
السنتر هاف.. السنتر هاف يجرى بها.. الحق يا برعى.. وجريت.. إن
شريفة مغرورة.. ماذا تظن فى نفسها.. ابنة الامبراطور غليوم.. وإيه
يعنى إذا كان أبوها مستشاراً.. وإذا كانت تملك سيارة حمراء تقودها
بنفسها.. وتزغلل بها عيون الناس.. إن عيون الناس تنحنى على
قدمى.. الحمد لله.. الباك قطع الكرة من بين قدمى السنتر هاف
وشاطها إلى.. وقعت بين قدمى.. ولففت بها.. وجريت بها وهى

ملتصقة بقدمى.. الكرة لا يمكن أن تخوننى .. إنها دائما ملتصقة
بقدمى .. شريفة هي التى خانتنى.. لقد رأيتها بعينى رأسى منذ
أسبوعين.. كانت واقفة بسيارتها فى شارع الجبلية، قريباً من
عوامة الكحلاوى.. نفس المكان الذى تعودت أن تقف فيه وأنا معها..
وكان معها هذه المرة محسن.. هذا الشاب المخنث الذى يتمرقع كل
يوم فى النادى.. والكرة تجرى معى.. كأنها كلب مخلص.. والجمهور
يهلل.. حاسب يا برعى.. شوط يا برعى.. وشطت للوينج رايت..
دب... ولكن الشوطة طاشت.. ذهبت إلى باك الترسانة.. يا نهارك
أسود يا برعى.. يظهر إن الهوا يعاكسنى.. وسمعت الجمهور
يصيح.. يى.. يى.. يى.. ولكنى لم أقل «يى» لشريفة عندما رأيتها
مع محسن.. لقد أمسكته من عنقه وجذبه خارج السيارة..
وضربته.. لا أدري أين ضربته. ولكنى عندما رفعت رأسى لم أجد
شريفة ولا سيارتها.. ووجدت يدي ملوثة بدم محسن.. هل كنت
أستطيع أن أتركه دون أن أضربه.. أبداً.. لا أستطيع أن أترك الكرة
بين قدمى باك الترسانة.. عيب عليك يا برعى.. وجريت وراءه وقبل
أن أصل إليه كان قد قذف بها إلى السنتر فرود.. وجريت وراء
السنتر فرود.. جالك الموت يا سنتر يا فرود.. ولكنى قبل أن أصل
إليه كان قد مررها إلى الوينج.. يا نهار أسود يا برعى.. يا خبر زى
بعضه.. جون.. جون فى الأهلى.. فينا.. ولا يهكم. تتعوض.. وقد
حاولت أن أقنع نفسى بالأ يهمنى ما فعلته شريفة.. إنها صغيرة..
وطائشة.. فاتصلت بها فى التليفون.. وكنت أريد أن أفهمها غلطتها..
ولكنها ما كادت تسمع صوتى، حتى صرخت.. من فضلك ما
تتكلمش هنا تانى.. ثم رمت السماعة فى وجهى.. وقحة.. إن
الجمهور وقح.. صوت حاد يرتفع من بينه ويصرخ.. ما تلعب يا
نيلة.. هل يقصدنى، أنا.. لا أظن..

وأنا واقف فى السنتر، والكرة بين قدمى.. والأينسىد يقول لى..
خد بالك يا برعى.. ورددت عليه فى حدة.. العب كويس.. والعب
بسرعة... الطلعة دى فيها جون..

وانطلقت صفارة الحكم.. ومررت الكرة إلى الأينسىد.. رايت.. ثم
جريت إلى الأمام.. وأعاد الأينسىد الكرة لى، ودرت بها بسرعة..
وشطتها إلى الوينج رايت.. ثم جريت إلى الأمام إلى خط الباكات..
ووقفت أتتبع الكرة بعينين جاحظتين.. إنى لم أحاول أبداً أن أتتبع
شريفة... كنت أعتقد أن بنات العائلات الكبيرة، لسن كينات شبرا.. لا
يكلفن الرجل تتبعهن ومراقبتهن.. كنت أراها دائماً كالملاك.. طاهرة..
بريئة.. أرق من الياسمين.. بل لم أكن أصدق أنى سألمسها يوماً..
كنت أراها فى النادي من بعيد.. وكنت أعتقد أنها ستظل دائماً بعيدة..
ولكن الكرة تقترب منى.. لقد نقلها الوينج إلى الأينسىد.. الأينسىد
يغازل.. إنى لم أغازل أبداً شريفة.. كنت أتصور أن هذا الصنف من
البنات لا يغازل.. الكلمة الجريئة تجرح أذنه.. والله الأينسىد واد
جرىء.. لقد زاغ بالكرة.. وشاطها.. شوطة حلوة.. وجاءت الكرة
تتهادى إلى قدمى كالعروس.. يا حلاوتك.. والتقطتها ببوز حذائى..
كتمتها.. ثم لم أكد أرفع قدمى لأشوطها، حتى دوت صفارة الحكم..
إيه اللى حصل..

أوفسىد..

تسلل..

يخرب بيتك.. أنا لا أحب التسلل.. إن تهمة التسلل تشعرنى بأنى
حرامى.. ولم تعرف الملاعب عنى أنى حرامى.. متسلل.. أبداً.. شريفة
هى التى تسللت لى.. لقد جاءت لى عقب إحدى مباريات العام
الماضى.. كنا فى المساء.. وكنت قد غيرت ملابسى وجلست أشرب
كوب الشاى الذى تعودت أن أشربه بعد اللعب.. وقالت لى :

- كنت هايل يا برعى..

وانتفضت أمامها واقفاً، وأنا لا أصدق أنها هي التي تحادثنى..
وقلت..

- ربنا يخليكى يا أفندم..

وابتسمت لى ابتسامة لم أر فى حياتى أجمل منها.. ابتسامة دقَّ لها قلبى.. جرى إيه يا برعى قلبك بيدق ليه.. إحنا لسه فى الأول.. شد حيلك آمال.. وجريت.. الكرة مع الترسانة.. شاطها السنتر هاف إلى الوينج لفت.. وشاطها الوينج إلى السنتر فرود.. وهجمت على السنتر فرود.. وأخذتها منه.. ثم فرملت الكرة.. وتلفت لحظة.. وهتاف الجماهير.. أيوه يا برعى.. العب بأه آمال.. وطلعت بالكرة.. ثم شطتها إلى الهاف باك شمال.. وصلت إليه.. تحت أقدامه.. وبدأ يغازل بها الباك.. وجريت لآخذ مكاناً جديداً.. إنى لا أتعب أبداً من الجرى.. إنى أستطيع أن ألع الملعب ثلاثين مرة.. وكان من عادتى أن أحضر التمرين فى الصباح وألع بعد الظهر.. ولا أتعب.. وشريفة أيضاً كانت تحضر التمرين.. كل تمرين.. كانت لا تتعب من مشاهدتى وأنا ألع.. حتى وأنا ألع بالحذاء الكاوتش.. ثم كانت تنتظرنى إلى أن أغير ملابسى، وبتناول معاً كوب الشاى.. ثم دعتنى مرة لتوصلنى إلى البيت بسيارتها.. وخجلت أن أقول لها إنى أسكن فى روض الفرج.. واكتفيت من يومها أن توصلنى إلى ميدان التحرير لأركب الترام نمرة ٧.. وقد وصلت إلى الكرة.. كرة عالية.. شاطها الهاف باك.. وتلقيتها على صدرى.. ولكنها كانت قوية اصطدمت بصدرى وارتدت إلى أقدام باك الترسانة.. إن شريفة كانت دائماً قوية.. كانت دائماً تنفذ رأيها.. وجريت إلى الباك.. كأنى أهم بأن أفترسه.. والجمهور يصيح.. يى.. يى.. يى.. ووصلت إلى الباك، وأخذت منه الكرة.. ورفعتها بقدمى.. بكل قواى..

و.. وانطلقت صفارة الحكم..

خير...

حصل إيه ؟..

فاول..

بأه ده اسمه كلام.. ما تسيبنا نلعب يا عم.. ما تسيبنا فى حالنا..
ولكن شريفة لم تتركنى فى حالى أبداً.. كانت تحاصرني طول
النهار، وطول الليل.. وكانت تحتم علىّ أن أصل إلى النادي فى
الساعة الثامنة صباحاً، لأنتظر حتى تدق جرس التليفون.. لا.. ليس
جرس التليفون.. إنها صفارة الحكم..

إيه تانى ؟..

هاف تايم.. وخرجت إلى حجرة اللبس، والجمهور كله صامت صمتاً
حزيناً.. وأنا أيضاً حزين.. لا أدري لماذا.. والتف حولي الإداريون.. إنى
أكره هؤلاء الإداريين.. إنى أحس بهم يركبون اللاعبين كما يركب
الجوكية ظهور الخيل.. وجرى لك إيه يا برعى ؟.. إنت عمرك ما كنت
كده.. ما تلعب يا أخى.. أنت ما بتشوفش الكرة ولا إيه.. و.. و.. وأنا
أريد أن أستريح.. إنى أعلم ما بى.. إنى أفكر فى شريفة وأنا ألعب..
يجب أن أطردها من رأسى... سأضغط على أعصابى كلها حتى لا أفكر
فيها.. فقط أريد أن أستريح.. ولكن شريفة لم تتركنى أبداً أستريح...
كانت تنتظرني عقب التمرين.. وتأخذني فى سيارتها.. وتركن أمام
عوامة الكحلاوى وتحكى لى قصتها.. لقد كنت أشفق عليها.. كانت
وحيدة.. تعيسة.. زوجها رجلاً لا تحبه.. وطلقت منه بعد أربعة
أشهر.. مسكينة... لقد بكت يومها على صدرى.. لم أصدق أنها وضعت
رأسها على صدرى.. وشعرها يهف على وجهى.. ورائحتها العطرة
تملأ أنفى.. لقد قبلتها يومها.. ولا أدري كيف تجرأت.. ولكنى قبلتها..
وقلت لها لأول مرة.. شوشو..

ملعون أبو شوشو..

يجب أن ألعب..

يجب أن أضع جول التعادل حالاً..

ووقفت فى وسط الملعب متمالكاً كل عقلى.. كل انتباهى. أحاول أن أكون إنساناً آخر.. وقد جعلتنى شوشو إنساناً آخر.. اشتريت لى كرافتات، وبدلاً.. وأخذتنى إلى مطعم التورنج فى الهرم.. وهى تأكلنى بعينيهما.. ساكل الكرة أكلاً.. ساكل كل لاعبى الترسانة.. ومررت الكرة إلى الأينسيد، وجريت لأتخذ مكاناً استراتيجياً.. ولكن الأينسيد لم يرد الكرة إلى، مررها إلى الونج.. والوينج مررها إلى الأينسيد باك.. خد، وهات.. ون، تو.. بلغة الكرة.. باصيلى يا حسنين.. هات الكرة يا جدع.. إنهم يغيرون طريقة لعبهم دون أن يتفقوا معى.. كأنى لست الكابتن.. إن شوشو لم تغير طريقته معى إلا بعد عام.. عام كالعسل.. كانت تأخذنى إلى بيت فى شارع قصر النيل.. إلى الجنة.. وتعطينى.. تعطينى أكثر.. وأكثر.. ولا أحد يريد أن يعطينى الكرة.. الكرة فى رجل هاف باك الترسانة.. واللى خالقك ما أنت متهنى بيها.. وجريت.. أكلته.. وأخذت الكرة.. وجريت بها.. والجماهير تهتف.. وأذناى مملوءتان بالهتاف.. أذناى ساخنتان.. لقد كانت شوشو تضحك كلما أحست بأذنى ساخنتين.. وتنفخ فيهما بأنفاسها حتى يزدادا سخونة.. كلى سخونة.. أحس باللهب وأنا أجرى والكرة بين قدمى.. وشطت.. ولكن.. صفارة الحكم.. آوت..

والجمهور يصيح.. يى.. يى.. يى..

إن الجمهور يتغير بسرعة.. وشوشو تغيرت بعد سنة.. أصبحت تلتعنى فى النادى بالساعات.. ثم بالأيام.. ولكن لن يلعبنى أحد.. لا أستطيع أن أقف هكذا كاللوح فى وسط الملعب.. وهجمت على الهاف

باك.. هاف باك الأهلـى.. هجمت على زميلـى.. وأخذت منه الكرة
بالقوة.. وجريت بها.. شد حيك يا برعى.. حاسب من السنتر هاف..
خد الباك قطة.. هانت يا برعى.. تعديت خط الباكات.. نفدت من
الباك.. أنت أسرع منهم جميعاً يا برعى.. وصلت خط البلنت ..
الجون فاضى يا برعى .. شوط .. كمان خطوة يا برعى غازل الجون
يا برعى.. والجمهور يهتف.. يجن هتافاً.. وشطت.. الجمهور يصرخ..
حصل إيه.. آوت. وأنا لا زلت مندفعاً، واصطدمت بخشبة الجون..
وصرخت بأعلى صوتى شوشو.. شوشو.. شوشو..
وسقطت على الأرض..
ولا أدرى ما حصل لى بعد ذلك..
وجدت نفسى فى بيتى..
وقالوا عنى إنى أصبت بانهيـار عصبى.. والبعض قالوا إنى
مجنون.. وأمى بجانبى..
إن أمى كانت تعلم حكايتى مع شوشو، وكانت دائماً تقول لى.. يا بنى
دول ناس لا من صنفنا ولا من دمنا..
واعتزلت الكرة..
وزوجتنى أمى، فتاة من صنفنا..



إمبراطورية «ميم» !

أنا رجل ناجح..

بدأت حياتى موظفاً صغيراً بعد أن نلت
بكالوريوس التجارة.. وسرت بخطوات ثابتة
منتظمة، إلى أن وصلت إلى منصب مدير عام
إحدى المؤسسات (لا داعى لذكر اسم المؤسسة
حتى لا تكون القصة واقعية أكثر من اللازم)..



ووصل مرتبى إلى ٢٤٠٠ جنيه فى العام، وأقوم ببعض
الاستثمارات الخارجية التى تدر علىّ دخلاً يصل إلى ألف جنيه فى
العام، وأحياناً إلى ألف وخمسمائة.. وأنا أذكر هذه الأرقام بصراحة
لأنى لم أحاول يوماً أن أخفى شيئاً عن مصلحة الضرائب..

وأنا أيضاً رجل طيب.. طيب بلا افتعال.. ربما لأن الرجل الناجح
أقل حاجة إلى الشر.. وإلى إطلاق حقه، من الرجل الفاشل.. وقد
نجحت بطيبتى.. الطريق الطويل الذى سرت فيه كان دائماً طريقاً
نظيفاً.. لا أذكر يوماً اضطررت فيه إلى إيذاء أحد.. أو الاشتراك فى
دسيئة.. أو اضطررت إلى نفاق رئيسى، أو مداهنة مرءوس.. أبداً..
نجحت بعملى فقط.. والناس تقول عنى إنى حمار شغل.. ولكنى
لست حماراً.. إنى أهوى العمل.. إنى أعمل كأنى أستمع إلى أم كلثوم،
أو أرسم لوحة فنية.. وليس لى هواية أخرى.. لا أسكر.. ولا ألعب
طاولة.. ولا أمارس الرياضة.. ولا.. ولا.. فقط أعمل..

وليس معنى هذا أنى رجل « مقفول »..

بالعكس..

إنى متحرر فى كل اتجاهاتى، وفى كل تصرفاتى وفى كل آرائى..

وأبدو أكثر تحراً فى حياتى العائلية..

وأعتقد أنى يجب أن أتحدث بتفصيل أكثر عن عائلتى.. فالقصة

ليست قصتى وحدى.. إنها قصتى مع عائلتى..

لقد تزوجت منذ خمسة وعشرين عاماً.. وكنت موفقاً فى اختيار

زوجتى.. إنها تمثل الخطوة الأولى والأساسية فى طريق النجاح الذى سرت فيه.. زوجة مثالية.. ذكية.. مدبرة.. مطيعة.. تحبنى.. وتؤمن بى.. لا أذكر طوال الخمسة والعشرين عاماً، أنها أثارت مشكلة، أو أخذت من عقلى ما يشغلنى عن عملى.. ولا أذكر أنى رفضت لها يوماً طلباً، أو حاسبتها على شىء.. لا مجاملة لها، ولكنى لأنى دائماً مقتنع بكل ما تطلبه وكل ما تفعله..

وقد أنجبنا ستة أولاد.. كلهم أولاد.. مصطفى، ومجدى، ومدحت، وماهر، ومحمود، ومنير.. وأنا اسمى محمد مرسى.. كل أسمائنا تبدأ بحرف الميم.. من أول أبى حتى آخر أولادى.. إنى أتفاءل بحرف الميم.. ولكن.. بجانب التفاؤل كان هناك إحساس آخر يضطرم فى داخلى.. إحساس يملؤنى زهواً وغروراً.. كنت أحس كأنى أقيم إمبراطورية شعارها حرف الميم.. وكنت أفرح كلما زاد عدد أفراد إمبراطوريتى.. ورغم أنى كنت أحس أحياناً بحاجتى إلى إنجاب بنت، إلا أن اعتزازى بإمبراطوريتى كان يغلبنى، فأتمنى أن أنجب ولداً.. وأسرح فى الخيال، وأتصور أولادى الستة وقد تزوج كل منهم، وأنجب بدوره ستة أولاد، أطلق على كل منهم حرف الميم.. ويتزوج الأحفاد، ويرفعون الشعار.. شعار الميم.. و.. و.. إلى أن تصبح مصر كلها.. ميم.

أحلام كانت تراودنى كلما رفعت رأسى عن عملى.. أحلام ساذجة.. ولكنها جميلة..

وأكبر أولادى.. مصطفى.. فى الثانية والعشرين من عمره الآن، طالب متفوق فى كلية الهندسة..

ولكنه ليس ألمع أولادى..

المهم هو ابنى الثانى.. مجدى.. رغم أنه طالب فى كلية الآداب، قسم الفلسفة..

إنه دائماً الشخصية التى تثير الانتباه فى البيت.. وأكثر الأولاد

كلاماً.. وأشدهم تأثيراً على إخوته.. حتى أخوه الأكبر يتأثر به، وينقاد له.. وهو صاحب مشاريع عائلية كثيرة.. أدخل في البيت نظام المكتبة الجماعية، بعد أن أصدرت أمراً ألا يمس أحد من الأولاد مكتبتى، لا بخلاً منى، ولكن لأنها مكتبة فنية.. كلها كتب فى الاقتصاد والإحصاء، لا يفهم منها الأولاد شيئاً.. وقد نجح مشروع المكتبة الجماعية.. دفع كل واحد من الأولاد عشرة قروش من مصروفهم، وأقنعوا أمهم بأن تشترك معهم بجنيه.. وأنشأوا نواة المكتبة.. وكانت المناقشة التى دارت بين مجدى وأمه، ليقنعها بدفع الجنيه مناقشة عجيبة.. فقد حاول أن يقنعها بأنها يجب أن تدفع جنيهاً - لا عشرة قروش - لأنها لا تقرأ الكتب.. ولا تحاول أن تقرأها.. والذى يقرأ يبذل مجهوداً أكبر من الذى لا يقرأ، ويجب أن تدفع تعويضاً أو غرامة، عن هذا المجهود الذى لا تبذله.. وقطعاً لم تقنع أمه بهذا المنطق، ولكنها دفعت الجنيه مرضاة له... أما أنا، فلم يعرض على مجدى الاشتراك فى المشروع، ربما لأنه لا يريد أن أتدخل بسلطانى كآب، فى إدارته..

ولم يكن مجدى لامعاً فقط فى هذه الناحية.. كان لامعاً أيضاً فى علاقته مع البنات.. معظم التليفونات التى تدق فى البيت، ينطلق منها أصوات بنات يطلبن مجدى.. وكان هو الوحيد بين أولادى الذى أجهل الكثير عن حياته الخاصة.. فهو - رغم أنه كثير الكلام - إلا أنه لا يتكلم أبداً عن حياته الخاصة.. لا يتحدث عن أصدقائه، ولا عن البنات، ولا حتى عن حياته الجامعية.

ولا أريد أن أقول إن مجدى هو أقرب أولادى إلى قلبى.. فأنا حريص دائماً على أن أضع أولادى كلهم فى مستوى واحد من قلبى... وحريص على أن أعاملهم كلهم معاملة واحدة.. وربما كان فى معاملتى لهم بعض الضعف.. لا.. ليس ضعفاً.. إنه نوع من التوفيق بين العقل والعاطفة.. وأنا لا أستطيع أن أتصرف بعقلى

تصرفاً لا تحتمله عواطفى.. وربما كان هناك من يؤمن أن من واجب الأب أن يصل فى تهذيب أولاده إلى حد الضرب.. ولكنى لا أطيق أن أضرب واحداً من أولادى، مهما أخطأ.. غاية ما وصلت إليه هو أن أخصم من المخطيء بعض مصروفه الخاص، ثم لا ألبث بعد أيام أن أعيد له ما خصمته منه... بل إنى فى حالات كثيرة كنت لا أطيق أن أؤنب واحدا منهم، فأوصى زوجتى بتأنيبه.. وكنت أترك لهم دائماً حرية التصرف فى الحدود التى وضعتها لهم.. وأترك لهم حرية مناقشتى، بكل صراحة.. ودون تقييد بالهبة التى يشعر بها بعض الأبناء نحو آبائهم.. كل ما كنت أحرص عليه هو الاحترام المتبادل بيننا.. احترام أساسه الحب لا الخوف.. والاعتناع لا الاستسلام..

و..

أظن أنى تحدثت بما فيه الكفاية عن عائلتى.. تحدثت بما يكفى لتصوير الحادث الكبير الذى وقع لنا..
لقد كان البيت هادئاً.. لم يكن هناك ما ينبئ بأى شىء جديد.. وكنت جالساً فى الصالة على المقعد العريض، وقدمائى ممدودتان أمامى، وعينائى نصف مغلقتين.. أستريح بعد الغداء... ولمحت مجدى خارجاً وقد ارتدى أزهى حله.. البنطلون الأسود، والبلوفر المخطط الذى اشتريته له من ألمانيا عندما كنت هناك فى العام الماضى فى بعض أعمال المؤسسة..

وقلت له فى هدوء ودون أى قصد :

- إلى أين ؟

قال :

- سأخرج..

قلت :

- إنى أراك خارجاً بالفعل.. ولكن.. إلى أين ؟

قال :

- أليس لى حق أن أخرج وقتما أشاء ؟..

قلت :

- ولى حق عليك أن تطمئنى إلى أين تخرج..

قال :

- لا.. ليس هذا من حقك.. إن من حقك فقط أن تسألنى.. ومن

حقى ألا أجيب..

قلت وقد اتسعت عيناى دهشة لجرأته :

- أنا أبوك..

قال :

- ماذا يعنى هذا ؟

قلت :

- يعنى أننى مسئول عنك.. ومن حقى أن أعرف أين تذهب..

قال :

- معنى هذا أن من حقك أن تمنعنى من الخروج.

قلت :

- نعم..

قال :

- هذه ديكتاتورية..

وعدت أردد فى دهشة :

- ولكنى أبوك..

قال :

- لا فضل لك فى هذا.. أى إنسان يستطيع أن يكون أباً.. ونحن

لا نناقش إذا كنت أبى أم لا.. ولكننا نناقش سلطة إدارة العائلة،

وسلطة إعطاء الأوامر..

قلت وقد بدأت أحتد من الغيظ :

- أنا رب هذه العائلة.. أنا الذى أنفق عليها.. أكد وأشقى لأحصل

على المال الذى أنفقه عليها.. و..

وقاطعنى :

- ليس هذا سبباً كافياً لتنفرد بإصدار الأوامر.. لو أتبعنا منطق
« كل من يصرف يتولى الإدارة » فمعنى هذا أن من حقى أن أبحث
عن أب آخر أغنى منك، يصرف على أكثر، ويتولى إدارة حياتى..
قلت وأعصابى ترتعش :

- إذن.. فمن حقى إذا لم أتول إدارة العائلة، ألا أصرف عليها..
قال :

- هذا منطق مغلوط.. إنك لا تنفق علينا بإرادتك.. ولا تستطيع أن
تقرر عدم الإنفاق علينا.. القانون، والنظام الاجتماعى يحتم عليك
الإنفاق علينا.. وهناك مجتمعات أعفت الآباء من مسئولية الإنفاق على
الأولاد، كمجتمع السويد.. ونحن لم نصل إلى ما وصلت إليه
السويد.. ولكن الدولة هنا فى مصر تساهم معك فى الإنفاق علينا..
إن مجانية التعليم، وتخفيض الأسعار.. و.. و.. كل ذلك هو مساهمة
من الدولة فى الإنفاق على الأولاد..

قلت وأنا أخبط بيدي على مسند المقعد :

- والحب.. إنى لم أشعر بالدولة ولا بالمجتمع، وأنا أشتري لك
هذا البلوفر.. كل ما شعرت به هو أنى أحبك..

وأجاب وهو بارد كلوح الثلج :

- هذه عاطفة رأسمالية.. ومنطق الديكتاتورية.. إنك لا تستطيع
أن تستعبدنى لأنك تحبنى.. ولا تستطيع أن تتحكم فى حياتى لأنك
اشتريت لى بلوفر.. أنا أيضاً أحبك ورغم ذلك لا أطالب بالتحكم فى
حياتك..

قلت :

- إنك لا تحبنى.. إنك تنسى أنى أنا الذى أعمل.. أنا الذى أشقى..

قال محتفظاً ببروده :

- كلنا نعمل.. وحاجة المجتمع إلى عملك، لا تقل عن حاجة المجتمع إلى عملي.. أنت تنجح في المؤسسة، وأنا أنجح في الجامعة.. والمجتمع عندما يدفع لك مرتبك يكلفك ضمناً بأن تدفع لنا مرتباتنا.. قلت :

- إذن أنتم تستفيدون مني.. وأنا لا أستفيد منكم.. قال دون أن يهتز :

- ليس المفروض أن يستفيد فرد، المهم أن يستفيد المجتمع... ثم إنك تستفيد أيضاً.. فإنك بعد أن تحال إلى المعاش، ستدفع لك الدولة معاشاً.. من أين تدفع لك.. من عملك ؟ لا.. لأنك تكون قد توقفت عن العمل.. ولكنها تدفع لك من عملنا نحن.. الجيل الذي يتولى العمل بعدك.. وقبل أن تحال إلى المعاش.. تستفيد أيضاً.. فائدة معنوية كبيرة.. إننا ندخل السعادة والزهو على قلبك.. إنك تتباهى بنا.. وقد اخترت حرف الميم شعاراً لمباهاتك بنا.. وصرخت :

- ماذا تريد.. قل لي ماذا تريد.. سأجن..

واقترب مني، وجلس على مقعد بجانبى، وقرب وجهه من وجهى، وقال وعلى شفثيه ابتسامته التى تفتح قلبى :

- اسمع يا بابا.. الواقع أن الأسرة هى الخلية الأساسية فى المجتمع... وكل النظم التى تطبق على المجتمع ، تطبق بالتالى فى داخل الأسرة.. والأسرة بحكم تكوينها الطبيعى هى خلية اشتراكية.. فكل ما تملكه أنت، أو تعتقد أنك تملكه، هو فى الواقع ملك للأسرة كلها... ودخلك هو دخل الأسرة كلها، وهو يوزع على أفرادها كل بحسب عمله.. فأخى الأصغر تعطيه الأسرة أقل منى.. لأنى أعمل أكثر منه.. وأخى الأكبر يأخذ أكثر منى لأنه يعمل أكثر منى.. وكذلك بقية إخوتى.. وكذلك أنت وأمى.. ولا أقصد المصروف الشخصى لكل منا، ولكنى أقصد حجم الإنفاق على كل منا.. هذا من ناحية

الاشتراكية.. تبقى ناحية الديمقراطية.. والاشتراكية تتطلب حتماً
ديمقراطية الإدارة.. فمن يتولى الإدارة..

قلت بسرعة وبحدة صارمة :

- أنا..

قال مبتسماً :

- لا..

قلت ساخطاً :

- أظن أنت ؟!

قال :

- ولا أنا.. القاعدة الشعبية.. أى كل أفراد العائلة..

قلت :

- أنت مجنون..

قال كأنه لم يسمعنى :

- بالانتخاب.. تنتخب العائلة الشخص الذى تثق فيه ليتولى

إدارتها.. ويتجدد انتخابه كل عامين.. ونضع لائحة لسلطات الإدارة..

ولا مانع من أن نكون مجلس إدارة من ثلاثة مثلاً.. و..

قلت صارخاً :

- هذا كلام مجانين.. الفلسفة لخبطت مخك.. ابعده عنى.. وقمت

ثائراً ودخلت غرفتى.. ودمائى تغلى..

ولكن مجدى لم ييأس.. لقد جمع إخوته وأخذ يلح عليهم بأفكاره

حتى أقنعهم.. بل إنه أقنع زوجتى أيضاً، وفوجئت بها تقول لى قبل

أن تنام وهى تلف ذراعها حول كتفى :

- يا أخويا.. طاوع الأولاد.. دعهم يفرحوا بشبابهم..

وانقلب البيت..

كلهم يتحدثون عن الاشتراكية والديمقراطية.. حتى ابنى منير

الذى لم يتجاوز التاسعة من عمره.. يسير فى البيت وهو يهتف..

تحيا الديموقراطية.. لا ديكتاتورية بعد اليوم..
والواقع أن بينى وبين نفسى كنت أشعر بأنى عجزت عن الرد
على منطق مجدى.. وكنت فى محاولة لإقناع نفسى بأن أقبل أفكار
أولادى..
وأخيراً..
قبلت..

وبدأ الاستعداد للانتخابات.. انتخاب الأب.. وضعنا كشفاً بأسماء
الناخبين.. واشترطنا ألا يقل سن الناخب عن تسع سنوات، حتى
ندخل معنا منير..

وقررنا فى الوقت نفسه أن تشترك فى الانتخابات خادمتنا سنوية
(١١ سنة) والخادم شكرى (١٨ سنة)..
ثم فتحنا باب الترشيح..

وترددت كثيراً قبل أن أرشح نفسى. (خفت أن أبهدل نفسى بين
أولادى.. ولكنى خفت أكثر من ألا أرشح نفسى. ثم يسير المشروع
سيراً جدياً وأنا بعيد عنه.. بعيد عن أولادى.. وأخيراً استطعت أن
أقنع نفسى بأن المسألة كلها لا تعدو مجرد لهو بريء وأن من الأفضل
أن أشترك مع الأولاد فى لهوهم..
ورشحت نفسى..

ولم يرشح نفسه أمامى إلا مجدى..
وبدأ مجدى يقوم بدعاية انتخابية ضخمة لنفسه. إنه لا يكف عن
التحدث مع إخوته عن مشروعاته العائلية.. وملاً جدران البيت
باللافتات الانتخابية.. انتخبوا المكافح الاشتراكى.. انتخبوا المجاهد
فى سبيل مطالبكم.. انتخبوا أخاكم الفالح.. و.. و..

أما أنا فقد احتفظت باحترامى لنفسى.. لم أقم بأى دعاية
انتخابية.. ولكنى لا أنكر أننى ازدت رقة فى معاملة أولادى.. وكنت
أسرع من العادة فى إجابة مطالبهم.. بل إنى ازدت تودداً لزوجتى

خوفاً من أن تعطى صوتها لابنها.. نعم.. كنت خائفاً. خفت من نشاط
مجدى الانتخابى.. وخفت على مركزى كأب.. وكنت أنام وأحلم أنى
سقطت فى الانتخابات.. وأنى عدت إلى البيت فى أول الشهر وسلمت
مرتبى لمجدى ليتولى إدارته.. وأن أولادى أصبحوا يلجأون إلى
مجدى بدلاً عنى فى كل ما يريدونه.. وزوجتى... و.. و..

ورغم ذلك سرنا فى التجربة..

وجاء يوم الانتخابات..

وأنا أشد خوفاً..

وكنا قد صنعنا صندوقاً صغيراً لتلقى أصوات الناخبين.. وكونا
لجنة للإشراف على الانتخابات، أنا رئيسها (بحكم السن)..
 واجتمعت العائلة بما فيها سنية وشكرى، وكل فرد يدخل ويكتب
اسم مرشحه فى ورقة ويطويها ويلقى بها فى الصندوق..

ثم بدأنا فرز الأصوات..

وقلبى فى قدمى.. وعيناي مخنوقتان..

الورقة الأولى.. محمد مرسى.. أنا..

والثانية.. محمد مرسى.. أنا..

والثالثة.. والرابعة.. والخامسة.. والسادسة.. أغلبية الأصوات..

كلها محمد مرسى.. أنا.. لقد فزت.. انتخبت..

ودق قلبى..

فرحت..

لم أفرح فى حياتى قدر هذه الفرحة..

والورقة السابعة.. محمد مرسى.. أنا..

والثامنة.. محمد مرسى.. أنا..

والتاسعة.. محمد مرسى.. أنا..

لم تبق إلا ورقة واحدة..

لا بد أنها ورقة مجدى..

وفتحنا الورقة الأخيرة.. محمد مرسى.. أنا..
واغرورقت عيناي بالدموع.. شكراً يا رب... كل هذا الحب.. وكل
هذا الإيمان.. لقد انتخبوني بالإجماع... حتى مجدى..
وتلقيت مجدى بين ذراعى.. أقبله... واجتمع الأولاد كلهم بين
ذراعى.. يقبلوننى.. وزوجتى.. تضحك فى مرح... وسنية تطلق
زغرودة..

وقلت فى صوت جاد وقلبى يخفق بالسعادة :
- عيب يا أولاد.. ممنوع تقبيل الرئيس.. المهم أن نضع الآن،
اللائحة..

ووضعنا اللائحة.. لائحة مؤقتة إلى حين تكوين مجلس الإدارة..
وبعد أسبوع..

أجرينا انتخاب عضوين لمجلس الإدارة..
أتدرون من فاز.. زوجتى.. ومصطفى، ابنى الأكبر..
لم ننتخب مجدى..
خفنا من تطرفه..
ولكنه لا يزال ألمع إخوته..
و....

وزوجتى تطرز حرف «الميم» على كل شىء فى البيت.. على
المفارش.. والوسائد.. والبيجامات.. و.... و....
لقد أصبحت إمبراطورة «ميم» جمهورية اشتراكية ديمقراطية.
والعمارة كلها تتحدث عن تجربتنا..



الشيخ في بطة القطة

لم أسمع باسمه ، ولكنى قرأته.. وكان ذلك
عندما سكنت حديثاً فى العمارة الكبيرة الكائنة
عند مدخل شارع المنيل.. ووقفت أمام صناديق
البريد الخاصة ، أقرأ أسماء جيرانى.. وتوقفت
عيني عند اسم «عبدالبارى محمد - مستشار
بمجلس الدولة».. وأحسست ساعتها أن صاحب



هذا الاسم لابد أن يكون رجلاً مقلوباً.. يسير على يديه.. أو يسير
بقفاه.. لو كان الاسم «محمد عبدالبارى» لكان اسماً لرجل معدول..
ولكن «عبدالبارى محمد».. اسم عجيب.. وابتسمت وأنا أتصور
جارى يسير بالمقلوب.. ثم حمدت الله أنه مستشار فى مجلس
الدولة.. ويسكن فى الشقة التى تقع فوق شقتى تماماً.. ربما كان
إنساناً ذكياً ومحدثاً لبقاً.. ولا ذنب له فى اسمه.. ومنيت نفسى
بصداقة جديدة ممتعة..

وعشت أياماً طويلة أنتظر لقاء الصدفه الذى يجمع عادة سكان
العمارة بعضهم ببعض.. فى المصعد.. على السلم.. على محطة
الأتوبيس.. وقد التقيت بالكثيرين من سكان العمارة بهذه الطريقة..
يبتسم أحدها للآخر.. ثم تتصافح.. ثم.. نتفق على موعد لتبادل
الزيارة.. لم يكن من بين السكان إلا شخص واحد نفور.. لا يرد
ابتسامتى.. ولا يشجعنى على مصافحته.. إذا التقينا فى المصعد أدار
وجهه عنى.. وإذا التقينا فى الشارع سبقنى فى خطوات سريعة
مهرولة ، دون أن يلتفت إلى.. ولم أهتم به فى أول الأمر.. فقد كان
مظهره لا يريح.. كان رجلاً نحيفاً معروفاً ، ممصوص الوجه.. عيناه
واسعتان ينطلق منهما بريق قلق.. وأنف دقيق.. وشفثاه رفيعتان
مزمومتان دائماً.. وثيابه واسعة عليه.. كأنه اشتراها نصف عمر..
ودائماً يعود وهو يحمل فى يده كيساً من الورق منتفخاً.. وقدرت أنه

كان أخاً مريضاً مهزوزاً لأحد السكان ، يقيم معه.. وقررت ألا أحاول أن أتقرب إليه ، أو أن أعرفه..

والواقع أن العمارة وسكانها كانت رائعة.. خير ألف مرة من العمارة التي كنت أقيم فيها والتي تقع فى حى شبرا.. وقد سعدت زوجتى بالعمارة ، وسعدت بجاراتها الجديدات.. كلهن زوجات لموظفين كبار.. أقلهم فى الدرجة الرابعة..

الشيء الوحيد الذى كان يضايق زوجتى هو كثرة القطط.. لا تكاد تفتح باب المطبخ حتى تتسلل إلى البيت قطة.. وتطردها.. ولكنها لا تكاد تفتح الباب مرة ثانية ، حتى تدخل قطة أخرى.. وتصرخ زوجتى.. أنا عارفة القطط دى بتترمى علينا منين..

وأصبحت هذه القطط مشكلة حقيقية فى البيت.. كانت مشكلتنا فى شبرا هى الفيران ، وهنا أصبحت مشكلتنا القطط..

إلى أن قالت لى زوجتى يوماً :

- تعرف القطط دى بتاعة مين ؟

قلت :

- مين ؟

قالت وهى تنظر إلى كأنها تكتشف سراً خطيراً :

- بتاعة الراجل المستشار اللي ساكن فوقنا.. مربى عنده اتناشر

قطة.. وكل قطة يلاقيها فى الشارع يجيبها معاه..

قلت وأنا أفتح عينى مدعياً الدهشة حتى أرضى زوجتى :

- شكه إيه الراجل ده.. أنا عمرى ما شفته..

وانطلقت زوجتى كالصاروخ..

- ده راجل ممصوص ، وشكله عرة.. أنا عارفة عملوه مستشار

إزاي..

وتذكرت على الفور الرجل النفور الذى ألتقى به فى المصعد..

هل يمكن أن يكون هذا الرجل هو عبدالبارى محمد المستشار
بمجلس الدولة؟!
مستحيل..

والتقيت به مرة ثانية فى المصعد.. ونظرت إليه باهتمام أكبر..
وخيل إلى أنى اكتشفت فيه شيئاً وقوراً ذكياً رغم نظراته القلقة..
وعدت أحاول أن أبتسم له.. ولكنه لا يرد على.. لا يزال نفوراً..
واشتد فضولى..

إنى أريد أن أعرفه..

وقبل أن أعرفه ، كنت دائماً أسأل زوجتى عن أخباره.. وأحياناً
أتسلل من باب المطبخ وأرقب باب شقته.. إنه يضع عند الباب طبقين
كبيرين يملؤهما بالطعام ، وتلتف حولهما القطة.. أكثر من اثنتى
عشرة قطة..

وفى إحدى الليالى نادتنى زوجتى وقالت هامسة وهى تطل من
شباك المطبخ المفتوح على المنور :

- شوف الراجل المجنون بيعمل إيه..

ورأيت جارى ينزل على درجات سلم المطبخ مرتدياً جلبابه..
حافى القدمين.. وهو يردد.. بسبس.. بسبس.. بسبس.. بسبس..
ويتلفت حوالياً كأنه يخشى أن يراه أحد.. ثم عاد وصعد الدرجات
وهو يحمل بين يديه قطة صغيرة..

وفى يوم التقينا فى المصعد ، وكان معنا جار ثالث.. ما كاد ينضم
إلينا ، حتى مد يده وصافح السيد عبدالبارى قائلاً :

- أهلاً سيادة المستشار.. إزاي الصحة..

وانتهزتها فرصة ومددت يدي أنا الآخر قائلاً :

- دى فرصة سعيدة يا سيادة المستشار.. أنا حسن علوان..

الساكن الجديد فى الشقة اللى تحت سيادتك..

وأجاب فى فتور وهو يصادفنى ، وكيس الورق الذى يحمله
يتأرجح فى يده الأخرى :
- تشرفنا..

قلت فى إلحاح :

- والله عندى موضوع خاص عايز أكلم سيادتك فيه.. إذا كان
ممکن تسمح لى بزيارتك و...
وقاطعنى قائلًا بلا اهتمام :

- عارف الموضوع الخاص.. اتفضل فى أى وقت.. وزرته..
واستقبلنى مرتدياً جلبابه.. وعلى شفثيه ابتسامه.. وفى عينيه
نظراته القلقة.. ثم بدأ يحدثنى فوراً فى مواضع كثيرة.. آخر ما قرأه
من أخبار الصحف .. والنواحى القانونية .. ذكرياته فى القضاء..
حديثاً ممتعاً حقاً.. صدقونى إذا قلت إنى لم أتمتع بحديث قدر ما
تمتعت بحديث السيد عبد البارى.. وأنا صامت.. أستزیده من حديثه..
وقبل أن تنتهى الزيارة بدقائق قال لى بصوت ثابت ، وإن كانت
عيناه ازدادت لمعاناً :

- أنا عارف الموضوع اللى كنت عايز تكلمنى فيه.. موضوع
القطط.. مش كده.. الواقع أنها مسألة خاصة بى.. لها أسبابها
عندى.. وأى إزعاج تسببه القطط للجيران أنا مسئول عنه..
وقلت تملقاً :

- أبداً.. لا إزعاج.. ولا حاجة.. بالعكس.. أنا باحب القطط..
وتركته وأنا سعيد بمعرفته..
ولكن زوجتى لا تحتمل القطط.. فى كل يوم تثير مشكلة بسبب
القطط التى تتسلل إلى بيتها..

ثم استقبلتنى يوماً مهلة وهى تقول كأنها تزغرد :
- بس.. أنا جبت لك كل حكاية القطط.. النهاردة طلعت أزور

الست أخت المستشار وحكت لى كل حاجة..

وقد نسيت أن أقول لكم إن سيادة المستشار ليس متزوجاً ولم يسبق له الزواج رغم أنه فى الرابعة والخمسين من عمره.. ويقيم مع شقيقته التى تصغره بثلاثة أعوام..

وبدأت زوجتى تروى القصة التى سمعتها..

عبدالبارى لم يكن فى شبابه يحب القلط أو يهتم بها.. وكان من أوائل خريجي كلية الحقوق.. وعين وكيلاً للنيابة فى القاهرة عقب تخرجه.. وخطب ابنة عمه... وكان فى البيت قطة صغيرة تلهو بها شقيقته.. وفى يوم عاد إلى البيت.. وبلا قصد.. داس على بطن القطة بقدمه.. فماتت.. وقالت له أمه إن القلط مشايخ.. فى كل قطة يسكن شيخ.. وأن هريرها ما هو إلا تلاوة لآى الذكر الحكيم.. وأن عليه ما دام قد قتل قطة أن يقيم خاتمة فى ضريح الحسين، ويتصدق على الفقراء ، ويستغفر ربه..

ولم يقتنع عبد البارى بكلام أمه.. هز كتفيه.. وضحك... وحمل جثة القطة وألقاها فى صفيحة الزبالة..

وبعد أسبوع..

أسبوع واحد..

ماتت خطيبته.. وأصيبت أمه التى يحبها بالشلل.. ثم نقل من القاهرة إلى أسبوط نتيجة غضب رئيسه عليه.. ثم مرض هو الآخر بالصفراء..

وتذكر عبد البارى كلام أمه..

وخاف.. خاف من انتقام الشيخ الذى يسكن جسد القطة.. واشتد به الخوف إلى حد أن اعتقد أنه سيموت... وقد ظل فى الفراش أكثر من ثمانية شهور معتقداً أنه سيموت فى أى لحظة ، رغم تأكيد الأطباء له بأنه قد شفى من المراجعة..

وعندما عاد إلى عمله ظل خائفاً.. خائفاً لدرجة أنه لم يكن يخرج
لتحقيق الجرائم التي يستدعى لتحقيقها.. فنقل من النيابة إلى وظيفة
إدارية فى القضاء.. وترقى بحكم أقدميته ومساعى عمه..

ومن يوم هذه الحادثة ، وعبدالبارى يحاول أن يعتذر للقطط..
ويستغفرها.. ويرضيها.. ويجمع عدداً كبيراً منها ليطعمها.. ويذهب
إلى المحكمة وفى جيبه كيس الورق ، حتى إذا وجد فى طريقه قطة
صغيرة ضالة أخرج كيس الورق من جيبه ، ووضع فيه القطة
وحملها إلى البيت.. ولكنه إلى اليوم لا يحب القطط... ولكنه يخافها..
بدليل أنه لا يسمح لأى قطة بأن تدخل البيت، ولكنه فقط يطعمها
بجانب باب المطبخ..

واستمعت إلى ما ترويه لى زوجتى ، وأنا فى عجب.. وتذكرت
عبد البارى عندما يعود حاملاً كيس الورق.. كان يحرص على أن
يخفيه وراء ظهره.. وأكثر من مرة لاحظت كأن فى الكيس شيئاً
يتحرك.. ولكن ملاحظتى كانت تمر دون أن أهتم بها..

وكانت صداقتى لعبد البارى قد توطدت فى هذه الأثناء.. كنت
دائماً عطشاً إلى حديثه الممتع.. ولكننا لم نكن أبداً نتحدث عن
القطط..

وتجرات فى إحدى زيارتى له ، وقلت له ما سمعته من زوجتى..
ونظر إلى عبد البارى بعينيه الواسعتين القلقتين كأنه بهم بأن
يخنقنى ، ثم هدأ بسرعة ، وأحنى رأسه وقال بصوت خفيض :
- هذا صحيح..

وانتظرت صامتاً لأسمع منه تعليلاً ، ولكنه اكتفى بأن قال :
- هناك أشياء كثيرة وراء العقل البشرى.. يجب أن نأخذها
قضايا نسلم بها..
ثم أنهى الزيارة..

وتركته وأنا أتعجب من أن تكون هذه عقلية مستشار.. لا يمكن
أن تكون خرافة أن فى كل قطة شيخاً.. قضية مسلم بها..
إلى أن حدثت الأعجوبة الكبرى..
ابنى شاكر أمسك بقطة من قطط عبدالبارى، وألقى بها من أعلى
سلم المطبخ ، ف وقعت ميتة..
ورآه عبد البارى فنظر إليه فى هلع ، وتمتم كأنه يترحم عليه :
- مسكين يا بنى..
وبعد أسبوع..
أسبوع واحد..
وقع ابنى فكسرت ساقه.. وأصيبت زوجتى بنزيف حاد خطر..
وتخطانى زملائى فى الترقية و..
وأقمت خاتمة فى ضريح الحسين.. وتصدقت على الفقراء بربع
مرتبى لمدة ثلاثة شهور..
وفى بيتى الآن اثنتا عشرة قطة..
زوجتى تطعمها بيديها..



حناء بنت السلطان

هوايتى الوحيدة هى إطلاق خيالى..
إنى أستطيع أن أقضى الساعات الطويلة ،
وأنا سرحان.. أرقب خيالى وهو منطلق كأنى
أرقب عصفوراً فى السماء.. يقفز من شجرة إلى
شجرة ، ومن غصن إلى غصن.. ويزقزق.. دون
سبب.. وبلا منطق.. إلا مجرد الانطلاق..



والزقزقة..

وخيالى كذلك ، ليس له منطق فى انطلاقه.. ولا حدود.. إنه خيال
مشرد.. مجنون.. يضحك كالمجانين ، ويبكى كالمجانين.. ويبنى
قصوراً ليهجرها ويعيش فى كوخ.... ويقف خطيباً كروبسبير يقود
جموع الشعب إلى الثورة.. ثم فجأة يترك جموع الشعب ليلعب الكرة
الشراب مع أطفال حى زينهم..

إنه خيال مجنون.. ولكنى سعيد به.. إنه صديقى الوحيد.. إنه
دنياى التى لا يشاركنى فيها أحد.

وأحياناً.. وأنا سرحان ، أحس أن فى داخلى طفلاً صغيراً..
جميلاً.. وأحب هذا الطفل عندما أحس به.. أحبه جداً.. وأداعبه..
وأدله.. وأغنى له.. وأستغل خيالى فى ابتداء قصص صغيرة أرويها
له ، حتى ينام.. خصوصاً عندما يبكى هذا الطفل.. وهو يبكى بكاءً
مزعجاً كلما وقعت فى مصيبة.. والمصائب كثيرة ، وقد تعودت على
احتمالها.. مهما كانت المصيبة ، ترانى دائماً هادئاً ، مبتسماً ، قوياً..
ولكن هذا الطفل الذى يعيش فى داخلى ، لا يحتمل المصائب.. لا تكاد
مصيبة تقع لى ، حتى يرتفع صراخه ، حاداً، مزعجاً ، يشق
صدرى.. وأضطر أن أحمله وأجلس به وحدى فى غرفتى.. أدله..
وأتحايل عليه.. ثم أطلق خيالى ليروى له بعض هذه القصص
الصغيرة التى أبتدعها.. حتى يهدأ.. وينام..

هل تريدون أن تسمعوا قصة من القصص التي أرويها لطفلي..
اسمعوا..



كان يا ما كان ، ما يحلى الكلام إلا بذكر النبي عليه الصلاة
والسلام.

كان فى زمن من الأزمان ، سلطان اسمه السلطان حمدان ، يحكم
كل بلاد همدان.. له بنت واحدة.. جميلة.. رقيقة.. اسمها حنان..
وكان السلطان يحب ابنته حنان ، حب عبادة.. كانت أغلى عنده
من كل مملكته.. لا يفتح عينيه فى الصباح إلا إذا قبلتهما له حنان..
ولا يغمضهما فى المساء إلا إذا قبلتهما له حنان.. ولا يأكل إلا إذا
أكلت حنان.. ولا يضحك إلا إذا ضحكت حنان..
السعادة تغمر القصر كله..

والشعب سعيد ، يحب حنان كما يحبها أبوها السلطان..
وحنان تلعب.. وتضحك.. وتمرح فى عز أبيها.. وكل رغبة من
رغباتها أمر مطاع..

إلى أن بلغت حنان السادسة عشرة من عمرها... وبدأت تنتابها
حالات غريبة.. كانت تبدو أحياناً ساهمة... وأحياناً تعتكف فى
غرفتها ساعات طويلة ، فإذا استدعاها أبوها ، خرجت إليه فى
استرخاء ، وعيناها مطفأتان..

وسألها أبوها السلطان ، وقلبه ملهوف عليها :

- ما بك يا حنان..؟

وأجابت حنان وهى تزفر أنفاسها :

- لا أدرى يا أبى.. ولكنى زهقانة..

وضحك السلطان ضحكة عريضة اهتز لها كرشه الضخم ، وقال :

- ابنة السلطان حمدان ، زهقانة.. هذا مستحيل.. مستحيل..

وصفق بيديه ، وأمر باستدعاء جميع الفنانين فى مملكته للترفيه
عن حنان ، وطرد الزهق عنها..

وفى ساعات اجتمع فى القصر كل الموسيقيين ، وأشهر المطربين
والمطربات ، والراقصات ، والممثلين ، والمضحكين ، والحواة.. وأخذوا
يعرضون فنونهم وألعابهم أمام حنان...

وابتسمت حنان ابتسامة ضعيفة باهتة.. ثم ما لبثت بعد دقائق ،
أن تركتهم جميعاً ، ودخلت إلى غرفتها ، وأغلقت بابها عليها..
وازدادت حالة حنان سوءاً..

ووجهها النضر أخذ يذبل.. بشرتها البيضاء يزحف عليها ضباب
أصفر.. شفاتها الضاحكتان ، لا تقويان على الابتسام.. عيناها
النشطتان ، مرخاتان ، كسولتان ، كأنها لا تجد حولها شيئاً يستحق
أن تراه..

واشتد جزع السلطان على ابنته.. واستدعى كبار الأطباء فى مملكته
والممالك المجاورة.. وقضى الأطباء أياماً يفحصون حنان، ويعيدون
فحصها.. ثم هزوا رءوسهم فى حيرة.. إنهم لا يعرفون مرضها..
وتمزق قلب السلطان.. وجمع حوله فلاسفة عصره وحكماءه..
استدعاهم من جميع الأقطار.. وسألهم رأيهم فى حالة ابنته حنان..
وتشاور الفلاسفة والحكماء طويلاً ثم قال أحدهم :

- يا جلالة السلطان أدام الله عزك وأيدك بنصره.. إن شفاء
الأميرة حنان ، فى رحلة تقوم بها إلى بلاد سندان.. لترى الجبال
الخضراء.. وبحيرات شفافة كالمرآة.. وشلالات كذوب الفضة..
وبلاداً حباها الله بخصائص الجنة.. فتسترد روحها الضائعة.. وتملاً
عينيها بالجمال.. وتعود بالعافية.. وفى الأسفار خمس فوائد والله
أعلم..

وأقر الفلاسفة والحكماء قول زميلهم ، ومشطوا لحاهم البيضاء

بأصابعهم دليل استحسان الفكرة..

وفى الحال ، أمر السلطان بإعداد الركاب..

وسافرت حنان إلى بلاد سندان ، يحوطها ألف من العبيد

والفرسان.

ثم عادت بعد ستة شهور.. واستقبلها أبوها السلطان عند مدخل

المدينة ، وشوقه يكاد يطير به من على الأرض.. ولكنه ما كاد ينظر

إلى وجهها حتى ذابت فرحته ، وتلاشت ضحكته ، وغاص قلبه فى

قدميه.. رأى عينيها ملؤهما الملل.. وشفتيها يكسوهما الزهق..

وبشرتها صفراء.. وجسدها هزيل.. وصوتها ضعيف..

ورقدت حنان فى فراشها لا تستطيع أن تقوم من عليه.. وأبوها

السلطان بجانبها يبكى آناء الليل وأطراف النهار.. يناديها فلا

تسمعه.. ويقبلها فلا تحس بقبلته..

وهمست خازندارة القصر فى أذن السلطان :

- يا مولاي السلطان ، أدام الله عزك وأيدك بنصره.. اسمح لى أن

أتناول على مقامكم العالى وأذكركم بأن الأميرة حنان أصبحت فى

عمر الزواج.. ولو وجدت الزوج الذى يروى شبابها ، لازدهرت

حياتها..

ورفع السلطان حاجبيه دهشة :

صحيح.. إن حنان أصبحت فى عمر الزواج..

وابتأس السلطان برهة.. إنه لا يريد أن يزوج حنان ويتنازل عنها

لرجل آخر.. ليس الآن... ليس الآن.. ولكن.. ربما كان فى الزواج

الشفاء..

وأعلن السلطان أنه قرر تزويج ابنته الأميرة حنان..

وجاء الأمراء الشبان من جميع أنحاء المعمورة يخطبونها.. وكل

منهم فى أزهى ثيابه ، وكامل سلاحه ، يمتطى صهوة جواده..

ووقفت حنان فى ضعفها وهزالها.. تستعرض صفوفهم.. وبجانبها
خازندارة القصر تقص عليها محاسن كل منهم ، وتغريها بكل واحد
فيهم لعلها ترضى وتختار.. ولكن حنان لم يهتز لها رمش ، ولا خفق
لها قلب.. طافت عليهم جميعاً بعينيها الملولتين ثم عادت إلى
فراشها... وأعلنت أنها لا تريد الزواج..

وجلس بجانبها السلطان والأسى يشق صدره ، وقال فى توسل:

- ألا تقولين ما بك يا ابنتى !؟

وقالت حنان وهى تزفر أنفاسها :

- لا أدرى يا أبى.. ولكنى زهقانة..

والحزن يخيم على القصر ، وعلى الناس.. والسلطان أهمل شئون

مملكته.. والحياة كلها واقفة لا تتحرك..

إلى أن كان يوم..

وجاء إلى القصر شيخ مضىء الوجه باسم الثغر ، وقال إنه

يحمل الدواء الذى يشفى الأميرة حنان ، وطلب مقابلة السلطان..

واستقبله السلطان فى لهفة..

وقال الشيخ فى صوت كنفم الناي ، وثغره باسم :

- خذ هذا الكيس واملأه... وعندما يمتلىء تشفى الأميرة حنان.

ثم رفع عن كتفه كيساً فى حجم أكياس القمح ، وقدمه للسلطان..

وقال السلطان :

- أملأه بماذا ؟

ولكن الشيخ لم يرد.. تراجع فى خطوات.. وقبل أن يصل إلى

الباب ، كان قد اختفى..

وابتسم السلطان ابتسامة ساخرة يائسة.. إن هذا الشيخ ساحر..

وهذه حيلة ساحر.. وقد جرب من قبل كل السحرة ، وكل حيلهم ، ولم

تشف حنان.. ولكن.. لن يضيره شىء لو جرب هذه الحيلة أيضاً..

وأمر السلطان عبده بأن يملأوا الكيس الذى أتى به الشيخ..
وسأل العبيد :
- نملأه بماذا يا مولانا ؟
وفكر السلطان قليلاً ثم قال :
- بالجواهر واللآلىء..
وجمع العبيد كل ما فى القصر من جواهر ولآلىء ولكن الكيس لا
يتملىء.. إن كل ما يضعونه فيه يصغر حجمه ويرسب فى القاع..
وصاح السلطان :
- املاوه بالذهب والفضة..
وجمع العبيد كل ما فى القصر من ذهب وفضة.. ولكن الكيس لا
يتملىء.. كل شئ يضعونه فيه يصغر حجمه ، ويرسب فى القاع..
وصرخ السلطان :
- املاوه بما فى مخازنى من حبوب..
ولكن الحبوب يصغر حجمها وتتضاءل كمياتها. وترسب فى
القاع..
وجن السلطان.. وصرخ بأعلى صوته :
- املاوه بالرجال..
واستدعى العبيد كل الرجال.. وكل رجل يضعونه فى الكيس
يصغر حجمه ، ويتضاءل ويرسب فى القاع..
ويئس السلطان..
وحنان تزداد سوءاً..
وفى ليلة من ذات الليالى ، كانت حنان نائمة فى هزالها
وضعفها.. وفتحت عينيها فجأة ، فرأت أمامها الشيخ المضىء الوجه
الباسم الثغر... واتسعت عيناها دهشة وكادت تصرخ.. ولكن الشيخ
ابتسم لها وقال :

- لا تنزعجى يا ابنتى.. وخذى هذه الحبة الصغيرة.. وعندما
تسمعين المؤذن يؤذن لصلاة الفجر ، قومي من فراشك ، وضعى
الحبة فى الكيس. وسيمتلئ بإذن الله..
وقالت الأميرة حنان فى دهشة :
- ولكنها حبة صغيرة.. كيف يمتلىء بها الكيس..
قال الشيخ باسم الثغر :
- بإذن الله.. لا تنسى.. عندما يؤذن لصلاة الفجر..
واختفى الشيخ..

وظلت حنان ساهرة.. تتقلب على فراش الحيرة.. إلى أن سمعت
المؤذن يؤذن لصلاة الفجر.. فقامت من فراشها ، وسارت على
أطراف أصابعها فى أبهاء القصر ، إلى أن وصلت إلى البهو الذى
وضعوا فيه الكيس.. وألقت فيه بالحبة الصغيرة.
ورفعت رأسها فالتقت عيناها بالفارس حسان بن عبد ربه المكلف
بحراسة البهو..
وابتسمت..

وكانت المرة الأولى التى تبتسم فيها منذ سنين..
وعادت إلى غرفتها. وهى تحس بشيء غريب يسرى فى كيانها..
وتتساءل عن سر هذه الحبة التى أعطاها لها الشيخ ، وعن سر هذه
النظرة التى رأتها فى عيني الفارس حسان بن عبد ربه..
وقامت فى اليوم التالى نشطة على غير عادتها.. وذهبت إلى حيث
وضعوا الكيس.. فرأت الحبة الصغيرة قد كبرت.. ورفعت رأسها
فالتقت مرة ثانية بوجه الفارس حسان بن عبد ربه.. فابتسمت
ابتسامة أكبر من ابتسامة الأمس.. وجرت إلى غرفتها فى خفة كأنها
تطير.. وهى تحس بالحياة تعود إليها.. تحس بالعصافير وقد عادت
تغنى.. والورد يتفتح.. والياسمين يضحك.. والشمس تشرق..

وفى كل يوم تذهب إلى حيث وضعوا الكيس..
وفى كل يوم تلتقى بالفارس حسان بن عبد ربه..
وفى كل يوم يزداد تدفق الحياة فى القصر..
وحنان تضحك..
والسلطان يضحك..
وحسان بن عبد ربه يضحك..
والناس كلهم يضحكون..
إلى أن كبرت الحبة حتى امتلأ بها الكيس إلى آخره..
وجاء الشيخ الباسم الثغر يزور حنان فى أحلامها ، وقال لها :
- مبارك يا ابنتى.. لقد شفيت بفضل الله..
قالت فى خفر العروس :
- ولكن.. أيها الشيخ الجليل.. ما اسم الحبة التى ملأت الكيس؟
وابتسم الشيخ المضىء الوجه وقال :
- اسمها.. الحب..
و....

وتزوجت حنان من الفارس حسان بن عبد ربه ، وعاشا فى
التبات والنبات ، وخلفا صبيان وبنات.. وتوتة ، توتة ، فرغت
الحدوتة..
حلوة ولا ملتوتة..



هذه هى إحدى القصص التى أرويها للطفل العنيد الذى يعيش فى
صدرى.. فيبتسم.. ويهدأ.. وينام.



إنهم يصفقون لي

فى عام ١٩٤٩ كنت طالباً فى كلية الحقوق،
وكانت كل أمنيتى أن أصبح بطلاً.. أى نوع من
الأبطال.. بطل والسلام.. وكان إيمانى بالبطولة
إيماناً مجرداً، غير مرتبط بمبدأ، ولا بعمل
معين.. كانت البطولة فى نظرى، هى الشخصية
القوية.. وهى الحركة المستمرة.. وهى الشهرة..



وأن تكتب عنى الصحف..

ولم أكن أدري بالضبط، كيف أصبح بطلاً.. ولكنى كنت أقرأ فى
الصحف عن اجتماعات يعقدها طلبة الجامعة الحزبيون، فبحثت عن
هذه الاجتماعات وبدأت أحشر نفسى فيها.. كنت أحشر نفسى فى
اجتماعات الطلبة الوفديين، واجتماعات الإخوان المسلمين، واجتماعات
الاشتراكيين.. وكنت أحرص دائماً على أن أبدو فى هذه الاجتماعات
أشد الطلبة حماساً، وأعلاهم صوتاً.. وأكثرهم جرأة.. كنت أشتم
الملك.. وأشتم رئيس الوزراء.. وأقف أمام رجال الحرس الجامعى،
وأصرخ.. يسقط الظلم.. و.. وأضع نفسى فى حالة حماس مستمر..
وفى صورة ثابتة للشباب الوطنى الفدائى..

وكنت أتدرب على هذه الصورة أمام المرآة.. كنت أقف أمامها
طويلاً، وأرسم نظرات عيني.. نظرات قوية تشع ببريق الحماس..
وأرسم التواءة شفتى.. التواءة فيها معنى السخط.. والسخرية..
واللامبالاة.. ثم أضع طربوشاً فوق رأسى وأعوجه على الجانب
الأيسر، كما كان يفعل الزعيم مصطفى كامل.. ثم أقرر أن مصطفى
كامل أصبح موضة قديمة.. وأعدل الطربوش فوق رأسى على طريقة
النحاس باشا.. ثم أقرر فجأة أن أستغنى عن الطربوش.. إنه أثر من
آثار العهد التركى.. عهد الظلم والطغيان.. ويجب أن أتحرر منه..
فرميت الطربوش.. وأصبحت أذهب إلى الجامعة وشعرى منكوش

ولكنى اكتشفت في مرآتى أن شعرى المنكوش يضى على صورة
ممثلى سينمائى؁ أو منولوجست؁ أكثر مما يعطينى هيئة الزعيم
الوطنى.. فحلقتة.. نمره اتنين.. إننى هكذا أبءو أكثر خشونة؁ وأقرب
إلى هيئة البطل..

وكنء أقضى لىالى كثيرة أعد الخطب السىاسية.. خطباً جريئة..
لا أرحم فيها أحءاً.. ولا أبالى فيها بقانون ولا بعرف.. لا أخاف
السجن؁ ولا الاضطهاد.. كلمات كبيرة.. كلمات رنانة.. كلمات أقتطعها
من قلبى؁ ومن كتب الإنشاء.. كلمات.. وكلمات.. وأقف أمام المرآة
لأءرب على إلقاءها.. كل كلمة تصحبها نظرة خاصة من عىنى..
والتواءة معينة من شفءى.. وإشارة قوية من ذراعى.. وىءى الىمنى
فى جىب سءرتى؁ بحيث ىبقى الأصبع الأكبر خارج الجىب؁ على
طريقة الأستاذ مكرم عبىء الخطىب المفوه.. ثم أذهب فى الصبأ
لألقى خطابى على سلم الجامعة.. وىصفق لى الزملاء.. ثم أءقم
المظاهرة.. وأقفز على أكتاف اثنين من زملائى - بلا استئذان؁
فالعمل الوطنى لا ىحتاج إلى استئذان - وأهءف... وىهءف الزملاء
ورائى.. أحس أنهم ىهءفون لى لا للوطن.. فأجن بالحماس.. إننى
فءاؤكم ىا إخوانى..

ولكن..

رغم كل ذلك..

لست بطلاً..

لم ىقبض على البولىس ولا مرة.. تصوروا.. رغم أن البولىس
ىقبض على عشرات الطلبة؁ كل ىوم..
وأخذء أراجع نفسى فى هدوء..
لماذا..

لماذا لا أستطىع أن أكون بطلاً كهؤلاء الطلبة الزعماء؁ الءىن لا

يبدلون نصف ما أبذله من جهد.. إنى أعلى منهم صوتاً.. وأكثر منهم
اندفاعاً.. و..

واكتشفت أنى كنت حتى هذه الأيام لا أنتمى لحزب معين.. إنى
فى كل اجتماع.. وفى كل مظاهرة.. حماسى، وجهدى، على المشاع..
يتقاسمه الجميع، ولا يملكنى أحد..

وقررت أن أختار حزباً..

هذا هو الطريق..

واخترت حزب الوفد.. لماذا.. لست أدرى.. ولكنى اخترته
والسلام.. ربما لأن زعيم الطلبة الوفديين كان أكثر زعماء الطلبة
اهتماماً بى.. وكان يدعونى دائماً إلى فنجال سحب كلما التقى بى
فى بوفيه الكلية..

و..

إنى لا زلت فى آخر الصفوف.. مجرد هتاف.. رغم أنه مر على
عام كامل وأنا طالب وفدى..

إن هؤلاء الوفديين لهم اجتماعات خاصة ضيقة.. لهم قيادة أخرى
لا أستطيع أن أصل إليها.. وكنت أذهب إلى بيت الأمة... وأذهب إلى
بيت النحاس باشا... بل إن النحاس باشا أصبح يعرفنى باسمى..
ورغم ذلك فأنا واقف دائماً على الباب.. لا أدخل.. لا أدخل إلى منطقة
الزعامة والبطولة..

وقررت أن أهاجر من الوفد..

خصوصاً أن الوفد كان قد بدأ يتهلل.. معارضوه أقوى منه..
وكان الحزب الذى بدأ يقفز إلى الأمام هو الحزب الوطنى.. سمعته
نظيفة.. وشبانه أطهار.. وقد قال لى أبى إن جدى كان منضماً إلى
الحزب الوطنى أيام محمد فريد، كما أن ابن عمى من أشد أنصار
الحزب تحمساً..

لماذا لم أفكر فى الحزب الوطنى من مبدأ الأمر ؟

خسارة!!

ضيعت سنة من عمرى..

ولكن لا بأس..

والتحقت بالحزب الوطنى..

ورحب بى الحزب.. وقد كان من ضمن ميزاته أن أعضاءه قليلون، وكان من السهل أن أبرز بينهم.. ويقبض على.. وأصبح بطلاً..

وارتفع صوتى أكثر.. ووضعت فى عيني نظرات أقوى وأشد لمعاناً، تليق بتاريخ الحزب الوطنى.. والتوت شفتى التواءة أكبر، تعبيراً عن السخط والازدراء الذى يحمله شباب الحزب الوطنى، لشباب بقية الأحزاب.. ثم.. وضعت على رأسى طربوشاً، وعوجته على طريقة مصطفى كامل..

ولكن..

بدأت أشعر أنى لا زلت فى آخر الصفوف.. واكتشفت أن قيادة الحزب الحقيقية فى يد خلايا صغيرة.. خلايا إرهابية..

ولم أكن قد فكرت من قبل فى الإرهاب..

لم أكن قد فكرت فى أن أمسك بمسدس وأقتل أحداً.. ولا حتى عصفورة.. وأنا الآن مضطرب.. مضطرب أن أكون إرهابياً.. إن الإرهابيين كانوا الأبطال الحقيقيين لهذه المرحلة..

وارتعشت..

ارتعشت لمجرد الفكرة..

ورغم ذلك خاطبت زملائى فى الحزب ليشاركونى معهم فى عمليات الإرهاب.. وابتسموا.. هذه الابتسامات المغرورة التى كنا نتميز بها.. والتى بدأت أرسمها على شفتى، منذ التحقت بالحزب..

ولكنهم لم يعهدوا إلى بأى مهمة فدائية..
وأقول الحق.. كنت مرتاحاً لهذا.. كنت أذهب كل يوم إلى اجتماع
الحزب، ويدي على بطني.. معدتي تكركر، وترتعش. فإذا انتهى
الاجتماع دون أن يعهدوا إلى بشيء.. حمدت الله.. ونمت فى هدوء..
ولكن..

هل الإرهابى هو الذى يقتل.. لا.. إن الذين يقتلون ويلقون
بالقنابل هم فقط المنفذون.. الدرجة الثانية أو الثالثة من أعضاء
الحزب.. إنما المهم هو التفكير الإرهابى.. القيادة تفكير وخطط.. و..
وبدأت أضع خططا إرهابية.. خططا جريئة.. دقيقة.. تشيب الولدان..
ولكن.. هؤلاء المغرورون إنهم يستمعون إلى خططى ويبتسمون..
إنهم يحتكرون القيادة والبطولة لأنفسهم.. كل منهم يعتقد نفسه
إلهاً.. وإما أن يفسحوا لى مكاناً بين الآلهة.. أو أثور على الآلهة..
وثرُت..

وقررت أن أكون شيوعياً..

لماذا.. ماذا نقلنى من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار، مرة
واحدة.. لا أدرى.. ربما إغاظه فى زملائى أعضاء الحزب الوطنى..
وكنت أعرف الكثيرين من الطلبة الشيوعيين.. ولكنى عندما بدأت
أختار المنظمة الشيوعية التى أنضم إليها.. وجدت عددها بعدد من
أعرفهم.. كل منهم له منظمة خاصة به..

وقررت أن تكون لى منظمة شيوعية خاصة بى.. أطلقت عليها
اسم « م.ش.ح ».. « مشح ».. أى « منظمة الشعب الحرة »..

هكذا أستطيع أن أبرز شخصيتى..

هكذا أستطيع أن أكون زعيماً وقائداً..

هكذا أستطيع أن أكون بطلاً..

ورميت بالطربوش.. وأطلقت شعر رأسى.. وأظافرى.. واستطعت

فعلاً أن أضرم اثنين من زملائي.. أحدهما ابن خالتي.. وكنت أشفق على ابن خالتي من هذا العمل العظيم، وهذه المسئولية الكبيرة، فهو لم يكن يتجاوز الرابعة عشرة من عمره.. أكبر قليلاً من سن علي بن أبي طالب عندما آمن بالإسلام..

وكانت هذه هي نواة « مشح ».

ولابد أن تكبر هذه النواة..

وقد بدأت فعلاً أتصل بأوساط العمل.. ولكن المسألة تحتاج إلى صبر.. صبر طويل !..

وكنت في هذه الأثناء قد رسبت ثلاثة أعوام في سنة ثانية بكلية الحقوق.. وطردت من الجامعة.. ورفض والدي - الله يرحمه - أن يدفع لى أى نفقات دراسية.. لم يكن يؤمن بى، ولا بوطنيته.. لا يهم..

إن مستقبل الفرد لا يحسب حساباً عند مناقشة مستقبل المجتمع.. الجماهير.. الملايين..

وقررت أن أخاطب الملايين..

قررت أن أكون صحفياً.. إن الصحافة هي المهنة الراقية الوحيدة التي لا تحتاج إلى مؤهل دراسي.. إنى أعرف عشرات من الطلبة الذين لم تحتل الجامعة عبقريتهم، أصبحوا عباقرة الصحافة.. وكتبت..

مقالات من نار..

مقالات تدعو الملايين إلى الثورة.. إلى الحرية.. إلى.. إلى..

ولكن هذه الصحف الكبيرة المغرورة.. إنها لا تنشر شيئاً.. إنها كلها صحف عميلة.. صحف في خدمة الاستعمار.. صحف رأسمالية.. أتدرون ماذا عرض على سكرتير تحرير إحدى الصحف.. أن أكون مندوباً في الجامعة.. أجمع أخبار الطلبة.. أنا.. أنا عبد

اللطف عبدربه .. الذى يجب أن تتناقل الصحف أخباره أنقل إلي
الصحف أخبار الطلبة .. يا أخى ده إيه ده .. استيقظوا يانيام ..
حطموا الأبواب ..
وذهبت إلى مجلة صدرت حديثاً.. صغيرة فعلاً.. غير مقروءة
فعلاً.. ولكنها طاهرة...
ونشرت مقالاتي..
رأيت كلامى مطبوعاً.. واسمى مكتوباً بحروف المطبعة..
هذا هو الطريق..
وقد وصلت..
ولكن الناس لا يقرأون..
إنهم معذورون فى غيابهم.. سأفيقهم. سأوقظهم..
وكتبت.. كل الكلمات الكبيرة.. كل الكلمات النارية.. لا أحد
يهمنى.. ولا الملك..
وقبض على..
نعم..
قبض على..
ووقفت أمام وكيل النيابة، وأنا لا أبالي.. الأبطال لا يباليون.. إنهم
أطول من الأسوار العالية..
وقال لى وكيل النيابة المحقق :
- ألا تعلم أن ما كتبتة يدخلك السجن ؟
قلت بلا مبالاة وأنا أنظر إليه بابتسامة الاحتقار التى تعلمتها فى
الحزب الوطنى :
- أعلم..
قال :
- وتريد أن تدخل السجن ؟

قلت :

- فى سبيل تحرير الملايين لا تهم حرية الفرد.

وصرخ وكيل النيابة :

- طيب وشرف أمى ما أنا مدخلك السجن.. اتفضل.. براءة!!

ووقفت مبهوتاً..

خيل إلى أنى سأركع تحت قدمى وكيل النيابة وأتوسل إليه أن
يدخلنى السجن.. إنه لا يعلم أنى بطل.. وأن الأبطال كلهم مصيرهم
السجن.. وإنى فى شوق لألقى مصيرى..

وخرجت كأنى انتهيت..

وعدت إلى المجلة التى أكتب فيها.. فوجدتها قد توقفت عن
الصدور.. وقرر صاحبها أن يفتح محلاً لعصير القصب!.

ولكن..

لن أياس..

إن «مشح» يجب أن تكبر.. يجب أن تضم الملايين لأقودهم إلى
النور.. إلى الحرية.. ولم تكبر مشح.. لا يزال عددها اثنين.. وابن
خالتي أصبح لاعب كرة فى فريق الترسانة.. الصبر. الصبر.

وفجأة..

فى ٢٣ يوليو..

قامت الثورة..

ولا أدرى كيف قامت.. ولا متى قامت.. ولا من قام بها.. قامت

وليس لى مكان فيها..

وأبى طردنى من البيت..

وأنا ضائع.. عاطل.. أمى تعطينى فى الخفاء ما تستطيع أن توفره

من مصروف البيت..

وبدأت أياس..

والابتسامة الساخر المغرورة تموت على شفتي.. والبريق اللامع
لم أعد أستطيع أن أطلقه من عيني..
وأهملت «مشح»..
وكنت أجلس على مقهى فى شبرا الخيمة، عندما قال لى صديقى
إبراهيم عبد الله :
- ما تشوف لك شغلة يا أخى..
قالها ببساطة..
ولكنها لسعتنى..
وقاومت عدة أسابيع.. قاومت إحساسى بأنى يجب أن أفيق..
يجب أن أصحو.. يجب أن أعمل..
وبمساعدة صديقى إبراهيم وجدت عملاً..
عامل..
فى مصنع حلويات فى الجيزة..
مجرد عامل.. لا أسطى.. ولا حاجة..
وعملت.. لم يكن أمامى شىء آخر أعمله، غير العمل !!
وأحسست بنفسى أتطور.. أحسست بنفسى أقترب من عالم
فسيح، واسع.. ملئ بأشياء صغيرة.. صغيرة، ولكنها جميلة..
هادئة.. ووجد زملائى أجمل وأطيب وأنا بينهم، منهم وأنا أحاول أن
أرتفع فوقهم وأترعمهم..
ولكنى ربما كنت زعيماً..
إنهم يسألوننى دائماً.. ويلجأون إلىّ فى كثير من مشاكلهم..
وثقافتى القانونية الناقصة تعيننى على أن أناقش معهم حقوقهم..
وحقوقى..
ثم..
أمم المصنع..

وارتقيت..

أصبحت أسطى..

وكنت أعمل فى وردية الليل، عندما تعطلت ماكينة لف الورق..
وجاء رئيس القسم، وطلب منى أن أتوقف عن العمل حتى الصباح،
إلى أن يأتى رئيس القسم الميكانيكى ويكشف على الآلة..

وكنت أعلم أن إصلاح الآلة سيستغرق أكثر من يوم.. ربما
شهرًا.. يكشف الميكانيكى على الآلة.. ثم يكتب تقريراً.. ويرسل
التقرير إلى الإدارة.. والإدارة ترسل تقريراً إلى المخازن لإعداد قطع
الغيار.. والمخازن لا تجد قطعاً للغيار.. فترسل تقريراً إلى الإدارة
لاستيراد قطع الغيار.. و.. و.. شهر.. سنة..

وأنا أعرف هذه الآلة..

أعرف كل قطعة فيها، كما أعرف ما فى جيبى..

وانحنيت تحت الآلة أحاول إصلاحها.. وقال زميلى برعى :

- ما تتعبدش نفسك يا عبداللطيف.. دى مكنة قديمة وبنت
صرمة..

وقال زميل آخر :

- يا أخى ما تحشرش نفسك فى اللى مالکش فيه.. بعدين
يتهموك إنك أنت اللى خسرتها.. ويوقعوا عليك جزاء..

وقال ثالث :

- يا أسطى ربح نفسك.. وروح نام..

ولكننى صممت..

وجاء رئيس القسم وصرخ :

- ده مش اختصاصك يا أسطى. إذا ما طلعتش من تحت المكنة حا

أكتب فىك تقرير..

قلت :

- اكتب..

وانهمكت فى إصلاح الآلة.. وزملائى يحيطون بى كأنهم يتتبعون
معركة بينى وبين الآلة.. أو بينى وبين رئيس القسم..

وصحت :

- ناولنى المفك نمرة خمسة يا برعى..

وجاء برعى لى بالمفك..

وعدت أصيح :

- واحد فيكم يناولنى المزيطة..

ووضعت المزيطة فى يدي..

و....

واشترك معى أسطوات القسم فى إصلاح الماكينة..

وفى ساعتين..

ساعتين فقط..

تم إصلاحها..

وعدت أقف أمام الآلة وهى تدور كالساعة.. أنا سيدها.. أنا الذى
يصدر إليها الأوامر.. أنا الذى ينتصر عليها إذا حاولت أن تتمرد.. أنا
الذى يعينها على ضعفها إذا ضعفت..

أنا بطل..

صدقونى كانت هذه هى اللحظة الحقيقية التى أحسست فيها أنى

بطل..

وزملائى صفقوا لى..

وأصبحت رئيس وردية..

وعلاوة..



رسالة أم

تزوجت عن حب..

كل قطعة منى كانت تحبه..

ولم يحدث خلال خمس سنوات أن داخلني
الشك فى حبى.. كنت أعلم أنى أحبه.. وكان
يعلم أنى أحبه.. ولم يخدش حبنا أننا لم ننجب
أولادا..



وبعد خمس سنوات توفى أخو زوجى الكبير.. وتولى زوجى
رعاية أولاده.. وأصبحت أرى محمد كل يوم تقريبا.. ومحمد هو
الابن الأكبر لأخى زوجى.. فى التاسعة عشرة من عمره.. أصغر منى
بخمس سنوات..

وكنت أرى محمد منذ تزوجت.. وكنت أحس نحوه بنوع غريب
من العطف.. ربما لأن أمه كانت قد ماتت قبل أبيه بعدة سنوات..
وربما لأنه منطو.. خجول.. مهذب.. رقيق.. يبدو دائما وكأنه يجرى
وراء خياله.. وكأن فى قلبه جرحاً يؤلمه.. وكنت أرحب به دائما كلما
زارنا.. وأشعره بعطفى عليه ، وأحاول أن أكتشف حياته، وأصل إلى
جرح قلبه.. وكان محمد يستريح إلى.. كنت ألحظ انكماشه كلما
جلس مع زوجى ، وانطلاقه كلما جلسنا على انفراد..

وبعد أن توفى أبوه ، أصبحت زيارته لنا متتالية.. كان يتناول
معنا الغداء أحيانا... وأحيانا العشاء.. أصبح كأنه يقيم معنا فى
البيت.. وكبر عطفى عليه.. وأصبحت أتمادى فى التعبير عن هذا
العطف.. أصبحت أحس كأن كل أمومتى المحرومة تتجه نحوه ،
وتنسكب عليه..

واكتشفت جرح قلبه.. إن المسكين يكره أباه.. يكرهه حتى بعد أن
مات.. ويعتقد أن أباه كان يعذب أمه ، وأنه السبب فى موتها..
وحاولت جهدى أن أضمد هذا الجرح ، وأن أمسح عن قلبه هذه

الكراهية التي تعذبه ، هذه العقدة التي تنغزه فى صدره.. وكان محمد يحاول أن ينفس عن عذابه بكتابة الشعر والقصص.. فشجعتة.. كنت أجلس إليه طويلاً ، يقرأ لى شعره.. وأنا لا أفهم فى الشعر.. ولكنى كنت أحس فى كلام محمد رقة وصدقاً.. لدرجة أننى أحببت شعره وحفظته عن ظهر قلب.. ولم أكن أفهم قصصه أيضاً.. إنها معان وحوادث مرتبكة من الصعب أن تتبين أولها من آخرها.. ولكنى كنت أفسرها بمنطق عذابه.. بحالته النفسية المرتبكة.. فأعجب بها.. وأحفظها أيضاً.. بل إنى كنت آخذ منه كل ما يكتبه ، وأحفظه عندى ، وأعدده بأن أساعده يوماً فى إصدار ديوان من الشعر ، ومجموعة من القصص..

وازداد تعلق محمد بى.. لم يعد له فى حياته سوى وسوى عطفى عليه.. ليس له أصدقاء.. وليست له بنت يحبها... فقط أنا.. وكنت كثيراً ما أنصحه بأن يجمع لنفسه بعض الأصدقاء.. وكثيراً ما أغريه بحب إحدى البنات.. ولكنه كان يبتسم فى ضعف حزين.. كأنه يبكى على نفسه.. ويقول :

- لن أجد أحداً يفهمنى.. أنت فقط التى تفهمينى !

وكنت أشعر بالزهو عندما يقول لى ذلك.. نفس الزهو الذى تشعر به الأم عندما يرفض ابنها الزواج ، لأنه لن يجد أبداً زوجة فيها مزايا أمه ، وتستطيع أن تعوضه عنها..

وكنت ألاحظ أن محمد يتعمد أن يأتى إلى البيت فى الأوقات التى يكون زوجى غائباً فى عمله.. ولم أهتم.. إنى أعرف أن محمد يستريح إلى أكثر مما يستريح إلى زوجى.. ويحتاج إلى أكثر مما يحتاج إلى عمه..

...

ولم يحدث شىء خلال عامين مضياً بعد وفاة والد محمد.. لا

أذكر أنه حدث شيء إلا أن محمد سألني مرة :

- هل تحبين عمي ؟

وأجيبته في صدق :

- نعم..

قال في غيظ مكتوم :

- لماذا.. ماذا تحبين فيه ؟

قلت باسمه أحاول أن أطفئ غيظه بابتسامتي :

- عندما تحب.. لا تسأل نفسك أبداً لماذا أحببت.. كل ما حدث أني

وجدت نفسي أحب عمك..

قال وقد انطلق غضبه :

- إنه يضطهدك.. إنه يعذبك.. إنه يعاملك كجارية له !

وقلت وأنا أشفق عليه :

- لا يا محمد .. لا يكفي أن تتخيل أنه يعذبني .. يجب أن أحس أنا

بهذا العذاب .. وأنا لا أحس بعذاب.. بالعكس أحس بسعادة إنه يسعدني !!

وحنى محمد رأسه ، وتعدد وجهه كأنه يعتصر دموعاً من عينيه..

دموع تنسكب فوق قلبه المعذب..

واعتقدت أنا أن عقدة كراهيته لأبيه هي التي صورت له أن زوجي

يضطهدني كما كان أبوه يضطهد أمه.. فأصبح يكره زوجي كما كان

يكره أباه..

وحاولت كثيراً أن أتغلب على هذه العقدة قبل أن تتمكن منه

كراهيته لزوجي.. لعمه.. فكنت أصحبه معنا كثيراً كلما خرجت أنا

وزوجي.. كنا نأخذُه معنا إلى السينما.. وإلى الرحلات الخلوية التي

نقوم بها.. وكنت أتعهد دائماً أن أبذو أمامه سعيدة.. سعيدة

بزوجي.. بل كنت ألوم زوجي إذا قصر في الاهتمام به ، أو إبداء

عطفه عليه..

وكان مقدرًا أن تمر حياتي هادئة ، إلى أن أتم رسالتي فأجعل من
محمد إنساناً سعيداً سليماً.. أحل عقده.. وأخرجه عن انطوائه..
وأدفعه إلى الحياة ليبحث عن الحب والنجاح..
ولكن..

عثر زوجي يوماً على مجموعة أشعار وقصص محفوظة في
دولابي.. وسألني.. وفي سؤاله رنة عجيبة :
- ما هذا ؟

وقلت له إن محمد يكتب الشعر والقصص ، وإنني وعدته أن
أساعده على نشرها في كتاب..

ونظر إليّ نظرة غريبة.. كأنه يبحث عن شيء وراء كلامي.. ثم
جلس صامتاً يقرأ في مجموعة الأشعار والقصص.. ثم فجأة ألقى
بها على الأرض ، وقال في حدة :

- كلام فاضى.. ولد خايب !؟

قلت في لوعة كأنه قذف بكبدي :

- حرام عليك يا حسين..

وقام ووقف أمامي ورفع صوته في وجهي :

- أنت تفسدينه.. إنه مدلل.. سخي.. لا يصلح لشيء.. لا يصلح

حتى لكتابة الشعر والقصص..

قلت في لهفة :

- إنه محروم من الحنان..

قال وفي عينية نظرة خبيثة :

- إنه رجل الآن.. إنه في الحادية والعشرين.. ولا أظنه يبحث

الآن عن الحنان.. إنه يبحث عن شيء آخر..

قلت وأنا على وشك أن أصرخ :

- يا حسين ده..

وقاطعنى صارخاً :

- من هنا ورايح.. أنا المسئول عن تربيته.. لا أريدك أن تتدخلى
فى شأنه.. لا أريدك أن تهتمى به.. فاهمة ؟
وبدأت معاملة زوجى لمحمد تتغير..
أصبح قاسياً عليه..

كلما رآه انهال عليه يسأله عن دروسه ، وعن مذاكرته ، وعن
نمره.. وانهاه عليه بالنصائح.. نصائح أقرب إلى الشتائم..
ومحمد يرتعد أمامه.. المسكين !

وأنا أحاول أن أهدىء زوجى.. ثم بعد أن ينصرف أحاول أن
أهدىء محمد.. ووجهه محققن ، وعيناه مغرورقتان بظلال دموع..
وفى يوم ، عاد زوجى من الجامعة ، فوجد محمد فى البيت ،
وقبل أن يصافحه صرخ فيه :

- أنت بتعمل إيه هنا.. اسمع.. لا أريد أن أراك هنا إلا إذا أردت
شيئاً منى.. عد إلى بيتكم ، واستفد من وقتك فى استذكار دروسك..
تذكر أنك رجل الآن.. شحط.. ومن واجبك أن تبقى مع إخوتك
لترعاهم.. اتفضل !

وارتعش محمد.. ارتعش كله..

وحاولت أن أتكلم ، فصرخ فى وجهى :

- اسكتى..

وسكت.. سكت وأنا عاجزة ، والغیظ يأكلنى !

وخرج محمد..

خرج من جنة حنانى !

ولم يعد فى اليوم التالى.. ولم يتصل بى بالتليفون.. وأحسست
أن كل يومى فراغ.. كأنه لم يعد شىء فى حياتى.. كنت قد تعودت
على محمد.. تعودت عطفى عليه.. وتعودت حنانى عليه واهتمامى

به.. وتعودت الأمل فى أن أحقق رسالتى. وأشفيه من عقده لأجعل
منه رجلاً سعيداً

وهمت أن أحدثه فى التليفون. ولكنى تراجعته.. ربما أغضبت
زوجى لو علم أنى حادثته فى التليفون.. وأنا لا أريد أن أغضب
زوجى.. لم أغضبه أبداً.. إنى أحبه..

وعندما عاد زوجى حاولت أن أقنعه بالصفح عنه.. حاولت أن
أقنعه بأنه شاب معقد يحتاج إلى رعاية خاصة.. ويحتاج إلى حنانه
ليعوضه عن حنان أبيه.. وإلى حنانى لأعوضه عن حنان الأم.
ولكن زوجى كان قاسياً..

إنه لا يريد أن يراه فى البيت..

وتبينت شيئاً لم أكن متأكدة منه إلى هذا الحين.. إن زوجى يغار
من محمد.. ولا أدرى لماذا أحسست بأن زوجى أصبح صغيراً عندما
أحسست بغيرته من محمد.. صغير.. قزم.. هذا الرجل القوى.. القوى
بحبى له.. يصغر أمام عينى..
ونظرت إليه فى دهشة..
ولم أتكلم..

وفى اليوم التالى همت أن أحادث محمد فى التليفون.. ولكنى
تراجعته أيضاً.. إنى لا زلت مصرة على ألا أغضب زوجى.. رغم أنه
صغر فى عينى.. ولكن الفراغ يتكاثف من حولى.. ويزيد كثافته إنى
لم أعد أستطيع أن أطلع زوجى على خواطرى.. ولا أستطيع أن
أحدثه عن قلقى على محمد، وخوفى عليه.. خوفى من أن يحطم
نفسه!

وقاومت.. وقاومت.. ثم خيل إلى أنى أكون مجرمة لو تخليت عن
محمد، من أجل أوهام زوج، أنا أعلم.. ومتأكدة.. إنها أوهام كاذبة!
وفى إصرار وعناد أمسكت بسماعة التليفون، وحادثت محمد..

وسمعت صوته باكياً ، حزيناً ، هفتاناً كأنه يلفظ آخر أنفاسه..
وبدأت أعالجه من جديد.. أعالج روحه.. أثبت فيه القوة.. قوة
حنانى.. وأزيع السحاب من أمام مستقبله.. وأستمع إلى أشعاره..
وبدأ حديثنا فى التليفون يطول..
كل يوم نتحدث..
بعد أن يخرج زوجى..
وكنت أشعر ببعض تأنيب الضمير بعد أن أحادث محمد.. كان
ضميرى يثور لزوجى.. ولكن مع الوقت ، سكتت ثورة ضميرى..
بالعكس.. ازداد إيمانى بأنى أودى رسالة كبرى.. رسالة أم تأخذ بيد
ابنها ، وتمده بحنانها..
ولكن..
محمد يريد أن يرانى..
إنه يصبر إصرار الطفل العنيد على أن يرانى..
وفكرت أن أحاول إقناع زوجى ، بأن يصفح عن محمد ويدعوه
إلى البيت حتى يرانى..
ولكنى لم أجرؤ..
كنت أعلم مدى عناد زوجى ، وكنت أعلم مدى ثورته كلما سمع عن
لسانى اسم محمد.. ثورة مكتومة.. تتطلق فى كلمات ساخرة يعذبني بها..
وأخيراً لم أستطع أن أقاوم..
كان يجب أن أرى محمد..
ليس من حقى أن أحرمه من رؤيتى.. من رؤية أمه.. من تلمس
حنانى بعينيه.. لا يكفى أن يلمس حنانى بأذنيه أثناء حديثنا فى
التليفون..
ونذهبت إلى لقائه..
أين ؟

فى سيارته الصغيرة التى ورثها عن أبيه..
وقد كنت فعلاً فى شوق إليه.. كنت فى لهفة إلى وجهه الحزين..
حتى إنى قبلته فوق وجنتيه بمجرد أن جلست بجانبه فى السيارة..
قبلة سريعة.. بريئة.. قبلة أم..

وشىء بيننا يتغير..

إن عينيه الحزينتين فيهما شىء يريد أكثر مما تعودته..

ولمسة يده فيها رعشة دافئة ، لم أعودها منه.

وكنت أعلم أنه من المستحيل عقلاً أن تلتقى أم بابنها هذا اللقاء
الخطر.. وفى سيارة.. وكنت أعلم أن هناك شيئاً خطراً يقف بينى
وبين محمد ، وهو تقارب السن بيننا.. إنى لا أكبره سوى بخمس
سنوات.. بل إنه لا ينادينى أبداً بـ «طنط» ولكنه ينادينى باسمى..
اسم الدلع الذى اشتهرت به بين أفراد العائلة..

ورغم ذلك لم أكن أستطيع أن أبتعد عن الخطر.

لم أكن أستطيع أن أتخلى عن محمد..

استسلمت لما تريده عيناه..

واستسلمت للرعشة الدافئة فى يده..

وتكرر لقاؤنا.

أين ؟

ليس فى السيارة..

إننا نلتقى فى البيت.. بيتى.. بعد أن يخرج زوجى.. ودون أن يدرى !!

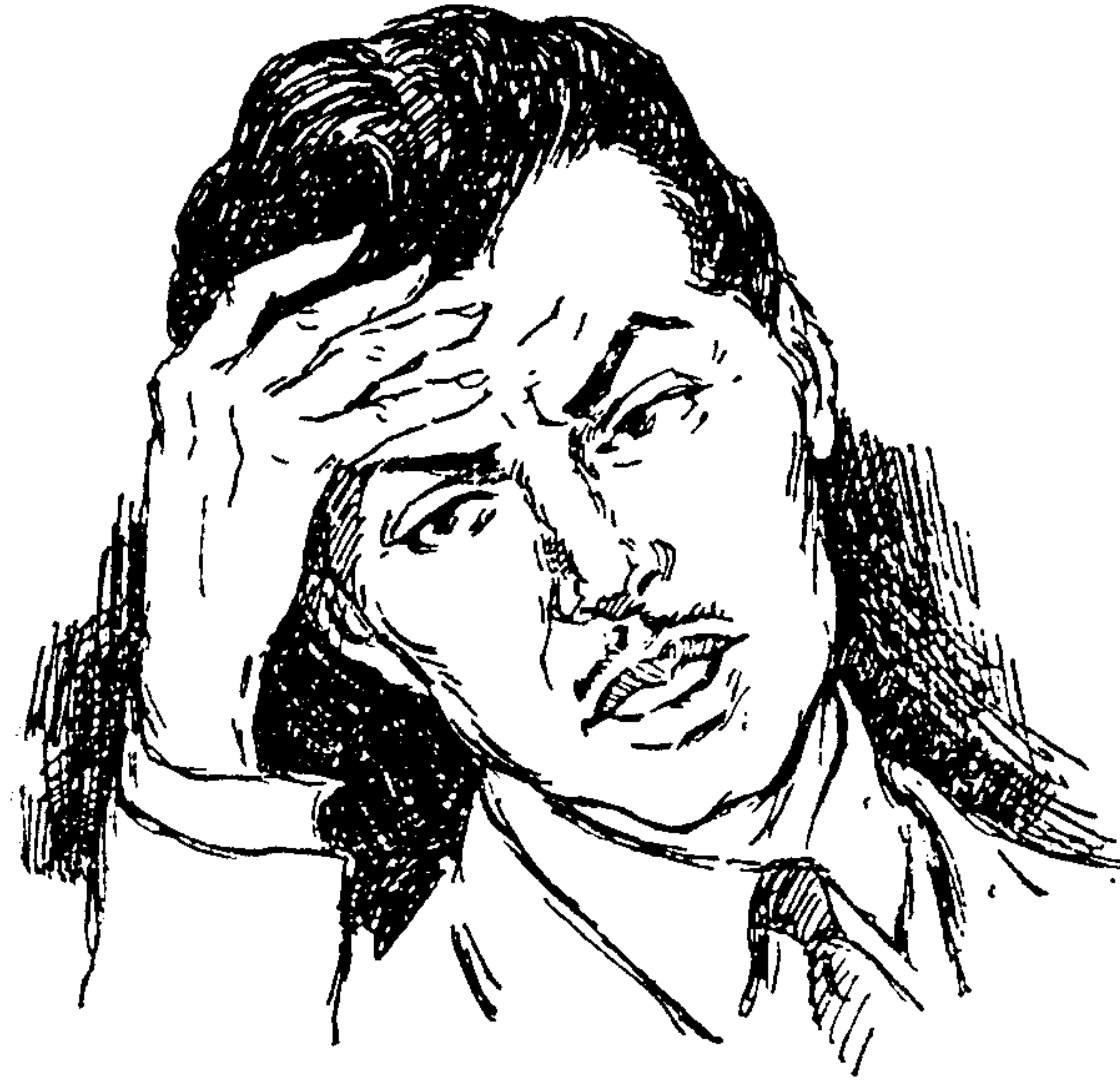
و....

صدقونى.. إنى لا زلت أحب زوجى.. لا أستطيع أبداً أن أستغنى

بمحمد عنه.. ولا أستطيع أيضاً أن أتخلى عن محمد..

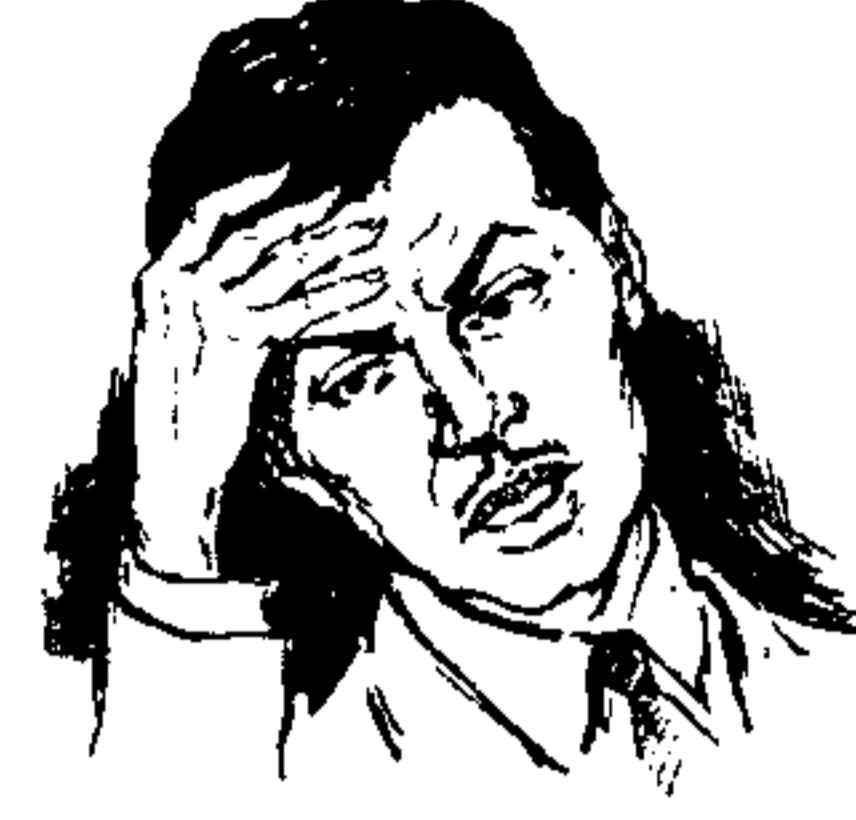
كل ما زاد على حبى لزوجى ، أنى أصبحت ألومه على خطيئتى.. إنه

هو السبب.. هو الذى جعل من رسالة أم.. خطيئة !!



لماذا أعيته؟

هل تعرفون نجم السينما ، محمود ؟!
طبعاً.. كلكم تعرفونه.. ولكنى أعرفه أكثر
منكم.. أنتم تعرفونه إنساناً ساخراً ، سواء فى
الأفلام التى يمثلها ، أو فى حياته العامة..
ولكنى أعرفه إنساناً حزيناً قاتماً.. أنتم ترون
منه ضحكاته ونجاحه ، وأنا أرى منه دموعه



وفشله.. فشله فى نفسه..

إنى بالنسبة لمحمود أكثر من صديق.. لقد عشت فى كل أيامه..
أكثر.. لقد عشت فيه.

وكنت أعتقد دائماً أن نجاح محمود فى تمثيل الأدوار الساخرة
الهائلة ، هو رد فعل عكسى لحالة الحزن النفسى القاتم التى لازمته
طول عمره.. إنه يهرب من حزنه ، ومن الضباب الأسود الكثيف
المتجمع فى صدره ، ليندمج فى دور الفتى اللاهى المنحل.. يندمج
بكل كيانه.. بكل خياله.. بكل قواه التى تدفعه إلى الهرب من نفسه..
ولكنى لم أعرف أبداً سر حالة الحزن التى يعانىها.. ولا أعتقد أنه
هو نفسه يعرف سرها.. وكنت أنسب هذه الحالة إلى عدة احتمالات..
ربما لأن أمه ماتت منذ كان فى الثانية من عمره.. وعاش مع أبيه
الكاتب الكبير الأستاذ عبد العزيز رفعت.. عاش بلا أم.. يتنقل فوق
صدر مربيات كثيرات ، كل منهن تبقى شهراً أو شهرين ثم تسرق
شيئاً ، وتهرب.. فقد كان أبوه الأستاذ عبد العزيز فوضوياً فى تدبير
شئون بيته إلى حد يغرى أى إنسان بسرقة..

وربما كان حزن محمود يرجع إلى خوفه الدائم من الفشل.. كان
يخاف لدرجة أنه لم يكن يتكلم كثيراً حتى لا يفشل فى الكلام.. وهذا
الخوف من الفشل سببه - فى نظرى - أنه لم يكن يعتمد النجاح..
لقد نجح فى كل خطواته بلا تعمد.. نجح ببساطة.. هو نفسه كان

يذهل بنجاحه ، ويتعجب له ، أكثر من الناس.. ووصل أجره عن الفيلم الواحد إلى أربعة آلاف جنيه ، وهو مذهول.. إنه لم يطالب أبداً بزيادة أجره ، كل ما هنالك أنه أسلم نفسه لتنافس المنتجين عليه.. ولو اتفق عليه المنتجون وأبقوا أجره فى حدود المائة جنيهه - كما بدأ - لما أحس أنه غبن..

وربما كان هذا لنجاح الذى حققه محمود ، هو أحد أسباب حالة الحزن القاتم التى يعانيتها.. فقد كان نجاحه يخرجه.. إنه إنسان حساس لدرجة أنه يخشى أن يجرح بنجاحه بقية زملائه.. يخشى أن يثير فى عيونهم نظرات الحسد.. ويثير فى نفوسهم الغيرة والكراهية.. وهو يشفق عليهم وعلى نفسه من الحسد ، والغيرة ، والمقت.. فيحاول أن يهون من قيمة نجاحه.. ويتواضع.. ويتمادى فى التواضع إلى حد الانطواء.. إلى حد الهروب من الناس.. كأن هذا النجاح يشوه وجهه إلى درجة أن يخفى نفسه حتى لا يتقرز الناس من شكله !!

وبعد هذا لا أدرى سبباً لحالة الحزن الدائم المصحوب بالملل والتشاؤم التى يعانيتها محمود.. ليس هناك شىء ينقصه.. ولا ينقصه الحب.. كلكم تعرفون أن النساء من سن السادسة عشرة حتى سن الأربعين ، يذبن فى ابتسامة محمود ، ويتعلقن بخصلة شعره المدلاة بلا تعمد فوق جبينه.. وكلهن حاولن أن يصلن إليه.. وكانت مشكلته أن يهرب منهن ، لا أن يصل إليهن.. لم يكن هروبه من النساء غروراً منه أو تعالياً عليهن ، ولكنه كان يعتقد أنهن مخدوعات فيه.. وأنهن يجرين وراء وهم تثيره فى رءوسهن الشخصية المرحة اللاهية التى يمثلها على الشاشة.. وكانت المرأة أو الفتاة التى تستطيع أن تصل إليه ، تستطيع أن تأخذ منه كل شىء.. كل ما تريد... قد كان من الطيبة ، والضعف إلى حد أنه لا يستطيع

أن يقول : لا.. لا يستطيع أن يرفض.. كل ما يستطيعه هو أن يهرب..
وقد استطاعت واحدة أن تتزوجه.. لم يحبها.. وأنا واثق أنه لم
يحبها.. ولكنها لاحقته ، وسدت فى وجهه كل أبواب الهرب منها..
فتزوجها.. وأنجب منها ولده طارق.. وكان ذلك منذ سبعة عشر عاماً ،
عند أول ظهوره فى السينما.. ولم يدم هذا الزواج أكثر من عام
ونصف.. ثم طلقها.. لم يطلقها.. ولكنها خرجت من البيت يوماً ولم
تعد، ثم أرسلت له تطلب الطلاق.. ولم يناقشها.. طلقها بلا مناقشة..
ومحمود يعيش الآن مع أبيه الأستاذ عبد العزيز ، وابنه طارق..
ومجموعة من الخدم ، على رأسهم الأسطى سيد الطباخ ، الذى مضى
عليه فى خدمة محمود أكثر من عشر سنوات ، وأصبح بمثابة مدير المنزل.
والثلاثة يعيشون عيشة غريبة..

يعيشون كثلاثة من الغرباء.. كل منهم منزو فى غرفته.. والثلاثة
يربطهم هذا الخيط من الحزن القاتم ، والملل.. الذى لا أدرى سببه..
الأب.. أصبح الآن فى الثانية والسبعين من عمره.. وقد انقطع عن
الكتابة والنشر منذ أكثر من سبع سنوات.. ونظم أوقاته بحيث
أصبح كبندول الساعة.. ويهوى جمع قطع الفخار القديمة..
ومحمود.. يعود من الاستديو ، ويشرب ثلاثة كؤوس من
الويسكى.. ويسرح.. إنه يستطيع أن يقضى العمر كله سارحاً..
وأحياناً يقف أمام المرآة ، ويحدث نفسه.. لقد ضبطته يوماً يضرب
نفسه المنعكسة فى المرآة..

وطارق.. رغم صغر سنه... فهو فى السادسة عشرة.. منزو هو
الآخر فى غرفته.. لا يلعب كبقية الصبيان.. ويقرأ كثيراً.. ولا يتكلم
كثيراً..

والثلاثة لا يلتقون فى البيت إلا لقاء عابراً.. لكل منهم مزاجه
الخاص.. ولكل منهم نظامه الخاص.. وكل منهم حدد موعداً لوجبات

طعامه.. ولأصناف الطعام التي يفضلها..

وليس معنى هذا أنهم يتعمدون الابتعاد بعضهم عن بعض ، أو أن كلاً منهم لا يطيق الآخر.. أبداً.. إنى لم أشعر بعائلة تحب بعضها بعضاً قدر عائلة محمود.. بل إنك تستطيع أن تشم رائحة الحب ، والطيبة ، ونظافة القلب بمجرد أن تدخل البيت.. بل إنى أعتقد أن انزواء كل منهم عن الآخر ، هو نوع من الحب المتجرد من الأنانية.. كل منهم لا يريد أن يفرض نفسه على الآخر ، فيتركه لطبيعته ، ومزاجه..

وأنا أحب محمود.. وأحب عائلته.. وأحب بيته.. إنى هناك كل يوم ، كواحد منهم.. ومن حقى أن أحاسب الأسطى سيد ، وأطمئن إلى حسن إدارته للبيت.. ثم أدخل إلى غرفة محمود ، وأجلس معه ساعات.. أو إلى غرفة عمى عبد العزيز - كما أناديه - أو أجلس مع ابنه طارق ، لأطمئن على مواظبته على الدروس.. وإن لم يكن فى حاجة إلى اطمئنانى ، لأنه كأبيه ، ينجح بلا تعمد.. ببساطة.. وفى يوم.. دخلت إلى محمود فى غرفته.. وكان جالساً فى المقعد الكبير المريح ، وكأس الويسكى أمامه.. وقد شمر أكمامه عن ساعديه.. ووجهه يائس حزين.. وعيناه مكفهرتان ينظر بهما إلى رسغه..

وقلت وأنا أبتسم فى حنان :

- فيم تفكر ؟

وأجاب بصوت خفيض دون أن يرفع رأسه :

- فى الانتحار..

وأخفيت جزعى ، وقلت ببساطة كما تعودت أن أناقش نزوات

محمود :

- لماذا ؟

قال كأنه يخاطب نفسه :

- عشت ما فيه الكفاية..

قلت :

- ليس هناك كفاية من الحياة..

قال :

- إننا لا نعيش لمجرد الحياة ، إننا نعيش لهدف.. ولم يعد لى

هدف..

قلت :

- إنك فنان ناجح ، وهدفك أن تستمر فى النجاح..

قال :

- إنك تقيس ناجى بما وصلت إليه.. والاستمرار فى النجاح كما

تعتقده ، هو أن أستمر كما أنا.. والاستمرار ، هو تكرار.. والتكرار لا

يمكن أن يكون هدفاً.. التكرار هو بمثابة أسطوانة مشروخة ، وتقع

الإبرة فى الشرخ ، فتردد الأسطوانة نفس النغمة.. نغمة مملة..

مزعجة.. وأنت تريدنى أن أكون أسطوانة مشروخة.

قلت :

- إنك تستطيع أن تدفع الإبرة فوق الشرخ ، فتعود الأسطوانة

تطلق أنغامها الحلوة..

قال فى حدة :

- نفس الأنغام التى مللتها.. اسمع.. إن الفن عبارة عن عامود

أملس منتصب فى الهواء ، ونحن نحتضنه بذراعينا ونتشبث به

بساقينا.. ونرتفع وكل سنتيمتر نرتفعه نخشى أن نتزلق فوق

العامود ونهوى.. وننظر إلى أعلى.. فنجد العامود طويلاً.. لا نرى

قمته.. ولكن بعضنا يراها.. ثم يمد بصره فوق القمة ، فماذا يجد

وراءها... يجد فراغاً.. وأنا أخشى فى كل سنتيمتر أن أتزلق

وأسقط.. وأخشى أن أستمر فى الصعود لأنى لا أريد أن أصل إلى

الفراغ.. ثم لا أستطيع أن أقف حيث أنا ، لأنى بذلك أفقد الهدف..
خير لى أن أنتحر..

قلت :

- ولكن...

وقاطعنى :

- ناقشنى بعقلك لا بعاطفتك.. واقتنع معى أن خير وقت كى
أموت هو الآن.. إن كل يوم أعيشه بعد ذلك هو عالة على الماضى..
كأنى أستجدى الناس أن يشفقوا على فنان لا يقدم لهم جديداً.. كأنى
أفرض عليهم ضريبة.. أو معاشاً لى.. لأنى كنت يوماً فناناً..

قلت :

- ولكن الناس تحبك..

قال :

- الناس لا تحب الفنان ، ولكنها تتفرج عليه.. وتدفع ثمن تذكرة
الفرجة.. وهى تتفرج عليه يوماً بيوم.. ليس من حق الفنان أن يتعاقد
مع الناس على أن يتفرجوا عليه ، ويعجبوا به لمدة عشر سنوات أو
عشرين سنة.. أبداً.. يوماً بيوم.. وفى كل يوم يخشى أن يطل الملل
من عيونهم.. وفى كل يوم يرهف سمعه للأكف التى تصفق ليتأكد
أنها ليست أقل حماساً من الأمس.. وفجأة يختفى الناس.. ويختفى
التصفيق.. فجأة كالسكته القلبية.. لأن الفنان وصل إلى مرحلة تكرار
نفسه.. لم يعد شيئاً جديداً.. ولم يعد يستطيع أن يتسلق العامود
الأملس.. لا يا أخى.. إن الناس لا تحب الفنان.. إنهم أقسى على
الفنان منهم على الحلاق مثلاً.. لأنهم يسمحون للحلاق أن يكرر
نفسه طول حياته.. ولا يسمحون للفنان بأن يكرر نفسه..

و.....

ولم تنته مناقشتنا إلى شىء.. لم أستطع أن أخفف من تشاؤم

محمود.. والواقع أنى لم أكن أخشى على محمود من أن يقتل نفسه..
فإن الذى يقتل نفسه، لا يفكر فى قتل نفسه .. ومادام محمود يفكر
فهو لن يقتل نفسه.. ولكن التفكير فى الانتحار.. مجرد التفكير.. هو
علامة الانسحاب من الحياة.. علامة تغلب السلبية على الإنسان..
حتى لو لم يقتل الإنسان نفسه.. وأنا لا أريد لمحمود أن ينسحب من
الحياة.. ولا أن يكون سلبياً ، على الأقل بالنسبة لنفسه.
واحترت ماذا أفعل..

ومرت أيام طويلة ، لم أفعل فيها شيئاً لأساعد محمود فى أزمته..
وكان تعودى على مظهره الحزين القاتم كلما انفرد بنفسه سيباً فى
تحففى من إحساسى بأزمته..
ثم كان يوم آخر..

ودخلت إلى حجرة عمى عبد العزيز ، والد محمود.. وجلست معه
وقطع الفخار القديم المكسر تملأ الأرفف ، والأرض ، وتصل أكوام
منها إلى السقف... وتحدثنا طويلاً.. وحديث عمى عبد العزيز ،
حديث حلو فكه ، دائماً.. ولكن.. فجأة.. قطع عمى عبد العزيز حديثه
الفكه.. وقال لى وهو يتنهد ، وابتسامته لا تزال بين شفثيه :

– أتدرى ماذا يحيرنى منذ مدة ؟

قلت :

– ماذا ؟

قال :

– إنى حائر.. لماذا أعيش ؟

وانخلع قلبى ، وقلت :

– هناك ألف سبب للحياة.. الطبيعة الحلوة.. انتظارك مشهد
الشروق والغروب.. الموسيقى.. الأدب.. ابنك محمود.. حفيدك طارق..
كل هذه أسباب تكفى لتعيش ، وأن تنعم بحياتك..

قال فى يأس :

- هذه كلها أشياء قد أكون فى حاجة إليها ، ولكنها ليست فى حاجة إلى.. لا الشروق ولا الغروب رغم جمالهما فى حاجة إلى.. ولا محمود ولا طارق فى حاجة إلى.. ونحن نحيا لأن هناك من يحتاج إلى حياتنا.. فإذا لم يكن هناك من يحتاج إلينا فلماذا نعيش.. لقد انتهت مهمتنا فى الحياة.. والدبور يموت بمجرد أن تنتهى مهمته فى الحياة.. والفيل عندما يشيخ ينسحب من الحياة ، وينزوى فى كهف إلى أن يموت من الجوع ، لأنه يعلم أنه لم يعد هناك سبب للحياة ، وأنه لم يعد يستحق أن يزاحم الشبان.. وبعض القبائل البدائية تقتل شيوخها عندما يصلون إلى سن العجز.. تقتلهم دون أن تكرههم.. ولكن فقط تطبيقاً لمنطق الحياة.. وأنا الآن عجوز.. لا أعطى شيئاً.. وليس هناك من ينتظر منى أن أعطى شيئاً..

قلت :

- لقد أعطيت الكثير ، وأصبح من حقدك أن تستريح..

قال :

- أنا لا أشعر بالراحة ، ولكنى أشعر بالعجز.. وأشعر بنظرات الإشفاق والرثاء فى عيون الناس.. لقد دفع لى الناس ثمن ما أعطيتهم.. دفعوا ثمن مقالاتى وقصصى.. ولكنهم الآن يدفعون لى رثاء وشفقة.. ولا يمكن أن نعيش من أجل رثاء الناس..

قلت :

- ولكن..

قال :

- أتدرى لماذا أجمع قطع الفخار المكسور.. لأنى أشفق عليها.. لأنها تذكرنى بنفسى.. لقد كانت كل قطعة تؤدى يوماً خدمة.. كانت قلة.. أو زيراً.. أو وعاء.. أو تحفة.. ثم أصبحت قطعاً من الطوب ملقاة

فى الجبل.. بلا ثمن.. بلا قيمة.. وأمسك بكل قطعة وأكاد أبكى.. لقد كانت هذه القطعة يوماً شيئاً هاماً فى حياة الناس.. مثلى..
و.....

وأيضاً لم أصل من مناقشتى مع عمى عبد العزيز إلى شىء..
وازددت هلعاً.. لا يمكن أن يكون الابن وأبوه يفكران فى الموت ، فى نفس الوقت.. ثم كدت أجن ، عندما جلست مع طارق.. لقد رفع إلى عيين تحملان هما أكبر من سنه ، وقال لى :
- قل يا عمى.. لماذا يحرم الله الانتحار؟
وشهقت ، وبلعت شهقتى بسرعة ، وقلت :
- لأن الله منح الحياة ، ومن حقه وحده أن يستردها..
قال :

- إذا كان الله قد منح الحياة ، فلماذا لا يتم جميله ، ويتولاها..
قلت :
- ماذا تقصد ؟
قال :

- أقصد.. والله قادر على كل شىء ، فلماذا يترك بعض الناس أقوياء ، وبعضهم ضعفاء ، ولماذا ينجح البعض ، ويفشل البعض ، ولماذا بعضنا أغنياء ، وبعضنا فقراء.. لماذا لا يولد كل منا وفى رقبتة لوحة مكتوب عليها ما قرره له الله.. هذا المولود سيكون وزيراً.. وسينجح.. وينعم.. وهذا سيكون كاتباً مشهوراً.. و.. و.. ثم يتولى الله وضع كل منا فى مكانه الذى قرره له..
قلت :

- إن الله منح كل فرد عقلاً وإرادة ، وتركه حراً فى استعمال إرادته وعقله.. فإما أن ينجح وإما أن يفشل..
قال :

- لماذا.. ماذا يعود على الله من اختبارنا.. ثم هو الذى يحدد لكل منا مدى قوة إرادته ، ومدى قوة ذكائه.. فلماذا يحاسبنا بعد ذلك.. ولماذا يترك الضعيف ضعيفاً..

قلت :

- ألا تؤمن بالحرية..

قال :

- نعم..

قلت :

- إن الله يؤمن أيضاً بالحرية.. وقد منحنا الحرية حتى يحدد كل منا مصيره.. ولا أعتقد أننا نولد وهناك فرق بيننا فى الذكاء والإرادة، ولكننا نحن باستعمالنا لهذا الذكاء وهذه الإرادة ، الذين نحدد تصرفاتنا..

قال فى يأس :

- لست مقتنعاً.. لا أريد أن أعيش حياة لا ذنب لى فيها..

ولا أريد أن أسير فى طريق لا أعرف نهايته.. إنى أتعذب.. وأخاف.. أتعذب لأنى أحس بعجزى عن مخالطة الناس.. وأخاف أن أفشل فى أن أكون إنساناً ناجحاً كأبى أو كجدى.. إنى أريد أن أموت..

و.....

وانخلع قلبى.. لم أكن أدرى أن الثلاثة يعانون كل هذا العذاب.. وكان يجب أن أفعل شيئاً.. كان يجب أن أنشلهم من هذه المناشير التى تنتشر فى نفوسهم وفى أعصابهم.. ومضت أيام وأنا لا أدرى ماذا أفعل.. أيام طويلة.. وقد أصبحت أرى الثلاثة خلالها ، أشد حزناً وأكثر انطواء.. وأصبحت أجرى إليهم كل صباح وأنا خائف من مصيبة..

ثم اتخذت قراراً..

ذهبت إلى الأب ، وقلت له فى لهجة جادة خطيرة :

- اسمع يا عمى.. هناك موضوع هام يجب أن أحدثك فيه.. إن محمود يفكر فى الانتحار..

وانفتحت عينا الأب على سعتهما ، وقال فى هلع :

- ماذا تقول ؟

وكررت :

- محمود يفكر فى الانتحار.. وليس المفروض أن أقول لك هذا النبأ.. ولكنى لا أدرى ماذا أفعل..

وصرخ الأب :

- إنه مجنون.. إنه لا يزال فى الأربعين من عمره ، وقد كنت فى هذه السن أشرب من الحياة ولا أرتوى.. بل إنى الآن ، وقد جاوزت السبعين ، أستطيع أن أجد ألف سبب للحياة.. إنى أستطيع أن أقنعه وأنا فى السبعين بأنى أستطيع أن أنتج شيئاً جديداً ، أمنحه للناس.. أستطيع أن أتقدم.. أن أبنى.. إن البناء لا نهاية له.. هذا المجنون.. إن تفكيره فى الانتحار ، معناه اليأس.. وسأعلمه أن لا يأس مع الحياة.. وذهب الأب إلى ابنه ، وقال له فى لهجة قوية ، كلها إصرار وثقة:
- اسمع.. إنى سأكتب قصة جديدة.. سأقول لك موضوعها لأنى أريدك أن تجمعنى ببعض المنتجين.. إنها قصة سينمائية..

وبدأ الأب وابنه يجتمعان لمناقشة القصة..

وبعد أيام ذهبت إلى محمود ، وقلت له :

- اسمع يا محمود.. أريدك أن تنسى كل شىء لنتفاهم فى موضوع خطير..

قال فى بساطة :

- ما هو ؟

قلت :

- طارق يفكر فى الانتحار.. ولم يكن مفروضاً أن أقول لك..
ولكنى لا أدرى ماذا أفعل..

وصرخ محمود :

ينتحر.. طارق ينتحر.. إنه مجنون ولا شك.. إنه لم يجرب بعد لذة
الحياة.. لذة العمل.. لذة النجاح.. إن أيامى كلها لذيدة ، لأنها كلها
أيام عمل.. إن مجرد العمل كاف للتمسك بالحياة.. هذا المجنون..
يجب أن يجرب العمل.. إن المدرسة لا تكفيه ، لأنه أكبر طموحاً وهو
فى هذه السن من أن يكون مجرد تلميذ.. إنه موهوب ، وقد قرأت له
قصة تصلح للإذاعة.. سأخذها منه وأمثلها بنفسى ، ليعرف لذة
العمل.. لذة الحياة..

واندفع محمود نحو ابنه طارق ، وأخذ يناقشه فى قصته..
وانقلب جو البيت كله..

أصبح البيت عملاً.. وحماساً.. واجتمع الثلاثة يناقشون عملهم..
ويعرقون.. ويضحكون.. وينجحون..

والفيلم الأخير الذى مثله محمود ، وضع قصته والده ، الكاتب
الكبير الأستاذ عبد العزيز رفعت ، واشترك فى وضع السيناريو ابنه
طارق..

وكل ما فعلته أنا ، هو أنى جعلت كلاً منهم يعيش للآخر..
كل جيل يمسك بيد الجيل الثانى.. ويعيش له..
وهم يحبوننى..
وأنا أحبهم..



أريد أقتل

هذه ليست قصة.. إنها قطعة من ذكريات
صديق..



■ ■ ■

عام ١٩٥٣..

وكنت ضابطاً فى الجيش ، برتبة
«يوزباشى».. أحد الضباط الأحرار..

وعينت بعد عام من الثورة ، ضابط اتصال لدى القوات البريطانية
التي كانت تحتل منطقة القنال.. ومقر عملى : السويس..
وكانت هذه هى مهمتى الرسمية..
ولكن..

كانت لى مهمة أخرى أهم.. مهمة سرية.. هى تدريب الفدائيين
على أعمال التخريب داخل معسكرات الجيش البريطانى..
كنت فى الصباح أذهب إلى مقر قيادة الجيش البريطانى..
مبتسماً.. هادئاً.. مهذباً.. وأناقشهم فى المسائل المعلقة بينهم وبين
القوات المصرية.. حريصاً على إبداء روح التعاون ، والتفاهم !!
وفى المساء ، أذهب إلى الجبل ، وأدرب الفدائيين.. أدربهم على
التسلل.. وعلى تخطى الأسلاك الشائكة.. وعلى مقاومة الكلاب
البوليسية.. وعلى التخفى.. وعلى توزيع المنشورات.. و.. وعلى
القتل.. القتل بالخنجر.. والقتل بالمدفع.. والقتل بالمسدس.. القتل بلا
صوت.. والقتل بصوت..

ومرت أيام..

واكتسبت صداقة ضباط القيادة البريطانية ، وثقتهم !!
واستطعت أن أدرب قوة من الفدائيين أشاعت الرعب فى
معسكرات الإنجليز كلها.. وكانت الأوامر قد صدرت إلينا بالتركيز
على سرقة سيارات اللورى التابعة للجيش البريطانى ، فاستطعنا أن

نسرق ثمانى وعشرين سيارة فى شهر واحد ، دون أن يكتشف
الإنجليز منظمنا ، ودون أن يقع منا أحد..

وكانت الخطة التى نتبعها فى سرقة السيارات.. بسيطة.. سهلة..
كنا نضع عائقاً فى طريق الإسماعيلية ، البرميل... ثم نعد كميناً على
جانب الطريق.. وتأتى سيارة الجيش البريطانى ، ويضطر السائق
إلى تهدئة السرعة ، وفى لمحة خاطفة يخرج الفدائيون من الكمين ،
ويقفزون داخل السيارة ، ويقتلون السائق.. بالخنجر.. بلا صوت..
ثم يقودون السيارة إلى ورشة سرية ، فيتغير لونها فى الحال..
ونعلق فيها نمرة من نمر الجيش المصرى ، ويتولى قيادتها جندى
مصرى بثيابه الرسمية ، ويقودها مطمئناً إلى القاهرة..

وألقى أخبار كل عملية ناجحة فى فرح.. ويقص على الفدائيون
تفاصيل كل عملية.. كيف وضعوا العوائق.. وكيف قفزوا داخل
السيارة.. وكيف طعنوا السائق.. هل كانت الطعنة فى قلبه أم فى
جنبه.. أم فى عنقه.. و...

وفجأة اكتشفت شيئاً فى نفسى..

اكتشفت أنى إلى الآن لم أقتل أبداً..

لم أجرب القتل..

إنى أدرب الفدائيين على القتل.. وأعرف جيداً كيف أسدد الطعنة..
وكيف أطلق المسدس ، والمدفع.. ولكنى لم أقتل.. لم أجرب القتل..
هل أستطيع أن أقتل؟

إنى أعلم أنى ضابط ممتاز.. كل تقارير رؤسائى تشهد بذلك..
وكل ضباط القيادة يعهدون إلىّ دائماً بمهام تتطلب جرأة خاصة..
ولكن هل أستطيع أن أقتل!؟

من يدري.. ربما ارتعشت يدي إذا هممت يوماً بقتل عدو.. ربما
خفت.. أو ارتبكت.. وطاشت الرصاصة.. أو سقطت الطعنة ضعيفة

هزيمة.. لا تصل إلى القلب.. كيف أعرف أنى أستطيع أن أقتل ، إذا
كنت لم أجرب القتل !!؟
وبدأت ثقتى فى نفسى تهتز..
موجات من القلق تغرقنى..
ولا أنام..

وكنت عادة لا أنام إلا بعد الساعة الخامسة صباحاً ، فى انتظار
انتهاء عمليات الفدائيين ، وترحيل السيارات المسروقة إلى القاهرة..
ولكنى أصبحت لا أنام ، من القلق.. قلق نفسى مريع.. لقد فقدت
ثقتى بنفسى كضابط ممتاز.. إن الضابط لا يكتمل إلا إذا خاض
معركة.. وإذا خاض معركة فلا بد أن يقتل عدواً له.. وأنا لم أخض
معركة.. ولم أقتل.. كيف أثق أنى ضابط ممتاز !!

وكان الحل الوحيد هو أن أشترك بنفسى فى «طلعة» من
«طلعات» الفدائيين كى أقتل..
ولكن..

كانت الأوامر المشددة الصادرة إلينا ، تقضى ألا يشترك الضباط
فى عمليات الفدائيين تجنباً لاحتمال أن يقع واحد منهم فى يد
الإنجليز ، فيكون دليلاً على أن تنظيم الفدائيين هو تنظيم تابع
لمجلس الثورة. وتثار أزمة سياسية ، كان من الأفضل ألا تثار فى
هذا الوقت.

ولأول مرة أتململ من أوامر القيادة..
والقلق يأكل من صدرى..
وأنظر إلى الفدائيين وهم فى طريقهم إلى المعركة.. وأحسدهم..
أشعر - رغم أنى مدربهم - بأنهم أكبر منى.. وأنى أصغر منهم..
وفى هذا الوقت بالذات توطدت الصداقة بينى وبين الكابتن
بيلى.. ضابط شاب من ضباط القيادة البريطانية.. وأصبحت صداقة

خارج دائرة العمل.. كنا نتقابل فى بار الفندق.. ونتحدث كصديقين..
كان يحدثنى عن الفتاة التى يحبها.. وعن بيته فى ضواحي لندن.. وعن
أمه وأبيه.. وعن مستقبله .. كان حديثه حلوا .. رقيقا .. ضاحكا .. ولم
أعد أشعر به كضابط من ضباط الأعداء.. كنت أحس به كإنسان ،
يفيض بالأمل.. والحب.. إن له عائلة مثل عائلتى.. وأباً وأماً... وفتاة
يحبها كما أحب فتاتى.. و..

ومن خلال نوبات القلق التى أعانيها ، قفز إلى رأسى تساؤل :
هل أستطيع أن أقتل بيلى ؟
وتطور السؤال إلى أبعد..

ما سر هذا الحب الذى أشعر به نحو بيلى.. ألا يمكن أن يكون
هذا نوعاً من الضعف.. نوعاً من الاستعداد الداخلى للتهاون..
للتخفف من حماسى..

بل ما سر نجاحى كضابط اتصال ، واكتساب ثقة الضباط
الإنجليز.. هل السبب هو ذكائى وقوة أعصابى.. أم هو استعدادى
للتخفف عن حماسى الوطنى ، وإحساسى بثقل الكراهية التى أحملها
لأعدائى..

وبدأ كل شىء فى يختل..

وأصبحت أجلس مع الكابتن بيلى وأنظر إلى عنقه لأحدد موضع
الطعنة ، التى قد أطعنه بها.. وأنظر إلى صدره لأحدد مكان قلبه.. ثم
أفبق من هذا الجنون لألتقى بابتسامة بيلى المرححة ، وحديثه عن
الحب يملأ أذنى..

ولم أعد أطيق..

أكاد أجن فعلاً..

وكنت أعلم أن السبب هو أنى على وشك أن أفقد ثقتى فى نفسى

كضابط ممتاز..

إنى لن أستطيع أن أؤدى واجبى ، إذا فقدت ثقتى بنفسى..
يجب أن أسترد ثقتى بنفسى..
يجب..

وفى لحظة.. قررت - لأول مرة - أن أخالف أوامر القيادة..
وليحدث بعد ذلك ما يحدث..
وهرعت إلى مكان تجمع الفدائيين.. وأنا فى ثيابى المدنية ،
وخنجرى معى.. وذهبت معهم..
ووضعنا البرميل فى منتصف الطريق..
واختفينا على حافة الحقل المجاور..
ولمحت السيارة الإنجليزية قادمة من بعيد.. لم أرتجف.. ولم تزد
ضربات قلبى ضربة واحدة.. كان عقلى يعمل فى هدوء.. ويتجمع
ليحدد كل حركة.. ليصدر الأوامر إلى قدمى كى تقفز.. وإلى يدي
كى ترتفع.. وكى تهوى.. و.. إن مركز أعصابى كله مجند الآن تحت
أوامرى.. ليس فى عصب واحد متمرد على..
واقتربت السيارة..

وهذا السائق من سرعته أمام البرميل..
وانطلقت من عند حافة الحقل.. إنى أحس تماماً بكل خطوة.. بل
إنى أستطيع أن أحدد مدى سرعته... وقفزت.. فى نفس اللحظة التى
قررت أن أقفز فيها.. وأصبحت فوق السائق ، وخنجرى مشهور فى
يدى.. وطعنته فى عنقه.. فى المكان الذى اخترته أنا وحدته لأطعنه
فيه.. لم تكن طعنة عشواء.. وكنت أعلم أن الطعنة الأولى كافية
للقضاء عليه.. ولكنى طعنته طعنة ثانية لأريحه من آلامه.. إنى لم
أفقد إنسانيتى وأنا أطعن.. لم أتوحش.. لم أفقد سيطرتى على مركز
أعصابى.. إنى أقوم بواجب أو من به.. بعملية لا بد منها.. والطعنة
الثانية لأريح الإنسان الذى قتلته من عذابه..

وانتهت العملية..
بلا ضجة..
وقدت السيارة بنفسى إلى الورشة السرية..
ونمت..
أذ ليلة نمتها فى حياتى.. لم أنم أبداً بمثل هذا العمق اللذيذ..
وصحوت وأنا واثق أنى ضابط ممتاز..
استرددت كل ثقتى بنفسى..
وذهبت إلى مقر القيادة البريطانية ، مستجمعاً كل ذكائى.. وكل
إرادتى.. وكل إيمانى بواجبى..
وبعد الظهر التقيت بالكابتن بيللى فى بار الفندق.. ولم أعد أنظر
إلى عنقه.. ولا إلى صدره... لقد أفقت من هذا الجنون.. إنى أحبه..
أحبه كإنسان.. وحبى له لا يمكن أن يؤثر فى واجبى نحو وطنى..
وقلت له فى ثقة :
- بيللى.. يجب أن تجلو القوات البريطانية عن أرضنا حالاً..
قال مبتسماً ، وروح النكتة الإنجليزية تغلبه :
- ولماذا هذه السرعة :
- قلت :
- لأنى أخشى أن أقتلك يوماً ما..
قال مبتسماً :
- هذا صحيح.. وقد أقتلك أنا قبل أن تقتلنى..
قلت :
- هذا صحيح أيضاً.. ولكنى سأكون على حق.. أما أنت فلا أعتقد
أنك ستكون على حق..
قال :
- هذه وجهة نظر..

وسكت قليلاً ثم قال :
- خسارة أن يقتل أحدنا الآخر..

قلت :

- خسارة كبيرة..

و.....

وبعد شهر نقل الكابتن بيللى من مقر القيادة.. لأن رؤساءه
اتهموه بالتدخل فى السياسة.. ومناقشة الأوامر..



ابسوليه

ماتت أمى وأنا فى التاسعة من عمري..
وأبى إنسان رقيق ، طيب ، مرهف الحس..
يعيش حياته كنسمة طرية.. كابتسامة طفل..
كعبير وردة.. لم يكن رجلاً مكافحاً ، أو
مناضلاً.. كان مجرد موظف حكومى بسيط
راض بنصيبه.. حتى فى حياته الخاصة ، لم
يكن يطالب بشيء ، أو يعترض على شيء.. كان يستسلم لأى شيء..
ويرضى بكل شيء.. وكان يشرب الخمر.. ولكننا - أمى وأنا - لم
نكن نغضب منه عندما يشرب ، فقد كانت الخمر تزيده رقة ، وعذوبة ،
وطيبة.. وكانت أمى تدله كثيراً.. وترعاه وتخاف عليه كأنه طفل..
كأنه أصغر منى !



ووجدت نفسى بعد أن ماتت أمى ، مسئولاً عن أبى... لا أدرى
كيف أحسست بمسئوليتى عنه.. ربما كانت النظرة المسكينة الحائرة
التي أطلت من عينيه يوم وفاة أمى.. نظرة الطفل التائه.. هي التي
أشعرتنى بمسئوليتى نحوه..
وقد حملت هذه المسئولية كاملة.. كنت أقوم من النوم مبكراً ،
لأوقظه ، وأقف معه حتى يرتدى ثيابه ، وأطمئن إلى أنه تناول
إفطاره ، ثم أودعه وهو فى طريقه إلى عمله.. ثم..
ثم أذهب إلى المدرسة..
وقد كنا نسكن - أبى وأنا - وحدنا ومعنا خادمة عجوز.. وعمتى
تسكن فى بيت مجاور ، وكانت تزورنا كل يوم تقريباً لتطمئن على
حالتنا ، وتدبر لنا حياتنا.. ولكن جهود عمتى ، لم تعفنى من
مسئوليتى نحو أبى.. بل كبر إحساسى بالمسئولية مع الأيام..
وأصبحت وأنا فى الثانية عشرة من عمري ، رجل البيت.. أصبحت
كأنى أب لأبى.. أنا الذى أمسك بالمصروف .. وأنا الذى أحاسب ..

وأنا الذى أذكر أبى بأنه فى حاجة إلى قميص جديد.. ثم أجلس فى الصباح أمسح له حذاءه.. وانتظره فى الليل إلى أن يعود من الحانة.. وأحياناً يتأخر فى عودته.. فأجزع عليه.. أخاف أن أفقده.. فأخرج فى الليل ، وأذهب إليه فى الحانة التى تعود أن يجتمع فيها بأصدقائه.. وأجده سعيداً رقيقاً.. يغنى.. وينظر إلى ، ويفرح بى، ويقبلنى ، وأقول له وأنا حريص على ألا أغضبه :

- أصلك وحشتنى يا بابا.. جيت أشوفك!!

ويفهم أبى.. وينهى مجلسه.. ويقوم معى ، ويستند على كتفى ، ونحن عائدان إلى البيت..

وقد اعترفت لى عمتى بأنى ، رجل.. واعتمدت علىّ فى تدبير حياتنا.. حياتى وحياة أبى.. وكل من كان يعرفنى ، كان يعتبرنى رجلاً.. فى العاشرة من عمرى والناس تعتبرنى.. رجلاً.. وأنا أعتبر نفسى.. رجلاً..

لا أذكر أبداً أنى كنت طفلاً ، أو صبياً..

لا أذكر أنى لعبت كما يلعب الصبية.. أو أن أحداً دللنى كما يدلل الصبيان.. أو كانت لى نزوات وأخطاء كبقية الصبيان.. كان الإحساس بالمسئولية يصحبنى دائماً.. وكان عقلى الصغير مشغولاً بحساب مرتب أبى.. ماذا دفعنا منه وماذا بقى.. وكان هذا الإحساس ينطلق على وجهى.. فكنت أبداً جاداً.. لم أكن ابتسم إلا قليلاً.. وغالباً لأبى.. ولم أكن أضحك.. لا أذكر مرة أن انطلقت منى ضحكة رائقة ، لا يعكرها إحساس بالمسئولية..

وقد عودنى هذا الإحساس بالمسئولية على أن أقتر على نفسى.. كان كل مرتب أبى فى يدي.. أنا الذى أضعه فى الدرج.. وأنا الذى أدفع نفقات الأكل ، وأجرة الشقة.. وأنا الذى أعطى لأبى مصروفه اليومى.. تماماً كما كانت تفعل أمى.. ورغم ذلك لم أحاول أن أعطى

لنفسى شيئاً إلا الضرورى.. لم أفكر فى أن أشتري لعبة.. أو قطعة شيكولاتة.. أبداً.. كان كل ما أحرص عليه بشدة ، هو أن يأخذ أبى مصروفه اليومى ، حتى لا أعكر عليه سعادته ، وحتى لا أحرمه من كؤوس الخمر.. وفى سبيل هذا الحرص ، كنت أحرم نفسى من الكثير.. بل إنى عودت نفسى ألا أشتري الكتب المدرسية، بل أذاكر فى كتب زملائى.

وكنت أنجح فى المدرسة.. وكان النجاح جزءاً من إحساسى بالمسئولية.. واستمر نجاحى ، حتى نلت شهادة البكالوريا.. واشتغلت كاتباً فى مصنع نسيج صغير.. واستطعت أن أوفر لأبى مصروفاً أكبر ، وسعادة أكبر..

وإحساسى بالمسئولية لا يضعف ولا يخفت..
حياتى كلها مشحونة بهذا الإحساس.. لا لهو.. ولا انطلاق.. ولا شباب.. فقط المسئولية..

وقد أصبحت مسئولاً عن عملى ، فاكتسبت ثقة صاحب المصنع.. ثم بدأت أعمل مندوباً تجارياً للمصنع.. أطوف على التجار لأبيع لهم منتجاتنا ، نظير عمولة.. وكسبت كثيراً.. ولكن حياتى لم تتغير.. وكل ما يبقى من كسبى أدخره..

وكانت ابنة عمتى فتاة طيبة ، ولكنها ليست جميلة.. مسكينة.. أنفها كبير جداً.. وأسنانها بارزة ، مكسرة... وساقاها رفيعتان هزيلتان بهما أثر من كساح قديم.. وقد كبرت معى... إنها أكبر منى بعام واحد.. وكان يجب أن تتزوج.. ولكن لا أحد يريد أن يتزوجها.. لا أحد يريد أن يحمل مسئوليتها.. والتفتت إلى العائلة.. لم يطلب منى أحد أن أتزوجها.. ولكنى أحسست بمسئوليتى نحوها.. نحو ابنة عمتى.. فتزوجتها..

وأبى أحيل إلى المعاش ، وأصبح عجوزاً.. ولا يزال رقيقاً ، طيباً ،

مدللاً.. لا يزال ابني.. ولا زلت أحرص كل يوم على أن أوفر له نفقات الحانة.. وعندما أصبح عاجزاً عن أن يذهب إلى الحانة ، أصبحت أشتري له زجاجة الكونياك ، وأضعها أمامه في البيت.. وإحساسى بالمسئولية لا يضعف ولا يخفت.. حياتى كلها عمل.. وجد.. إنى لا أبتسم.. ولا أضحك.. ولا أنطلق..

وأصبح لى أولاد..... ولكن ابنى البكر لا يزال هو أبى.. وعندما مات أبى ، أحسست أنى فقدت ابنى البكر.. بكيت عليه كأنى أبكى ابنى.. كنت أمسك حذاءه الذى تعودت أن أمسحه بيدي ، وأبكى.. وأمسك قميصه وأبكى.. وألمح زجاجة الكونياك ، فيخيل إلى أنها زجاجة اللبن الذى كنت أرضعه بها.. وأبكى !!

وأفقت من بكائى لأواجه من جديد إحساسى بالمسئولية.. واستطعت أن أجمع من عملى ثروة.. ثروة لا بأس بها.. شاركت بها صاحب المصنع.. ثم اختلفت معه ، فأقمت مصنعاً للنسيج أملكه وحدى..

أصبحت فى الخمسين من عمري ، وصاحب مصنع... غنى.. وأقيم فى بيت يطل على النيل.. وعندى سيارتان.. ولكنى لا أبتسم.. ولا أضحك.. ولا أنطلق.. إحساسى بالمسئولية لا يزال يملأ حياتى.. ورأسى مشحون بالمشاريع والأرقام..

وقد تعودت كل صباح أن أنزل من بيتى وأسير على شاطئ النيل لمدة عشر دقائق ، ثم تلحقنى سيارتى لتحملنى إلى المصنع.. وفجأة - وبينما أنا سائر على قدمى - سقطت عيناى على حجر صغير.. ولا أدري ماذا حدث لى.. لقد تملكتنى - فجأة أيضاً - رغبة عارمة فى أن أشوط هذا الحجر بقدمى.. وحاولت بكل قواى أن أقاوم هذه الرغبة.. وتعديت الحجر فى سيرى.. ولكنى لم أستطع أن

أستمر فى مقاومتى.. عدت إليه.. إلى الحجر.. وضربته بقدمى..
وبكل قوتى..

وأحسست براحة ، وخيل إلىّ أنى ابتسمت.. وعندما وصلت إلى
مكتبى كنت أشعر بنوع من السعادة لم أشعر به من قبل.. سعادة
تفور فى صدرى ، كأنها فقاقيع ترقص فوق كأس الشمبانيا.. ولم
أستطع لفرط سعادتى ، أن أبقى فى مكتبى.. خرجت قبل موعدى..
ولأول مرة فى حياتى.. خرجت كأنى ذاهب لأبحث عن الحجر
الصغير لأشوطه مرة ثانية.. ووجدت نفسى أنزل من السيارة عند
شاطئ النيل.. وأمشى قليلاً ، ثم أدخل فى أحد المقاهى المقامة
هناك.. وأطلب واحد كازوزة !!
هذا حدث كبير..

تطور كبير.. حدث فجأة..

وعدت إلى البيت ، ولأول مرة ، اكتشفت أن زوجتى أقبح مما
كنت أعتقد.. وحاولت أن أبتسم لأولادى ، ولكنى لم أستطع ، فإنى
لم أعودهم على أن أبتسم لهم.. ولكنى أريد أن أبتسم.. أريد أن
أنطلق.. أريد شيئاً جميلاً فى حياتى..

ولم أستطع أن أقاوم طويلاً.. خرجت فى المساء.. وذهبت إلى
المقهى.. الملهى الذى تجدنى فيه الآن كل ليلة.. وقد دخلته أول مرة
كالعبيط.. كالأبله.. وعلى شففى ابتسامه ظمأى.. ظمأى إلى
الابتسامه.. وبعد دقائق وجدت نفسى جالساً بجانب فتاة.. جميلة..
وأمامى زجاجة ويسكى.. ودسته من زجاجات الشمبانيا..
و..

إن الناس تقول عنى الآن ، إنى شيخ عاهر.. طائش.. متهتك..
ولكنى لا أشعر بأنى عاهر ، أو طائش ، أو متهتك ، كل ما أشعر به
أنى أبدأ حياتى.. وأضحك !



قلب المضيفة

أنا مضييفة جوية..

منذ متى ؟

ربما منذ فتحت عيني ونظرت بهما إلى
السماء.. فلم تكن السماء إلا مكاناً تطير فيه
الطائرات.. ولم تكن الطائرات إلا مكاناً فيه
مضيفات..



لقد عشت بخيالي كمضييفة قبل أن أصبح مضييفة.. كنت أقف
طويلاً أمام إعلانات شركات الطيران.. وكنت أصنع لحقيبتى حزاماً
طويلاً من الجلد أعلقه فوق كتفى ، وأسند يدي على الحقيبة عندما
أمشى ، كما تفعل المضيفات.. وكنت أصنع قبعات صغيرة أميلها على
جانب رأسى ، كقبعات المضيفات.. وكل ثيابي « تاييرات » ضيقة ،
كالمضيفات.. وأنام وأصحو وأنا أحلم بشارة المضيفات فوق
صدرى..

وأصبحت مضييفة..

ولم يكن صعباً أن أصبح مضييفة.. فأنا جميلة ، أجمل مضيفات
الشركة.. ومثقفة.. أكثرهن ثقافة.. أجيد ثلاث لغات..
وقضيت شهراً أتلقى محاضرات في عمل المضيفات.. وكنت
ممتازة.. أشرب كلمات المحاضرة بأذني ، وبعقلي ، وبعيني.. وأعود
إلى البيت وأصف الكراسي في صفوف منتظمة ككراسي الطائرات..
وأطوف بينها كأن على كل مقعد راكباً.. وأبتسم.. لقد قالوا لنا في
المحاضرة إن أول واجبات المضييفة أن تبتسم.. دائماً !
وأخيراً..
طرت..

ركبت الطائرة لأول مرة وأنا أحس بأنى على وشك أن أغزو
العالم.. أغزو بيروت.. وروما.. ودسلدورف.. ولندن... و...

وانقضت الشهور.. ومات إحساسى بغزو العالم.. كل ما أحس به هو أنى أجرى.. أجرى.. أجرى.. حياتى كلها جرى.. أجرى فى القاهرة ، لألحق موعد الطائرة.. وأجرى فى الطائرة نفسها وأنا أقوم بخدمة الركاب.. وأجرى فى بيروت وأنا أنزل من الطائرة ، وأعود إليها.. وحقبتي دائماً معى.. فيها قميص نومى ، والروب ديشامبر ، والشبشب ، وفرشاة الأسنان.. إن هذه الحقيقية أصبحت بيتى.. ليس لى بيت فى القاهرة ، ولا فى بيروت ، ولا فى لندن.. بيتى فى حقيبتى! وليس لى أهل ، أعيش معهم..

أهلى هم ركاب الطائرة.. هؤلاء هم الذين أعيش معهم.. وهم أهل عجاب تتغير وجوههم وسحنهم فى كل رحلة.. ولكن لا تتغير أخلاقهم ولا طبيعتهم.. إن كل من يركب الطائرة يتطبع خلال الرحلة بطابع خاص يجمع كل الركاب.. قد يختلفون فى تصرفاتهم.. ولكنهم لا يختلفون فى أحاسيسهم.. أحاسيس الإنسان الطائر.. قد ينظر إلى واحد فى حياء وأدب ، وقد ينظر إلى الآخر فى وقاحة وقلة أدب ، ولكن الاثنين يجمعهما إحساس واحد ، وتدور فى رأسيهما فكرة واحدة ، أستطيع أن أتبينها فى وضوح ، مهما بالغ الأول فى حياؤه ، ومهما بالغ الآخر فى قلة أدبه.. وقد يبدو أحد الركاب عصبياً خائفاً ، وقد يبدو الآخر هادئاً.. ولكن كليهما يفكر فى نفس الشيء.. يفكر فى أن الطائرة قد تسقط..

وهناك جدول يقسم فيه رجال الطيران ، طبيعة الركاب ، حسب جنسياتهم.. فالأمريكى كثير الأسئلة.. يريد أن يعرف كل شىء.. ويطمئن على كل شىء.. ويصمم على استدعاء كابتن الطائرة إذا رأى على جناح الطائرة نقطة زيت ، أو رأى شرارة نار تنطلق من المحرك.. والإيطالى يحاول أن يأخذ دائماً بحق التذكرة أكثر ما يستطيع.. فهو يأكل الوجبة كلها ويطلب بوجبة ثانية ، وثالثة ، إلى

أن تعتذر له المضيئة بأن الأكل انتهى.. ويشرب الشمبانيا إذا قدمت له مجاناً ويكرهها إذا قدمت له بالثمن... ويتكلم كثيراً.. تصييه أثناء الرحلة حالة كلام هستيرية.. والإنجليزى.. والسويدى.. والهندي.. و.. و..

ولكنى لا أعترف بهذا الجدول.. إنهم كلهم سواء.. كلهم يريدون أن يسألوا أسئلة كثيرة ، ولكن بعضهم يسأل ، وبعضهم لا يسأل.. وكلهم يريدون أن يستفيدوا بثمان التذكرة إلى أقصى حد.. ولكن بعضهم يخجل ، وبعضهم لا يخجل.. و.. إنهم عائلة واحدة.. أبناء السماء المعلقون فى الهواء.. عائلتى الوحيدة..

وشاهدت البلاد وأنا أجرى.. أجرى فى الشوارع.. وعندما تجرى فى بلد لا تشاهده ، ولا تحس به.. لا تشاهد إلا نفسك وأنت تجرى.. ولا تحس إلا بأنفاسك اللاهثة.. وتعبت..

تعبت من الجرى.. إن مهنة المضيئة أقسى مما كنت أتصور.. إنها ليست مهنة الجمال والرشاقة.. والزى الرسمى الأنيق ، والابتسامة الدائمة.. إنها مهنة الجرى دائماً.. مهنة عداء يطوف العالم.. والبنات اللاتي يلتحقن بالعمل كمضيفات لمجرد التظاهر بالأناقة والرقة ، يخيب أملهن.. وقد التحق معى بالعمل خمس مضيفات لم يبق منهن فى العمل بعد شهرين ، إلا اثنتان .. أنا واحدة منهما..

بقيت أجرى.. وابتسامتى أصبحت قطعة من وجهى !

و...

وأحببت وأنا أجرى..

لم أحب مليونيراً من ركاب الطائرات.. إن المليونيرات أصبحوا قلة بين الركاب ، وكلهم ثقلاء.. بل إنى لم أحب أحد الركاب.. لم أحب فى

السماء.. ولكنى أحببت على الأرض.. أرض القاهرة..
كان عادل مهندساً معمارياً.. طويلاً.. وسيماً.. ينطق وجهه
برجولة عارمة مثيرة ، فرضت نفسها علىّ ، وسلبتنى كل مقاومتى..
رأيته أول مرة ، ثم جريت لألحق بالطائرة.. وعدت بعد ثلاثة أيام
وصافحته ، ثم جريت لألحق بالطائرة.. وعدت بعد يومين ، وقبلته..
وجريت.. و.. و..

كان هذا هو حبى..

حب يجرى..

لم يكن من حقنا أن نعيش معاً فى الحب كما تعيش كل البنات
والأولاد.. ليس هناك وقت للحياة.. ليس هناك وقت لحديث طويل
متصل نقطع به الأيام والشهور.. ليس هناك وقت للمقدمات ولا
للدلال.. ولا للغيرة.. ولا للخصام.. لقد قبلته أول مرة بمجرد
إحساسى بأنى أريد قبلته.. لم أفكر فى كتم هذا الإحساس.. لم أفكر
فى أن أنتظره إلى أن أعرفه أكثر.. لم أفكر فى أن أتقل وأتدل كما
تفعل بقية البنات.. خفت أن أطيّر ، قبل أن أقبله.

وحديثنا كان بلغة التلغرافات.. كلمات سريعة متقطعة ككلمات
التلغراف.. حدثنى عن أمه بتلغراف .. وحدثته عن أمى بتلغراف ..
وحدثنى عن متاعبه بتلغراف.. وحدثته عن متاعبى بتلغراف.. دائماً
حديثاً سريعاً كأننا واقفان على المحطة يودع أحدهنا الآخر.. ودائماً
فى حالة عصبية.. كل شىء بيننا عصبى.. حتى قبلاتنا عصبية..

ورغم ذلك ، فقد كانت هذه الساعات القليلة التى أقضيها معه ،
هى كل راحتى.. كنت ألقى نفسى على صدره ، وأتنهد فى راحة
كأنى وصلت إلى آخر السباق.. ثم أفتح عيني بعد لحظات لأستعد
للجرى من جديد..

ثم..

لم تعد هذه الساعة تكفى.. بدأت أشعر بالوحدة كلما بعدت عنه..
كلما طرت.. وأشعر بالحرمان.. والضيق.. وأصبحت أكثر عصبية مع
الركاب.. وابتسامتى تكاد تقع من بين شفتى.. وأصبحت كلما هبطت
فى بلد لا أطيعه.. ولا أهدأ فيه.. وأضطر أن أكون أكثر عنفاً مع
نفسى.. وأكثر إقبالاً على السهر مع زملائى بقية طاقم الطائرة..
و...

وفى بيروت ، شاب يعمل فى المطار.. يقف كالمبهوت كلما رآنى..
ويبتسم فى بلاهة.. كان شاباً صغيراً.. جميلاً.. لا يتجاوز الثانية
والعشرين من عمره.. وأحسست عندما رأيته لأول مرة ، أنى أريد أن
أقف لأتفرج عليه ، كما أتفرج على ثوب جميل معروض فى أحد
الدكاكين.. ولكنى لم أقف.. وسعت خطاى وأنا أجرى ، واستغنيت
عن الفرجة على الثوب الجميل..

ولكنى أراه فى كل مرة أهبط فيها إلى مطار بيروت.. دائماً ينظر
إلى كالمبهوت.. ويبتسم.. واضطرت فى إحدى المرات أن أرد
ابتسامته.. ابتسمت له من كل قلبى... ابتسامته فيها كثير من الحنان
والشفقة.. كأنى أعطيه صدقة..

واضطرت فى مرة ثانية أن أرد تحيته بهزة من رأسى..
ثم أصبحت كلما رأيته ، ألقى له بكلمتين.. تلعراف.. ثم أعود إلى
الجرى..

وفى مرة طرت على خط القاهرة بومباى.. الرحلة تستغرق أربعة
أيام.. وكانت أثقل أربعة أيام فى حياتى.. وكنت أريدها فى كل لحظة
أن تنتهى.. لأعود إلى القاهرة.. إلى عادل.. وألقى رأسى على
صدره.. وأتنهد.. وأستريح.. فقط هذه اللحظة التى أستريح فيها..
وما كادت الطائرة تصل مطار القاهرة ، وأنزل منها ، وبيتى فى
يدى.. أقصد حقيبنى.. حتى تقدمت منى رئيسة المضيفات وقالت

بأسلوبها الناعم الرقيق ، وابتسامتها تشق وجهها ما بين أذنيها :
- هناء.. علشان خاطرى.. اطلعى على طائرة بيروت.. ما عنديش
حد ، كل المضيفات مشغولين.. أعمل إيه.. علشان خاطرى..
ولم أستطع أن أقول لا..
إن الرئيسة.. رئيستنا.. تعلم أنى لا أستطيع أن أقول : لا.
وظلعت على طائرة بيروت.. وروحي تطلع من حلقى.. ودموعى
متجمعة تحت أجفانى.. دموع التعب.. والوحدة.. والحرمان..
وفى مطار بيروت رأيت صلاح واقفاً ينظر إلى كالمبهوت..
ويبتسم.. وقلت له بسرعة ، ودون أن أفكر :
- عندك عربية..

وانطلقت عيناه تزغردان فوق وجهه.. ولحق بخطواتى السريعة
إلى سيارته.. وكانت المرة الأولى فى حياتى التى أقدم فيها على
مغامرة..

لا..

لم تكن مغامرة..

إنها أقل من مغامرة..

وأكثر من مغامرة..

أقل من مغامرة ، لأنى لم أكن أريد من صلاح شيئاً يمكن أن
يسمى مغامرة..

وأكثر من مغامرة.. لأنى أحببت صلاح.. أحببته فى نفس الوقت
الذى أحب فيه عادل..

وكان هناك فرق كبير بين صلاح وعادل.. وفرق كبير بين حبى
لصلاح ، وحبى لعادل..

صلاح.. كالطفل الكبير.. فيه رقة الطفولة.. وسذاجة الطفولة..
وغرور الطفولة.. وشقاوة الطفولة.. وحبى له فيه حنان كبير.. شىء

أشبهه بالأمومة.. وفيه عقل متزن.. عقل الأم.. وفيه متعة السيطرة..
سيطرة الأم على ابنها.. ومتعة الامتلاك.. وراحتي معه هي راحة الأم
وهي تضم ابنها إلى صدرها.. وأقبله.. قبلتي ليست قبلة أم.. لكنها
هادئة.. رقيقة.. حلوة.. فيها شيء من الأمومة..

وعادل شيء آخر.. إنه رجل.. فيه روعة الرجل.. وسيطرة
الرجل.. وخشونة الرجل.. وحبى له فيه كثير من الضعف.. ضعف
المرأة.. وفيه استسلام عقلى.. وقلبى.. وفيه عنف القبلة.. وقوة
الضغط..

ولم أستطع أن أستغنى عن الاثنين..

كل منهما محطة وصول ، أتهد فيها هذه التنهيدة التي تريحنى..
ووقعت فى عذاب الارتباك..
ارتباك عواطفى..

لم أكن أعرف أين أنا. هل أنا فى بيروت ، أم أنا فى القاهرة..
وأبدأ حديثاً مع عادل لأتمه مع صلاح.. ولا أكاد أقول عادل ، حتى
أجد نفسى أقول صلاح.. وأغمض عيني بين شفتى صلاح ، فأتخيل
عادل.. وأغمضهما بين شفتى عادل ، فأتخيل صلاح..

ولم أعد أدري من أخون..

هل أنا أخون عادل ؟

أم أنا أخون صلاح ؟

ولكنى خائنة.. شيء فى صدرى يؤكد لى أنى خائنة.. ولأنى لا
أريد أن أخون صلاح ، ولا أريد أن أخون عادل.. حرمت نفسى منهما
الاثنين.. لم ينلنى واحد منهما.. ولا أستطيع أن أمنح نفسى
لأحدهما.. لا أستطيع.. مجرد أنى لا أستطيع.. جسدى ينتفض كلما
تخيلت أنه لواحد منهما وليس للآخر.. وكما تخيلت أنى أخون
أحدهما مع الآخر..

وأنا فى العذاب منذ شهر..
أطير أربع مرات فى الأسبوع إلى صلاح..
وأعود أربع مرات فى الأسبوع إلى عادل..
وصلاح يريد أن يتزوجنى..
ولا أستطيع.. من أجل عادل..
وعادل يريد أن يتزوجنى..
ولا أستطيع.. من أجل صلاح..
لماذا لا أستقيل من وظيفتى..

لا أستطيع.. لأنى لا أستطيع أن أستقر فى القاهرة ، ولا أستطيع
أن أستقر فى بيروت.. وليس هناك ما يربط بين القاهرة وبيروت
سوى خطوط شركة الطيران.. وليس من حقى أن أطير إلى عادل ،
أو أعود إلى صلاح.. إلا إذا كنت مضيقة..
وأجرى.. وأجرى.. أجرى بين قلبى فى بيروت.. وقلبى فى
القاهرة..



زواج البحار

أنا ضابط فى البحرية التجارية..
هل ابتسمت ؟



لابد أنك ابتسمت.. ولا بد أن خيالك قد انطلق
منذ قرأت السطر الأول ، يرسم لك صورة شاب
يرتدى البذلة الزرقاء ذات الأشرطة الذهبية..
ودماء الصحة والقوة تكتنز فى وجنتيه..
ويضحك. ويضحك دائماً.. ويطوف بمركبه بين الموانىء.. وله فى كل
ميناء فتاة.. أو ربما زوجة.. وله فى كل يوم ليلة عريضة !
إن هذا الخيال نفسه هو الذى دفعنى إلى أن أكون بحاراً.. منذ
صباى وأنا أحلم بالبحر.. وأحلم بالبطولات.. سأصارع بمركبى
الأمواج الهائلة.. سأكتشف جزيرة الكنز.. سأرفع كأسى فى الليل ،
وأقول للقمر : فى صحتك.. وسأحتضن البنت السمراء التى سألقاها
فى جنوة.. وأقبل البنت الشقراء فى برشلونة.. وأرقص الفالس فى
لندن.. والسامبا فى ريو دى جانيرو..
وقد حققت لنفسى كل هذا الخيال.. ما عدا اكتشاف جزيرة الكنز!!
ثم فجأة.. بعد عامين من التحاقى بالبحرية.. اكتشفت أنى إنسان
تعييس.. شقى.. محروم !
محروم من الحب..
وهذا الإحساس بالحرمان ، انتهى إلى إحساس كئيب بالوحدة..
والملل.. والفراغ.. أصبحت أحس كلما وصلت إلى ميناء ، أنى وصلت
إلى حافة صحراء.. وأصبح زملائى على المركب يبدوون لى كأنى لا
أعرفهم.. وأصبحت أنظر إلى البحر كأنى أنظر إلى زوجة أكرهها..
وأصبحت أشرب الكأس لا لأضحك ، بل لأحاول البكاء..
وكنت أعرف ما أحتاج إليه..
إنى أحتاج إلى الحب..

وقد عرفت عشرات البنات.. من كل بلاد العالم.. وكان لى مع كل
منهن مغامرة.. ولم يكن لى مع واحدة منهن لحظة حب..
واكتشفت شيئاً غريباً..

اكتشفت أنى أنا نفسى ، مع شدة حاجتى إلى الحب ، أقاوم
الحب.. شىء فى نفسى يحذرنى من الحب.. ويلح علىّ ألا أحب.. فإذا
التقيت بفتاة ، وبدأ قلبى يهفو إليها.. وبدأت أشعر بهذه الخفقة
الحلوة المثيرة.. وبدأت أستريح وأهدأ بين عينيها.. سمعت صراخاً
حاداً ينطلق من نفسى.. من صدرى.. لا تحب.. لا تحب.. وإذا بهذه
الخفقة الحلوة المثيرة ، تنقلب إلى ضربات قوية عنيفة تشد
أعصابى... وإذا بنظرتى الهادئة النظيفة ، تنقلب إلى نظرة شرهة
نهمة متوحشة.. وإذا بقبلى الناعمة التى تصل بين قلبى وقلبها ،
تنقلب إلى عملية لعصر الشفاه تصل بين جسدى وجسدها..
وأقضى ليلة مغامرة..

بلا حب..

والفرق كبير بين المغامرة والحب..

إن المغامرة لقاء ..

والحب حياة..

وكان من حقى أن أمنح الفتاة لقاء ، وليس من حقى أن أمنحها حياة..
ليس لى حياة أمنحها لأحد.. حياتى فى البحر.. حياتى راقدة على
ظهر مركب.. مبعثرة بين الموانىء.. كيف أمنح فتاة حياة ، وأنا أعلم
أنى سأتركها بعد أيام.. ربما غداً.. ولن أعود إليها إلا بعد شهور..
وربما لا أعود.. لا.. ليس من حقى أن أمنح الحياة.. فقط اللقاء.. ليس
من حقى أن أمنح الحب.. فقط المغامرة!!

ومرت الأيام والشهور وأنا أحس بنفسى أنقلب إلى حيوان..
عواطفى وأحاسيسى تموت ، وتسيطر على نزواتى وبهيميتى.. ربما

كان الطريق الوحيد للهرب من هذه الوحدة ، وهذا الفراغ.. عواطفى
وأحاسيسى تموت ، وتسيطر على نزواتى وبهيميتى.. أكلاً ،
وأجساداً.. كأنى حيوان..

إلى أن قابلتها..

ولم أكن فى حاجة إلى أن أكون بحاراً لأقابلها ، بل لم أكن فى
حاجة إلى بدلتى الزرقاء والأشرطة الذهبية.. قد قابلتها فى القاهرة ،
وكنت أيامها أقضى إجازة طويلة ، ولم أعود فى أيام إجازتى أن
أرتدى بدلة البحر.. بدلة الشغل.. تعديت هذه المرحلة التى كنت
أتعاقب فيها ببدلة البحر !!

ولا أدرى ما حدث لى ساعة أن قابلتها.. إنى لم أسمع ساعتها
هذا الصوت الذى يحذرنى ، من الحب.. بل إنى نسيت ساعتها أنى
بحار فى إجازة.. نسيت أنى سأعود إلى البحر بعد شهرين.. نسيت
أنه مقدر على أن أكون حيواناً..

أحسست وأنا أطل فى عينيها ، أنى سأعيش بين هاتين العينين
طول عمرى.. لن أفارقهما لحظة.. ولن تفارقنى هذه الخفقة الحلوة
المثيرة.. ولا هذا الهدوء المريح.

وبسرعة.. تم كل شىء !

تزوجنا..

هل تسرعنا فى الزواج.. لا أظن.. لقد شعرت أنها زوجتى من أول
نظرة.. وشعرت أنى زوجها.. لم نحس بأننا نتسرع أو نتباطأ.. كل
ما أحسسنا به أنى عشت عمرى أبحث عنها ، وقضت عمرها تبحث
عنى.

وبسرعة أيضاً.. أصبح لنا بيت فى الإسكندرية.. بيت صغير
جميل ، لا يتأرجح كالمركب.. بل يقف ثابتاً قوياً يضمنا برفق
وحنان..

واستطعت أن أمد إجازتى شهراً..
والشهر انتهى..

ووقفنا ساعة الوداع نبكى.. لقد حاولنا أن نبتسم.. حاولنا كثيراً..
قلت لها نكتة ولكنها كانت سخيفة.. وقالت لى كلمة حلوة ، ولكنها
كانت مفتعلة.. لم يكن أمامنا إلا البكاء.. بكينا.. وبكينا أكثر ونحن
ننظر إلى بيتنا.. كانت أبوابه كلها قد أغلقت.. وقطع الأثاث قد غطيت
بمفارش بيضاء.. فقد اتفقنا على أن تذهب زوجتى وتقيم فى القاهرة
مع أهلها أثناء غيابتى.. وبدا بيتنا كأنه ميت.. كأن قطع الأثاث المغطاة
بالمفارش البيضاء مقابر فى قرافة المجاورين.. ثم.. إحساس غريب
داخلى.. أحسست كأن زوجتى تبكى على فراق بيتها ، أكثر مما
تبكى على فراقى.. أحسست أنها تحب البيت أكثر مما تحبى..
وأحسست كأنى أغار من هذا البيت.. وكدت أثور.. كدت أتهمها بأنها
لا تحبى ولكنها تحب البيت الذى صنعتة لها.. ولكنى كتمت ثورتى..
ووبخت نفسى على هذا الإحساس.. وقبلتها قبلتنا الأخيرة ودموعنا
تبلى شفاهنا..

وذهبت إلى البحر..

لم أعد أشعر بالوحدة.. ولا بالفراغ والملل.. إنى فى كل لحظة مع
زوجتى ، وحياتى مزدحمة بحبى ، وأحلام حبى ..
ولكنى بدأت أسأل نفسى سؤالاً غريباً..

هل تستطيع زوجتى أن تخلص لى خلال غيابتى !؟

إنى لا أشك فى حبها.. ولكن الإنسان ليس كله حباً.. إنه جسد
أيضاً.. وخواطر.. وكيان.. ورغم الحب ، فقد لا يستطيع الجسد أن
ينتظر.. وقد يمل الكيان وحدته فيبحث عن إنسان آخر يستند إليه..
وقد تضيق الخواطر بصاحبها حتى يفر منها إلى مغامرة ، أو نزوة ،
أو تسلية..

فهل تستطيع زوجتى بكل ما فيها ، أن تنتظر ؟
وهل أستطيع أنا ؟

ووصلت إلى اقتناع عجيب ، وهو أنى لو استطعت أن أنتظر إلى
أن أعود إلى زوجتى ، فإن زوجتى تستطيع أن تنتظر إلى أن أعود
إليها !
وقررت أن أنتظر..

كتمت حيوانيتى.. عزفت عن اللهو.. امتنعت عن مخالطة زملاي
ضباط المركب فى لهوهم.. وأصبحت لا أنزل من المركب ، كلما رسا
فى ميناء.. وإذا نزلت فلا أفعل أكثر من التنزه فى الحدائق ، وزيارة
المتاحف ، والطواف على المكتبات.. ثم أعود إلى المركب قبل أن يأتى
المساء !!

وسمونى على المركب.. « الملاك الطاهر » !
وبقيت ملاكاً طاهراً طوال شهرين..
وعدنا إلى الإسكندرية..

وزوجتى فى انتظارى على الميناء.. لقد رأيتها بخيالى قبل أن
أراها بعينى.. واحتضنتها بقلبى قبل أن احتضنها بذراعى..
ولن تتصور كم دللتها بعد أن عدت إليها.. وكم أعطيتها.. وكم
أعطتنى.. لقد أفرغنا شهرين فى ليلتين..
ولا تتصور عدد الهدايا التى حملتها إليها.. هدايا ثمينة غالية..
وربما لم تكن كل هذه الهدايا لأنى أحبها.. بل لأنى كنت أحاول أن
أغريها بانتظارى عندما أبحر مرة ثانية.. كنت أكافئها على انتظارها..
وأمنيتها المزيد بعد الانتظار القادم..

وتحدثنا.. لم ينقطع حديثنا.. إنها لم تكن سعيدة عندما ذهبت
لتعيش مع أهلها.. كانت تحس كأنها ملكة فى المنفى بعد أن تنازلت
عن عرشها.. وكانت أمها لا تستطيع أن تتصور أنها كبرت وأصبحت

سيدة ، فكانت تعاملها كطفلة ، فإذا احتجت اتهمتها أمها بأنها
أصبحت تحب زوجها.. تحبني.. أكثر مما تحب أهلها.. لا.. لم تكن
سعيدة.. كانت تعد الأيام لتعود إلى بيتها.. وأعود إليها !
و...

ووقفنا يودع أحدهنا الآخر مرة ثانية.. وعاودنى نفس الشعور..
الشعور بأنها تبكى فراق بيتنا أكثر مما تبكى فراقى.. وأنها تحب
بيتها أكثر مما تحبني.. ولكنى كتمت هذا الشعور.. وقبلتها قبلة
أخيرة ، والدموع تبلل شفاهنا..

ونذهبت إلى البحر..

وغبت هذه المرة ثلاثة شهور..

كتمت خلالها حيوانيتى.. قيدت جسدى.. عزفت عن كل شىء..

واحتفظت بين زملائي ضباط السفينة بلقب الملاك الطاهر..

ولكنى عانيت هذه المرة فى سبيل هذا اللقب أكثر مما عانيت فى
المرة الأولى.. كان جسدى فى حاجة إلى قيد أثقل.. وروحي فى
حاجة إلى مقاومة أعنف حتى لا تنطلق فى إحدى نزواتها..
وعدت..

عدت إلى الحب..

إلى زوجتى.. وحقائبي محملة بهدايا أكثر.. وأعصابى محملة
بشوق أكبر..

ثم أبحرت مرة ثالثة..

وكانت رحلة طويلة..

سته شهور كاملة..

وقاومت.. قاومت شهراً.. شهرين.. ثلاثة.. وفى كل يوم أزيد ثقل
القيد.. وأزيد من ضغط إرادتى على روحى.. وبدأت أشعر بالثقل..
بدأت أضيق بنفسى.. بحياتى.. الملل يهب على فى قوة.. الفراغ

يزحف علىّ.. وبدأت أتساءل : هل تستطيع زوجتى أن تبذل كل هذا
الجهد الذى أبذله..

نعم.. إنها تستطيع.. ما دمت أستطيع !!

ومر الشهر الرابع..

وفى الشهر الخامس.. رست الباخرة فى ميناء نيويورك.. ونزل
الضباط كعادتهم وفى صدر كل منهم قنبلة من أعصابه ، يطلقها فى
أول مرقص يلتقى به.. وبقيت وحدى على المركب ، أطلق قنابلى على
نفسى.. وأزفر أنفاسى فى ضيق ، وألعن.. ألعن كل شىء حولى..
وعاد أحد الضباط إلى المركب ومعه فتاتان دعاهما إلى تناول قده
من الشاي.. لم تكن الفتاتان راقصتين.. كان يبدو عليهما أنهما من
عاملات المحلات.. إحداهما شقراء.. مثيرة.. تمشى كأنها فى كل
خطوة تناديك.. وتبتسم كأن بين شفيتها بطاقة دعوة لزيارة
أسنانها..

ولا أدرى ماذا حدث لى..

نسيت كل شىء فى لحظة..

وأقبلت على الفتاة ، وقنبلتى.. قنبلة أعصابى فى يدي !

وكانت مغامرة..

مغامرة عنيفة مثيرة.. احترقت بها واحترقت الفتاة معى.. جسد

ذاب فى جسد !

وأفقت..

أفقت والمركب تبحر بى فى طريق العودة !

إنى لم أحتمل المقاومة.. مقاومة جسدى ووحدتى..

هل احتملت زوجتى ؟

لا أظن..

وبدأت أتذكر أشياء لم أكن أتذكرها..

تذكرت أن زوجتى لا تعيش سعيدة مع أهلها فى غيبتى.. وما
دامت ليست سعيدة معهم ، فلا بد أن تبحث عن السعادة بطريقة
أخرى..

وتذكرت أن زوجتى تحب بيتنا أكثر مما تحبنى.. وما دام بيتنا
مغلقة ، فالحب أيضاً مغلقة.. تذكرت أشياء كثيرة سخيفة..
وتعذبت..

تعذبت بخيالى وأنا أرى فيه زوجتى مع رجل آخر.. عيناها فى
عينيه.. شفتاها فى شفتيه.. جسدها لجسده..
ولم أستطع أن أتخلص من هذا الخيال..
لم أستطع أن أقنع نفسى بأن زوجتى استطاعت أن تنتظرنى !
أنا لم أستطع رغم كل الجهد الذى بذلته..
فكيف تستطيع هى ؟..
ووصلنا إلى الإسكندرية..
وزوجتى فى انتظارى على الميناء..

ونزلت من المركب فى خطوات بطيئة مترددة.. ونظرت إلى
وجهها.. وخيل إلى أنها ليست جميلة.. وأن الأصباغ ثقيلة فوق
وجهها.. ورأيت فى عينيها مغامرة.. نفس المغامرة التى جربتها فى
نيويورك ، مع الفتاة الشقراء.. ترى هل كان رجلها أشقر أيضاً!
وصدت ذراعيها الممدودتين إلى ، وهمست فى صوت مخنوق :
- أنت طالق..
وابتعدت..



أنا بحار..
حياتى وحدة.. وملل.. وفراغ..



بلا شخصیه

أنا الأخت الكبيرة... وأنا ضعيفة.. أنا لا

شيء..

وأختي الصغيرة.. قوية.. إنها كل شيء !
ولا أدري كيف حدث هذا.. كيف أصبحت أنا
لا شيء ، وأصبحت هي كل شيء.. ولكنى منذ
وعيت وأنا أراها تستأثر باهتمام والدي ،



وتدليلهما ، وسخائهما.. كان والداي يدللاني أيضاً ، ولكنى كنت
أشعر وهما يدللاني كأنهما تذكرن شيئاً نسياناً ، أو كأنهما
يجاملاني حتى لا أغار من أختي.. وعندما كان الضيوف يزوروننا
كانت أختي أيضاً هي التي تستأثر بكل اهتمامهم.. بكل عيونهم.. بكل
ضحكاتهم.. كانت تعرف كيف تتحدث إليهم... وكيف تلفت أنظارهم..
وأنا منزوية في ركن أتابع أختي صامتة.. في إعجاب !

لقد كنت معجبة بها فعلاً وكنت أحبها.. وكانت أجمل مني ،
ولكنى لم أكن أشعر بجمالها ، بقدر ما أشعر بذكائها ، وبهذه الحياة
النشطة التي تبعثها حولها.. وربما لم أكن مخلصه في إعجابي وحبى
لها.. ربما كان ضعفى وعجزى أمامها ، دفعانى إلى الاستسلام لها..
ثم أصبحت أعتقد أن هذا الاستسلام هو إعجاب وحب..

وقد استسلمت لها استسلاماً تاماً.. كانت هي التي تحدد
خطواتى.. هي التي تحدد برنامجى اليومى.. هي التي تشغل وقتى..
بل هي التي تحدد عواطفى.. أكره ما تريدنى أن أكرهه ، وأحب ما
تريدنى أن أحبه.. وكانت قادرة دائماً على أن تملى إرادتها على..
وفى المرات القليلة التي كنت أعارضها فيها كانت تستطيع أن
تعاقبنى.. كانت تستطيع أن تسلط على أبى وأمى.. بل أحياناً يكون
عقابها مجرد مخاصمتى.. لا تتحدث إلى ولا تشركنى فى لعبها ،
فأشعر أنى تائهة ، ضائعة ، بائسة.. وأكثر من ذلك..

لقد استطاعت أختي الصغيرة أن تسيطر على أبى وأمى أيضاً..
كانت لها طريقة خاصة فى التسلل إلى عواطفهما وإقناعهما بما

تريد.. ومع الأيام تعود أبى وأمى أن يستسلما لها - هما أيضاً ! -
ويتركاها تتحكم فيهما وفى البيت ، دون أن يشعرا بهذا الاستسلام
من ناحيتهما ، ولا بهذا التحكم من ناحيتها..

وكبرت وأنا ضعيفة..

ضعيفة الشخصية..

ولم يكن ضعفى تجاه أختى وحدها ، بل أصبح تجاه كل الناس.
كان يكفى أن أشعر باهتمام إنسان ، حتى أستسلم له.. أستسلم
لرأيه ، وأستسلم لما يريد منى..

واهتم ابن خالتى بى ، وأنا فى السابعة عشرة من عمري..

فاستسلمت له..

ثم كف ابن خالتى عن الاهتمام بى..

ولم أدر ماذا أصنع بمصيبتى.. والواقع أنى أيامها لم أشعر بأن
ما حدث لى يعتبر مصيبة.. لقد كنت من العجز والضعف - ضعف
الشخصية - بحيث لا أستطيع أن أقدر ما يجرى لى ، أو أحسب
حساباً لمستقبلى.. كان كل شىء يحدث لى بسيطاً تافهاً.. أو كنت
أقنع نفسى بأنه بسيط تافه ، حتى أبرز عجزى وضعفى..
ثم..

وفد إلى الحى جيران جدد.. عائلة ، تضم شقيقين.. وفى أيام
استطاعت أختى أن تستأثر بالأخ الأكبر.. أحبته ، وأصبحت تخرج
معه.. ثم أخذتني معها وقدمتني إلى الأخ الأصغر..

وأصبحنا نخرج نحن الأربعة معاً..

وكانت هذه هى أجمل أيام حياتى..

لقد أحببت الأخ الأصغر.. أحببته من خلال شخصية أختى
وسيطرتها على.. ثم بدأت أشعر بأنى أحبه بشخصيتى أنا..
وأحبني.. أحبني فعلاً.. أحبني وهو يشعر بضعف شخصيتى ،
وسيطرة أختى على.. بل وهو يعرف أيام التى كان ابن خالتى يهتم
بى خلالها..

وبدأت أشعر وأنا بجانبه بقوة جديدة فى.. كنت وأنا معه أستطيع أن أناقش أختى.. وكانت تتكون لى آراء خاصة... ومطالب خاصة.. كنت أشعر أنى أريد أن أذهب إلى السينما مثلاً.. أو أكل جيلاتى.. وكانت ، حتى هذه المطالب الصغيرة ، لا تخطر لى من قبل ، إنما كنت دائماً أنتظر ما تريده أختى..

وسارت الأيام ناعمة.. لم يحدث فيها ما يشعرنى بحاجتى إلى مقاومة أختى.. كانت هى التى تدبر لقاءنا.. هى التى تحدد المكان والساعة.. وهى التى تختار لى الثوب الذى ألبسه.. وهى التى تدير الحديث عندما نجلس نحن الأربعة.. ولكنى لم أكن أشعر بسيطرتها.. كل ما كنت أشعر به هو حبيبى.. ثم..

تشاجرت أختى مع الأخ الأكبر.. وهجرته وهى تكرهه.. تكرهه بقسوة وعنف.. ولم تكتف بأن تكرهه ، بل كرهت معه الأخ الأصغر.. كرهت حبيبى.. وبدأت تحاول أن تجعلنى أكرهه معها.. أن أهجره كما هجرت هى الأخ الأكبر.. ولكنى أحبه.. وهو يحبنى..

وبدأت أحاول أن أقاوم أختى.. أن أتخلص من سيطرتها.. وكانت هذه هى الأيام التى بدأت أشعر فيها بضعف شخصيتى.. بعجزى.. كنت أحتار كيف أتصل به دون معاونة أختى.. وكيف أترك له الفرصة ليتصل بى.. وكنت أحتار كيف أجد حجة أقدمها لأمى لتسمح لى بالخروج للقاءه.. و.. وكنت أحتار كيف أخفى عن أختى أنى ذاهبة للقاءه.

ولم أكن أستطيع أن أخفى عنها شيئاً.. كان يكفى أن تنظر فى عيني لتعرف كل شىء.. وتعرف أنى ذاهبة للقاءه.. فتحول بينى وبين الخروج من البيت.. تفعل كل شىء حتى لا أذهب إليه..

وأنا ضعيفة عاجزة..
وكلما بعدت عن حبيبي ازددت ضعفاً وعجزاً..
وأنا أخاف من ضعفى.. أخاف أن أتعرض لشاب آخر يمنحنى
بعض الاهتمام فأستسلم له..
وحبيبي أيضاً يخاف على من ضعفى.. إنه يعلم أنه قوتى.. وأنه
شخصيتى.. فإذا ابتعد عنى ، ابتعدت قوتى ، وابتعدت شخصيتى..
وذبت..

ثم...

كانت الوسيلة الوحيدة للتخلص من سيطرة أختى ، هى أن يتقدم
ويطلب أن يتزوجنى..

وتقدم..

أتدرى ماذا حدث؟

رفضت أختى أن أتزوجه..

ورفض معها أبى وأمى..

قالت عنه كل ما ينفر منه.. إنه من عائلة أقل من عائلتنا.. وهو
فقير.. ولا يحمل شهادة عالية.. و... و..

ولم ييأس حبيبي..

ظل يلح..

وظل يوسط كل أصدقاء أبى ، وكل صديقات أمى..

ولكن أبى وأمى يصران على الرفض ، وأختى الصغيرة من
ورائهما.. وحرمونى منه.. ضيقوا على الخناق.. وأنا ضعيفة ،
عاجزة.. ولكنى أحس بأبخرة تتصاعد فى صدرى كأنها تدفعنى إلى
الانفجار.

نعم.. كل ما أحتاج إليه هو الانفجار..

يا رب.. امنحنى القوة لأنفجر.. دع الحب يفجرنى..

ولكنى لا أستطيع أن أنفجر.. إنى ضعيفة.. ضعيفة.. وابن خالتى
سيأتى غداً.. إنى أعلم ما سيحدث لى عندما يأتى..

وقمت من فراشى فى منتصف الليل ، ودموعى على خدى ،
وأيقظت أختى ، وقلت لها فى توسل :
- أرجوكى.. ساعدينى !!
وقالت فى برود :
- لا... مش حانتجوزيه ، يعنى مش حانتجوزيه !!
وانقلبت على جنبها.. ونامت..
ووقفت فى ظلام الحجرة تائهة.. ولم أشعر بالانفجار.. ولكنى
شعرت بنفسى ارتدى ثوبى.. ثم أخطو خطوات هادئة ، وأخرج من
البيت.. لم أكن أشعر بأنى قوية.. ولكنى كنت أشعر بقوة أخرى
تدفعنى.. وسرت.. وسرت.. لا أدرى ماذا كان يمكن أن يحدث لى لو
صادفنى أحد فى الطريق ولكنى سرت.. ووجدت نفسى أمام بيت
حبيبي أطرق بابه..
وفتح لى الباب..
وهنا فقط شعرت بالشيء الجديد.. شعرت بالقوة.. قوتى أنا.. أنا
التي خرجت من البيت.. وأنا التي جئت إلى هنا.. وأنا التي قاومت
ابن خالتي.. أنا.. والحب !
وتزوجنى حبيبي فى اليوم التالى..
تزوجنا دون أن نلجأ إلى أبى وأمى وأختى..
أتعلم..
إن أختى تقيم معى الآن..
إنها أختى الصغرى..
وأنا أبحث لها عن زوج..
و....
هل تصلح قصتى.. قصة !؟



كيف ننسى

موظفة فى إحدى الشركات..
عرفتها وهى تعيش فى قصة حب.. حب
كبير..



ثم عرفتها وقد صدمت فى حبها..
وعاشت بعد الصدمة ترفض الزواج.. لم
تكن تريد أن تتزوج وقلبها وعقلها لا يزالان
وراء رجل آخر.. ولم تكن تستطيع أن تدع رجلاً يلمسها ، ولمسات
الأخر فوق جسدها ، ولا أن يقبلها وقبلات الآخر لا تزال فوق
شفتيها.. ولم تكن تريد أن تدخل بيتاً تتزوج فيه إلا وقلبها وعقلها
معها ، وروحها خالصة لرجل البيت.. للرجل الجديد..
كانت مخلصه فى إيمانها.. لا تريد أن تخدع أحداً.. ولا تريد أن
تبني بيتاً من الخداع.. والزواج فى نظرها ليس أن تعيش مع رجل..
وبيت الزوجية ليس سريراً تنام فيه.. إن الزواج أكبر من ذلك.. إنه
امتزاج قلبين ، وعقلين ، وروحين.. فإذا تعذر الحب فى بداية الزواج ،
فعلى الأقل يجب أن يبدأ الزواج وقلبها مستعد لتلقى الحب.. حب
جديد !

وعاشت تحاول أن تنسى صدمتها. أن تغسل عن قلبها بصمات
حبها الفاشل ، وأن تمسح عن شفتيها طعم قبلات الرجل الذى ذهب..
ولكن جرحها كان عميقاً.. لا يندمل..

ومر عام.. وهى تعيش صامته وحلقها مزدحم بالآهات.. وترفض
الزواج.. تقدم إليها كثيرون.. كلهم شبان ناجحون.. ولكن ، لا..
أسفة.. لو تزوجت واحداً منكم ، فسأخونه.. لن أخونه بجسدى ،
ولكنى سأخونه بروحى ، وقلبى ، وخيالى.. إن الخيانة النفسية
أبشع وأقسى من خيانة الحب.. إنها جحيم سأعيش فيه ، ويعيش

فيه من يتزوجنى..

ثم..

فجأة قبلت الزواج..

تزوجت فعلاً ، زميلاً لها فى الشركة..

ولم يكن من تزوجته خير من تقدم لها.. ولم تحبه.. ولكنه فقط كان مصدوماً مثلها.. ووعرفته وهو يشكو لها حباً فاشلاً.. كحبها.. ورأت فى عينيه هذا الانكسار الذى تراه فى عينها.. وسمعت فى صوته هذه الآهات التى يزدحم بها قلبها.. وأحست باستسلامه للعذاب ، كاستسلامها..

إنه هو أيضاً أحب فتاة ولم يستطع أن يتزوجها..

وشعرت بالراحة وهو يشكو لها..

شعرت كأنها تنسى مصيبتها ، وهى تعيش فى مصيبتها.. وشعرت نحوه بنفس الرثاء الذى ترثى به نفسها.. نفس الشفقة التى تشفق بها على نفسها.. نفس الحنان الذى يخلع قلبها كلما تذكرت حالها..

ولم يكن يعلم بمصيبتها كما تعلم بمصيبتها.. لم يكن يعتقد أنها هى الأخرى مصدومة فى حب..

كان يشكو لها ، ولا تستطيع أن تشكو له..

كانت تواسيه ، ولا تستطيع أن تطلب منه أن يواسيها..

ورغم ذلك اعتقد أنها تستطيع أن تتزوجه.. وأنها إذا تزوجته ستداوى جرحه ، فإذا داوت جرحه شفيت من جرحها.. اعتقدت أن صدمته ستخفف من صدمتها. وأن حنانها عليه يمكن أن يطهر قلبها من الحب القديم ، ويفتح بابه لحب جديد..

وهو أيضاً اعتقد أنه يستطيع أن ينسى بها حبه ، ويداوى بها قلبه..

وتزوجا..

ولكن..

ولكن الزواج أشعل الذكريات القديمة فى قلب كل منهما...
إنه يرى الأخرى دائماً كلما رآها.. يرى الأخرى واقفة أمام
البوتجاز فى المطبخ.. ويرى الأخرى فى حجرة النوم.. ويرى
الأخرى ترتق جواربه.. ويقبلها فيتذكر قبلاته الأخرى..
وهى أيضاً.. إنها ترى الآخر دائماً.. تراه وهى تسمع صوت
المفتاح يدور فى قفل الباب عند عودته من عمله.. وتراه وهو يقرأ
الجريدة.. وتراه وهو فى البيجاما.. وتراه كلما هم زوجها بتقبيلها..
وتحس بشفتيها تنتفضان عندما تكتشف أن هذه القبلة ليست قبلة
الآخر.. طعم غريب على شفتيها لا تستطيعان احتمالاه..
ولكن..

الفرق بينها وبينه.. أنه صاحب حق فى أن يشكو... من حقه دائماً
أن يتحدث عن الأخرى.. عندما يراها فى ثوب جديد ، يتنهد قائلاً :
لقد كانت الأخرى تحب اللون الأزرق.. عندما يذهب إلى السينما
ويشاهد فيلماً يصور مأساة حب يتنهد قائلاً : إنها مأساتي؟؟
و.. و.. و...

ولم تكن تستطيع أن تعترض على شكواه ، فهى تعرف مصيبيته ،
وكانت تشجعه على الشكوى قبل الزواج..

ولم تكن شكواه تضايقها... ولكن الذى بدأ يضايقها أنها لا
تستطيع أن تشكو مثله.. إنها تريد أن تحدثه عن الآخر ، كما يحدثها
عن الأخرى.. تريد أن تفرج عن صدمتها كما يحدثها عن صدمته..

تريد أن تجلس معه حول المدفأة فى لياالى الشتاء ، وتتركه يبكى ،
ويتركها تبكى.. كل منهما يبكى حبه القديم.. ولكنها لا تستطيع..
وصدرها يضيق.. وأنفاسها تختنق..
وأعصابها تحترق..
وشىء آخر عرفته..

عرفت أن الرجل المصدوم هو دائماً رجل قاس.. أن الصدمة تفقده
ثقتة بنفسه ، فينقلب إلى رجل غيور ، يملأ الشك الأسود نفسه ،
وتنقلب غيرته وشكوكه ، إلى قسوة.. قسوة جارحة.. إن عينيه
تجرحانها كلما فاجأها تتحدث فى التليفون.. وعيناها تجرحانها كلما
استأذنت منه لتذهب إلى الحلاق.. ثم لم يعد يستعمل عينيه فقط
للتعبير عن قسوته.. بدأ يستعمل لسانه.. لسانه ينطلق بكلام جارح
يشق قلبها المجروح..

ولم تستطع أن تحبه..

ولم تحس بالراحة - راحة القلب - التى كانت تنشدها معه..
وطلبت الطلاق..

وجاءت تسألنى.. وقلت لها وأنا أشفق عليها :

- لقد أخطأت.. ويجب أن تحتلمى خطأك..

قالت :

- لم أعد أستطيع أن أحتمل..

قلت :

- حاولى.. إنه لن يحتمل صدمة أخرى..

قالت :

- إنه لا يحبنى ، فلن يصددم...

قلت :

- إن الصدمة الجديدة لن تصيب قلبه ، ولكنها ستصيب كرامته..

ثقتة بنفسه..

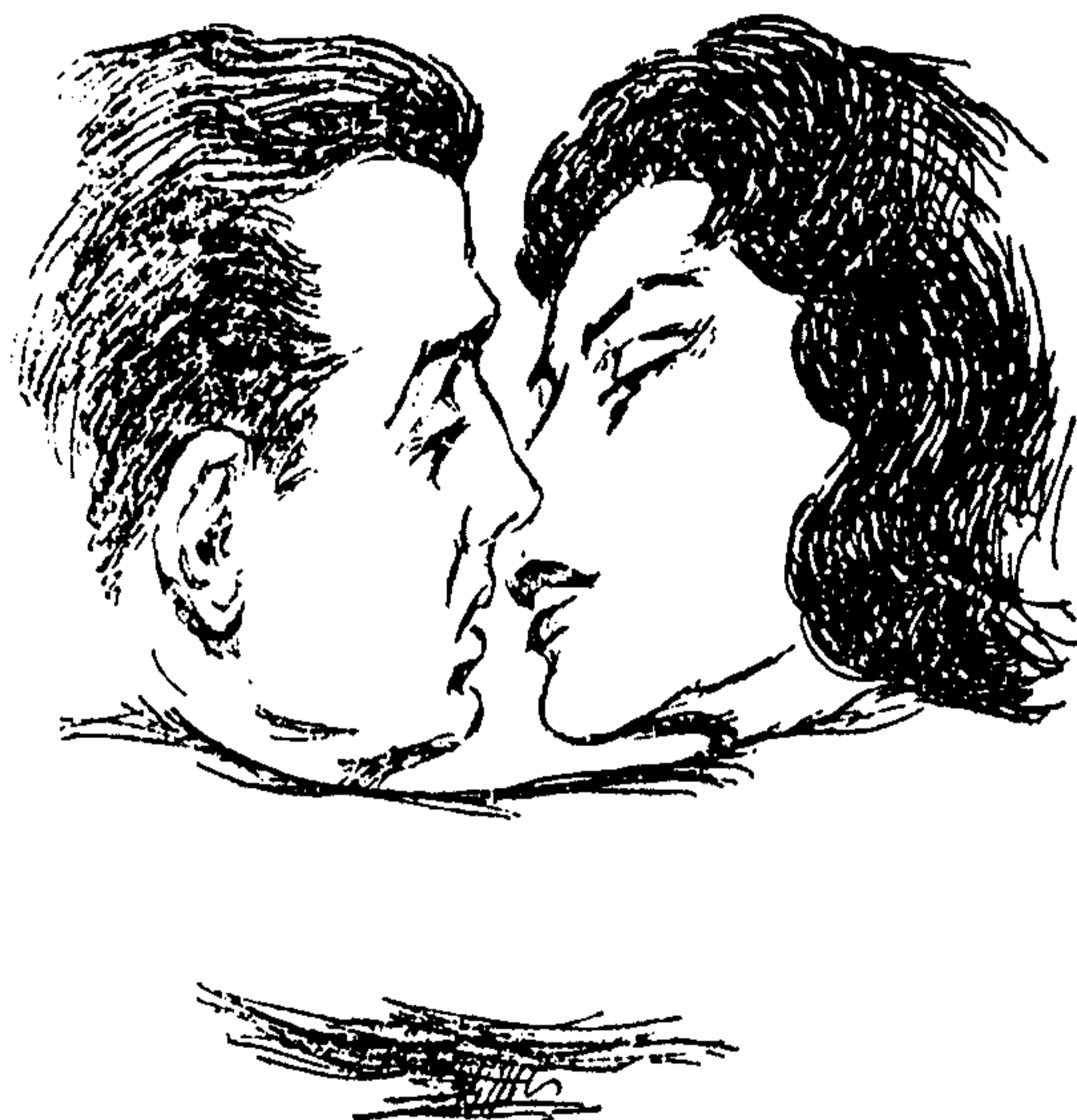
قالت :

- سأحاول..

وحاولت..

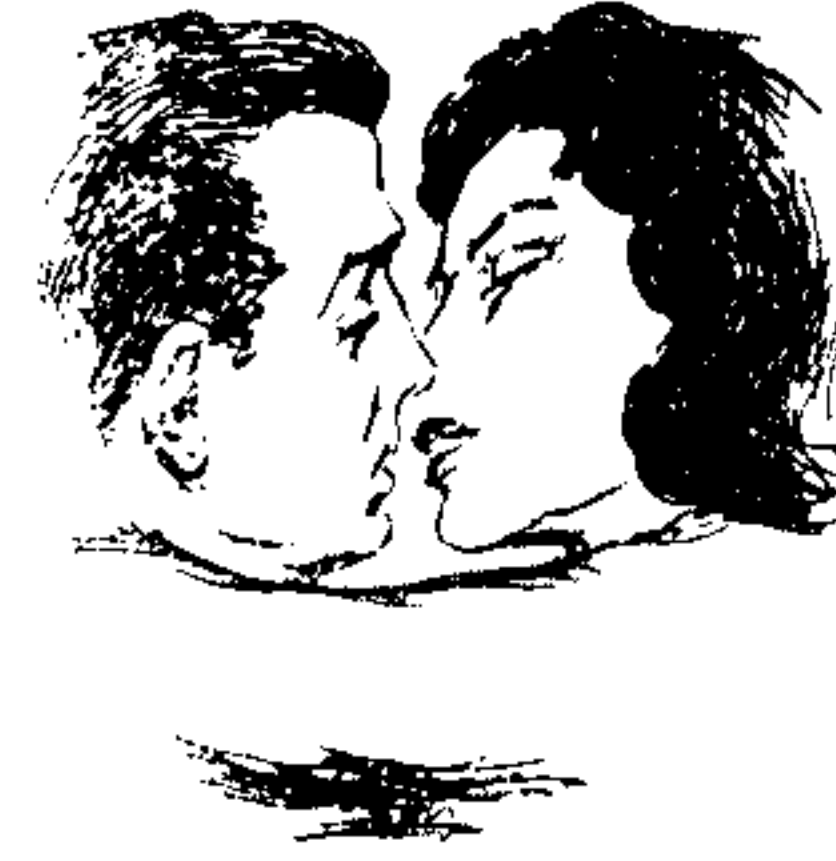
وفشلت..

وطلقت..



الحب والتجربة

الحب لا يعيش فى الظلام.. إنه يسعى دائماً
إلى النور ، إلى الحرية ، إلى الاعتراف بكيانه..
الحب كالإنسان يريد أن يسير فى الشارع ،
ويتفرج على الدكاكين ، ويضحك بصوت عال..
إنه لا يطيق الاختباء طويلاً ، ولا يطيق أن يظل
طول عمره يتكلم فى همس..



ولكن الحب عندما يحاول أن يخرج إلى النور يصطدم بالمجتمع..
والمجتمع ديكتاتور لا يرحم ، يفرض قيوداً ونظماً دون أن يسمح
بمناقشتها.. المجتمع يفرض على الإنسان عندما يسير فى الشارع أن
يرتدى ثياباً.. ومجتمع القاهرة يفرض ثياباً تخالف الثياب التى
يفرضها مجتمع الإسكندرية.. ففى الإسكندرية تستطيع أن تخرج
إلى الشارع فى مايوه ، ولكن فى القاهرة يجب أن ترتدى بدلة
كاملة.. لماذا لا يسمح لى مجتمع القاهرة بأن ارتدى المايوه فى
الحديقة ، كما يسمح لى مجتمع الإسكندرية بأن ارتدى المايوه على
شاطئ البحر.. لا.. ممنوع.. حتى لو كانت سعادتك متوقفة على
ارتداء المايوه.. إن سعادتك لا تهتم بالمجتمع.. كل ما يهمله هو أن
تخضع له.. أن تصير واحداً من القطيع الكبير.. خروفاً بين
الخرفان.. وكذلك الحب.. فالمجتمع يفرض على الحب ثوباً خاصاً
يخرج به إلى الشارع.. ثوباً يسمى الزواج.. ولا يهم إذا كان الزواج
يسعدك أو يشقك.. المهم أن تتزوج ما دمت تريد أن تخرج إلى
المجتمع وفى ذراعك امرأة.. والمجتمع يبتسم فى وجوه ملايين
الأزواج الأشقياء المنافقين الآثمين ، ويرحب بهم.. ثم يكشر فى وجه
ملايين الأحبة السعداء الأطهار المخلصين.. لماذا يا مجتمع.. لا
منطق.. لا سبب.. فقط ، أوامر السلطان.. أوامر الديكتاتور..
وهذه حكاية سيدة حائرة بين الحب والمجتمع..

تزوجت وهى فى التاسعة عشرة.. ودامت خطبتها قبل الزواج عامين كاملين.. كان زوجها خلالها رقيقاً ، مهذباً.. كلامه حلوا. آراؤه متزنة. يكاد يحملها من فوق الأرض بابتسامته.. وربما لم تكن تحبه ، ولكنها أحبت الزواج منه.. أحبت أن تعيش معه..

ومضت أيام بعد الزواج... ثم بدأت تكتشف فى زوجها رجلاً آخر.. إنه لم يعد يكلف نفسه مجهوداً فى الاهتمام بها.. لم يعد يحرص على أن يكون رقيقاً مهذباً.. بل لم يعد يحرص على أن يجعلها تحبه.. أصبح ينظر إليها كشئ يملكه ومن حقه أن يهمله.. أن يلقيه فى زاوية حياته.. وعندما يطالبها بشئ لا يطالبها باسم الحب ، ولا باسم التعاون ، ولا باسم الصداقة.. إنما باسم الحق الشرعى.. الحق المسجل فى عقد مكتوب.. عقد الزواج..

وكافحت طويلاً لتقنعه بأن يعاملها كشخصية كاملة.. كإنسانة حرة من حقها أن تعطى ومن حقها أن تمتنع عن العطاء.. ولكن لا.. إنها ليست إنسانة كاملة.. ليست حرة.. إنها زوجة.. وتعددت الأزمات بينهما.. وأصبحت الحياة ثقيلة ، مملة ، تعسة... الهروب منها ، أهون من البقاء فيها..

وهربت..

هربت بعد خمس سنوات وفى يدها ابنتها الصغيرة.. ولم تهرب من الرجل وحده ، بل هربت من الزواج نفسه.. من هذا النظام الذى يحيل الرجل إلى مالك ، ويحيل المرأة إلى شئ مملوك..

وقضت سنوات وهى وحيدة مع ابنتها.. بلا رجل... إلى أن التقت بالحب..

أحبت بكل أعوامها الثلاثين.. وسعدت بالحب.. إن حبيبها رقيق مهذب.. يحترمها.. ويحترم كيانها.. يحترم حرمتها.. حتى عندما

يختلفان ويتشاجران يحترما ، ويحرص عليها وعلى حبها فى
خلافه وشجاره.. لأنه يعلم أنها حرة !!

وحاولت أن تبقى حبها فى الظلام ، لا يدري به أحد.. اللقاء خفية،
والحديث همس.. ولكنها لم تستطع.. إن حبها يريد أن يخرج إلى
الشارع.

تريد أن تضع يدها فى يد حبيبها وتتفرج معه على الدكاكين..
تريد أن تجلس معه على شاطئ النيل.. وترقص معه فى شبرد..
والحب يريد أن يرى النور.. أن يتكلم بصوت عال..
وخرجت إلى النور..

وضعت يدها فى يد حبيبها وواجهت المجتمع..
وكشر المجتمع عن أنيابه.. بدأ ينهش بالسنته فى لحمها.. رفض
أن يستقبلها ويفسح لهما مكاناً فى الزحام.. لا يهم.. إنها تستطيع أن
تستغنى بحبيبها عن المجتمع.. عن كل الناس.
ولكن حبيبها لم يحتمل.. وعرض عليها الزواج ، حتى يرضى
المجتمع ويسكت السنة الناس..
لا..

قالت : لا..

وقال عنها الناس إنها مجنونة.. ليست هناك امرأة ترفض الزواج
من حبيبها.. وتكتفى أن تعيش معه فى الحب..

ولكنها لم تكن مجنونة.. إنها مقتنعة بمنطقها... إنها تخاف على
حبها من الزواج.. تخاف أن تفقد كيانها.. وحريتها فتفقد معها
حبيبها.. وهى تحرص عليه حبيباً أكثر مما تريده زوجاً.. تحرص
عليه رقيقاً مهذباً يحيطها باهتمامه ، ويشتاق إليها.. ويتلف عليها..
ثم ما حاجتها إلى الزواج.. لا شىء ينقصها.. ولا تريد شيئاً
أكثر.. وهى لا تؤذى بحبها أحداً ، فلماذا يتأذى الناس.. ما شأن

الناس بها وبحياتها.. ما دامت لا ترتكب إثماً.. ما دامت مخلصه فى حبها.. مخلصه لرجل واحد.. وليس كل الزوجات لهن رجل واحد!.. ورفضت أن تتزوج..

دعونا أيها الناس.. لا تفسدوا حبي.. لا تسدوا هنائى.. وإذا اعتبرتم حبي حراماً ، فهذه الورقة التى يكتبها المأذون لن تجعله حلالاً.. إنها ورقة.. مجرد ورقة... والحلال والحرام ليسا مجرد سطور تكتب على ورق..

دعونا.. إنكم تحسدوننى.. إنكم تغارون منى.. تكرهون لى أن أحب.. وترضون لى الزواج حتى لو شقيت.. وأصرت على الرفض..

وربما كان لرفضها سبب آخر.. ربما خافت إن تزوجت أن يأخذ زوجها السابق ابنتها منها.. وهذا أيضاً حكم من أحكام المجتمع.. حكم بلا عقل.. المجتمع يفرض على المرأة أن تتزوج الرجل الذى تحبه.. فإذا تزوجته أخذ منها ابنتها ، وإذا لم تتزوجه أخذ منها حبيبها.. لا.. لن أخضع للمجتمع.. لن أستسلم لهذه القسوة.. الظلم.. الأنانية..

وعادت تعيش مع حبيبها..

بلا زواج..

ويئس المجتمع منها..

وعندما يئس منها استدار إلى ابنتها ، وسلط أسننته على أذنيها الصغيرتين.. إن أمك تحب رجلاً.. بلا زواج.. هل تعلمين معنى الحب بلا زواج.. إنه حرام.. وستدخل أمك النار.. و... وبكت الصغيرة..

وقرأت الأم دموع ابنتها.. ورأت فى عينيها البريئتين حكم المجتمع الظالم.. حكم بلا منطق.. وبلا حيثيات..

ماذا تفعل..
إذا تزوجت.. فستفقد حبيبها ، وتفقد ابنتها..
وإذا لم تتزوج فسيطارده المجتمع ابنتها حتى يمزق نفسيتها.
ولم تفعل شيئاً..
كل ما فعلته أن عادت بحبها إلى الظلام.. عادت إلى الاختباء
والهمس..
ولكن إلى متى؟!
إن الحب لا يطيق الاختباء طويلاً.. والحب يريد أن يتكلم بصوت
عال..



قبل الطلاق



تزوجت « قمر » ..
ولم تكن قمر هي التي أنوى أن أتزوجها..
كنت أنوى الزواج من صديقتها زبيدة.. ثم لا
أدرى ماذا حدث.. لقد وجدت نفسي أسيرا
لقمر.. ووجدت نفسي بعيداً عن زبيدة..
أحببت قمر..

وأنا رجل طيب.. قلبى على كفى.. أحب بسهولة.. والحب عندي
ليس إلا طريقاً للزواج.. للبيت العائلى السعيد..
وتزوجت قمر..

خاصمت أهلى كلهم ، كى أتزوجها..
وصنعنا بيتاً سعيداً.. لا يمكنك أن تتصور مدى السعادة التي
عشت فيها بعد الزواج.. أصبحت كل دنياى هي بيتى.. بيت قمر..
وكل يوم أضيفه إلى رصيد سعادتى. كل يوم هو شاهد جديد على
حب قمر لى ، وعلى تفانيها فى إسعادى..
ومر عام.. وأنجبنا طفلاً.. وارتفع الرصيد... رصيد السعادة.. لم
يعد ينقصنى شىء فى الحياة.. وكانت سعادتى قوة.. إنى فى كل
يوم أزداد قوة.. قوة فى شخصيتى.. وقوة فى عملى.. لقد أصبحت
مديراً للشركة التي أعمل بها..
وفى يوم..

كنت جالساً فى مكتبى ، وجاء إلى شخص لا أعرفه.. كان يبدو
منزعجاً.. وقال لى إنه جارى.. يسكن فى نفس الشارع.. وأن
زوجتى أصيبت بإغماء وهي سائرة فى الطريق أمام بيته ، فنقلها
إلى داخل البيت ، وهي الآن راقدة ومعها أخته.. وقد جاء ليبلغنى ،
ويطلب منى أن أذهب معه..

مرت بى لحظة كدت أختنق فيها هلعا على زوجتى..

وانزعجت..

وهرولت إلى سيارتي.. وركب بجانبى.. وأنا لا أكاد أرى الطريق
أمامى.. وهو يردد :

- لا تنزعج.. المسألة بسيطة..

ولاحظت أنه يوجهنى إلى طريق بعيد عن بيتنا وبيته.. حود
يمين.. شمال.. ووجدت نفسى أتجه إلى الدقى لا إلى الزمالك حيث
أقيم.. ولكنى فى نوبة الهلع التى كنت أعانيها ، لم أهتم كثيراً
باتجاهى..

ثم أمرنى بالوقوف أمام باب البيت... وقبل أن ننزل من السيارة ،
أمسك بيدي وقال فى صوت خطير :

- إنك فى حاجة الآن إلى كل أعصابك.. إن زوجتك فى هذا البيت،
تخونك مع ابن عمها..

وذهلت..

لا أدرى بالضبط ماذا أحسست ساعتها.. ربما هرب منى كل
إحساسى..

وانقذت وراءه.. ووقفنا أمام باب شقته ، وأخذ يضغط الجرس..
ومرت فترة طويلة وهو لا يزال يضغط الجرس..
وفتح الباب..

وأطل منه وجه ابن عم زوجتى ، ورائحة الجريمة تفوح من
أعطافه..

وما كاد يرانى ، حتى أخرج من جيبه مسدساً شهره فى
وجهينا... وقال فى غطرسة :

- ماذا تريد ؟

قلت :

- أين زوجتى ؟..

قال فى وقاحة :

- زوجتك معى.. وهى فى حمايتى إلى أن تصل إلى بيتها.

ثم أدار رأسه فى داخل الشقة ، وصاح :

- البسى يا قمر..

- وكدت أجن.. ولكن جنونى تسمر أمام فوهة المسدس.. ولم أدر

ماذا أفعل.. ماذا أقول.

وأشار المجرم إلينا - أنا والرجل الذى جاء بى - وقال :

- ادخلوا..

ودخلنا وفوهة المسدس تتبعنا..

وأجلسنا فى غرفة ، وأغلق بابها علينا.. وسمعت.. سمعت كل

شئ.. سمعت همساتهما.. وسمعت وقع خطواتهما.. وسمعتهما

وهما ينصرفان ويغلقان باب الشقة وراءهما..

ماذا أفعل ؟

هل أقتلها ؟..

هل أبلغ البوليس ؟

هل أطلقها ؟

وبعد ساعة.. جاء صديق لابن العم وفتح علينا الباب ، وسمح لنا

بالانصراف..

وهرعت إلى بيتى ، وأنا لا زلت أتساءل :

هل أقتلها ؟..

هل أبلغ البوليس ؟

هل أطلقها ؟

ووجدتها فى البيت.. وواجهتها.. ولم تنكر.. ولكنها قالت إن ابن

عمها جاء إليها وأقنعها أن أخته مريضة وأنها نقلت إلى المستشفى ،

وطلب منها أن تذهب معه إليها.. ثم أخذها إلى هذه الشقة وحاول اغتصابها..

وكلامها غير معقول..

لو كانت صادقة ، لاستغاثت عندما سمعت صوتى داخل وكر الجريمة..

ورغم ذلك.. ماذا أفعل ؟

هل أقتلها ؟..

هل أبلغ البوليس ؟

هل أطلقها ؟

وبدأت أفكر.. هنا فقط بدأ عقلى يتدخل فى ثورتى.. بدأ العقل يقيد الجنون..

وقال لى عقلى إنى لا أستطيع أن أقتلها.. لو قتلتها فسأدخل السجن ، خصوصاً وأنى لم أقتلها فى حالة تلبس مع عشيقها.. و « التلبس » يعتبر عذراً مخففاً ينزل بالحكم إلى ثلاثة شهور فقط.. أما لو قتلتها الآن فلن يكون الحكم أخف من سبع سنوات سجن.. ويضيع مستقبلى..

ثم بدأ عقلى يناقش الاقتراح الثانى : إبلاغ البوليس.. وإذا بعقلى يحذرنى من الفضيحة.. إن إبلاغ البوليس لن يؤدى إلى شيء إلا إلى الفضيحة .. فضيحتى وفضيحة ابنى.. ومحضر رسمى يظل عالقاً بنا إلى الأبد.. ثم ماذا أقول للبوليس.. ليس فى يدى أى إثبات... والبوليس لا يعترف إلا بحالة التلبس.. و..

وشطبت اقتراح إبلاغ البوليس..

وبدأ عقلى يناقش الاقتراح الأخير : الطلاق !

ولم أكن أعتقد أن الطلاق - فى هذه الحالة - يحتاج إلى نقاش. أو إلى تردد.. إنه أضعف الإيمان.. إنه رد الفعل الطبيعى لحالة رجل

مهذب مثلى..

ولكن..

كيف أطلقها.. وينتهى الأمر بهذه السهولة ؟

كيف أطلقها.. دون أن أنتقم منها.. أنتقم لشرفى !

قلت لنفسى هذا الكلام.. ولكن كان خلف هذا الكلام إحساس آخر غريب... كنت أريد أن أنسى ما حدث.. كنت أحاول أن أقنع نفسى بأن قمر صادقة.. وأنها مظلومة.. بريئة.. كنت أتلمس الأعذار حتى لا أطلقها.. لا رحمة بها ، بل رحمة بنفسى.. إنى أحبها ، وقد كنت سعيداً معها ، ثم هناك ابنى.. ابنى الذى سيتشرد بين أمه وأبيه.
ولم أطلقها..

وفعلت..

استدعيت أباه ، ورويت له ما حدث..

أتدرى ماذا كان موقف الأب.. لقد ثار فى وجهى لأنى أتهم قمر.. واتهمنى بأنى جبان لأنى لم أهاجم على ابن العم وأضربه وأنقذ قمر من براثنه..

واحتدت المناقشة.. وخرجت قمر مع أبيها. وأنا أتمنى أن أقتنع بأنها بريئة.. بل أتمنى أن أقتنع بأنى جبان.. حتى تعود.. وتعود معها سعادتى وهنائى..

وبقيت قمر فى بيت أبيها أياماً.. دون أن أطلقها.. ثم.. عدت إلى بيتى فى يوم ، فوجدته فارغاً.. ليس فيه شىء..
لقد جاءت قمر فى الصباح هى وأبوها وابن عمها.. عشيقها.. وحملوا الأثاث... حملوا كل شىء حتى ثيابى.. وأخذوا ابنى..

و....

ولا أدرى ماذا أفعل..

إنى لم أطلقها بعد !!!



زوجت نجمة!

بدأت حياتى العملية ، صحفياً فى مجلة
الكواكب..
ولا أدرى ما الذى ذهب بى إلى مجلة
الكواكب.
بل لا أدرى ما الذى جعل منى صحفياً..
كنت قد تخرجت فى كلية التجارة ، وكان



أبى يبحث لى عن وظيفة فى إحدى الشركات..
وكنت أقضى أيامى فى صحبة صديقى الأستاذ عبد الله
عبدالجواد المحرر بدار الهلال..
وصحبنى عبد الجواد يوماً إلى أحد أستديوهات السينما.. وبهرت
عندما رأيت فاتن حمامة لأول مرة.. بشخصها.. بلحمها وعظامها..
وبهرت أكثر عندما اكتشفت أنها ليست تعيسة حزينة دائماً كما تبدو
على الشاشة..
ولكن بهرتى لم تفقدنى عقلى.. لقد وقفت أرقب بكل حواسى
عملية الإخراج.. والتصوير.. والتمثيل.. والحوار.. والديكور.
وخرجت من الاستديو وأنا لا أكف عن الكلام.. قلت لعبد الجواد
آرائى فى كل ما شاهدته.. وأعجب عبد الجواد بآرائى.. وقال لى فى
لهجة الأستاذ الكبير..
- أنت تصلح ناقدًا..
قالها كأنه يقول لى : « قم فأنت فارس ».. ثم طلب منى أن أكتب
له هذه الآراء..
وكتبتها فى مقال كبير بعنوان : « فاتن حمامة.. لأول مرة »..
وأعطيها فى اليوم التالى لصديقى عبد الجواد..
وبعد أيام فوجئت بها منشورة فى مجلة المصور.. هى نفسها..
الأسلوب... والكلمات.. وحتى العنوان.. وكل ما تغير فيها ، هو

الإمضاء.. أصبح الإمضاء ، هو إمضاء صديقى عبد الجواد.
وكتمت غيظى.. وهرعت إلى عبد الجواد ، وبين شفتى ابتسامة
كبيرة.. وقال لى وهو لا ينظر فى عينى :
- شفت الفرق بين اللى كتبته أنت ، واللى كتبته أنا.. بكره تتعلم
وتبقى زى !!

وقلت ، وأنا لا زلت محتفظاً بابتسامتى :

- الحقيقة الفرق كبير.. أصلك أستاذ !!

وبدأ عبد الجواد يصحبنى معه كلما ذهب فى جولة من جولاته
الفنية.. عرفت كل الاستديوهات.. وكل نجوم السينما.. الممثلات..
والممثلين.. والمخرجين.. و.. وكنت دائماً أكتب.. وعبد الجواد يوقع !
واكتشفت فى هذه الأيام أنى أريد أن أكون صحفياً.. وصحفياً
فنياً بالذات.. واكتشفت أنى لا أريد أن أكون موظفاً فى شركة.. بل
اكتشفت أن أشد ما أكرهه هو كلية التجارة التى تخرجت فيها..

وكنت أذهب كل يوم لزيارة صديقى عبد الجواد فى مكتبه بدار
الهلال.. وتعرفت هناك بكثير من الزملاء.. عشت معهم.. سهرات
لياليهم.. سرى فى دمي هذا العطر المنشط الذى ينطلق من أوراق
البروفات ومن الأصابع الملوثة بالحبر..

وبدأت أتجراً وأذهب وحدى إلى الاستديوهات.. وأحادث النجوم
فى التليفون.. وأكتب.. ثم أعطى ما أكتبه ، لا لصديقى عبد الجواد ،
بل لسكرتير تحرير مجلة الكواكب.

وأصبح ما أكتبه.. ينشر.. بلا توقيع.. لا توقيعى ، ولا توقيع عبد

الجواد !

واعتبرت هذا نصراً..

لقد تخلصت من عبد الجواد..

وبقى أن أتخلص من سكرتير التحرير..

وكان الأمر سهلاً..
لقد تعرفت برئيس التحرير..
وحقق لى رئيس التحرير حلمى الكبير ، رغم أنف سكرتير
التحرير..

نشر مقالاتى ، موقعة بإمضائى !
وأصبحت صحفياً.. بالقطعة !
ثم ارتقيت.. أصبحت صحفياً بمرتب !
ورفضت الوظيفة التى عثر لى عليها أبى ، فى إحدى الشركات..
والنوتة الصغيرة فى جيبي تحوى أرقام تليفونات كل نجوم
الفن.. النجوم التى فى السماء.. والنجوم التى تلعب الطاولة فى قهوة
عماد الدين.. وكل يوم لى دعوة على الغداء.. ودعوة على العشاء..
فى بيت فنان.. وأصبحت أستطيع أن أنادى عماد حمدى باسمه
مجرداً.. عماد.. هدى.. مريم.. عز.. شكرى.. حليم.. نادية.. زيزى..
كلهم أصدقائى.. وكلهم إذا لم أطمئن عليهم كل يوم بالتليفون..
اطمأنوا على !!

وبصراحة.. بلا غرور.. أصبحت أشهر صحفى فنى فى الصحف
العربية.. الوحيد الذى يستطيع أن يضع رأسه بجانب رأسى هو
جليل البندارى.. والحقيقة أنه أقصر منى فى ميدان الصحافة ، ولكنه
عندما يقف على لسانه ، يبدو أطول !!
وكنت سعيداً..

سعيداً بعملى.. سعيداً بشهرتى فى الوسط الفنى.. سعيداً بهذه
الابتسامات التى لا تكف عنى.. سعيداً حتى بالمشاكل التى يثيرها فى
وجهى قسم الإعلانات كلما أبدت رأياً صريحاً فى أحد الأفلام..
إلى أن التقيت بخيرية..
التقيت بها فى أحد الاستديوهات واقفة فى صفوف الكومبارس..

ولا أدري ما الذى حدث لى.. لقد أحسست بقوة هائلة تشدنى إليها..
إنها ليست أجمل من مريم.. ولا أجن من سعاد.. ولا أذكى من فاتن..
ولا مرحلة كنادية.. ولا عبيطة كهند.. ليس فيها شىء يميزها عن
باقى الفنانات.. ليس فيها شىء إطلاقاً.. ورغم ذلك فهذه القوة التى
تشدنى إليها لم أشعر بها أبداً نحو واحدة أخرى..
وذهبت إليها..

وهى تنظر إلى بعينين مشدوهتين.. لم تكن تصدق أنى أنا.. أنا
الصحفى المشهور.. المحرر الأول بمجلة الكواكب.. يذهب إليها !
ودعوتها إلى الغداء..

وكان هذا حدثاً غريباً آخر فى حياتى.. فحتى ذلك اليوم كنت
أفضل دائماً مقعد المدعو ، على مقعد الداعى !!
ثم بدأت ألقاها كل يوم..

وكل يوم أناقشها فى الفن.. أناقشها فى حماس وأنا أحاول أن
أفتح عينيها على عالم جديد خيل إلى أنها لا تعرفه.. عالم الفن.. ومن
خلال هذه المناقشات بدأت أحس أنى أنا أيضاً اكتشفت عالم الفن..
بدأت أشعر أن الفن أكبر وأخطر مما كنت أراه.. بدأت أحس أن الفن
ليس أشخاصاً.. ليس فلاناً وفلانة.. ولكنه موضوع.. موضوع
عميق.. عميق.. ليس له قرار.. ثم بدأت أتصور أن مهمتى كصحفى
فنى ، ليست مجرد تسجيل حوادث الفن ، وليست مجرد تسليية
القراء بأحاديث النجوم.. مهمتى أكبر من ذلك.. مهمتى أن أخلق
شيئاً جديداً فى الفن.. أن أكون خالقاً !!

وقررت أن أكون خالقاً..

وأن أخلق خيرية..

أخلقها نجمة سينمائية.. نجمة لها طابع جديد.. شخصية جديدة..
غير طابع وشخصية فاتن حمامة..

وبدأت أخلقها..

كل دقيقة من عمري وضعتها فى خلق خيرية..

علمتها كيف تتكلم.. كيف تضحك.. كيف تبكى.. كيف تلبس..

كيف تمشى.. وكل ما فى عقلى وضعته فى عقلها.. ثقافتى..

تجاربى.. وكل ما فى قلمى أفرغته فى رسم صورتها أمام القراء.

واستطعت أن أحصل لها على دور فى أحد الأفلام.. دور كبير..

وقضيت أياماً وليالى ، وأنا معها ألقنها أمام المرأة ، كيف تؤدى

دورها.. كنت أضربها ، أحياناً عندما تخطىء.. وأقبلها عندما تسمع

كلامى.. ولا أرحمها.. يجب أن تنجح.. يجب أن تنجح..

ونجحت خيرية..

وتعلمت أنا من هذا النجاح أن الفن ليس مجرد وجه جميل.. إنه

مجهود.. مجهود مضمّن.. إنه عملية خلق ضخمة.. إن كل بنت

تستطيع أن تكون فنانة كبيرة لو وجدت من يخلقها.. لو وجدتنى..

ولم أكت بنجاح خيرية..

يجب أن تنجح أكثر..

ونجحت أكثر..

وأكثر..

أصبحت فى المقدمة..

وأنا أحبها.. منذ اليوم الأول الذى رأيتها فيه ، وأنا أحبها.. حباً

كبيراً.. لم أكن أعتقد أنى أستطيع أن أحب كل هذا الحب..

وهى.. تحبنى.. كل ما فيها ينطق بحبى.. عيناها.. شفاتها.. لهفتها

على.. صبرها على أعصابى.. إنها تحبنى.. قطعاً تحبنى!

ولكن ؟

من أدرانى أنها تحبنى ؟

لعلها تنافقنى كما ينافقنى بقية الممثلات.. لأكتب عنها.. لأقدمها

للجمهور.. لأتوسط لها لدى المخرجين والمنتجين؟!
ولم يساورنى هذا الشك فى الشهور الأولى التى عرفت فيها
خيرية.. ولكنه بدأ يساورنى بعد أن سرت بها خطوات فى طريق
النجاح..

وبدأت أنتبه لأشياء كثيرة لم أكن أنتبه لها !
إنها تبتسم لجليل البندارى ، نفس الابتسامة التى تبتسمها لى..
إنها تحادث مجدى فهمى ، رئيس التحرير ، بصوت ناعم..
خافت.. كأنها تحادثنى..
إنها تصافح صلاح أبو سيف فتترك يدها فى يده مدة طويلة..
أطول مما تتطلبه مجرد المصافحة..
إنها تهز رموش عينيها لعز الدين ذو الفقار ، كأنها تسلط عليه
إغراءها..

إن تليفونها مشغول.. مشغول أكثر من اللازم.. إنها.. إنها..
وبدأت أصرخ :
- إنتى بتمايى مع جليل..
وترد فى دهشة كأنها صادقة :
- حرام عليك.. ما لقتش إلا جليل !
وأصرخ :
- أنا مش عايزك تشتغلى مع عز.. أنا عارفه.. كل واحدة بتشتغل
معاه يحبها..
وترد وهى تبكى :
- هو يعنى عز ناقصنى.. دى كوثر صاحبتي !!
وأعود وأصرخ..
وأصرخ..
وتعبت من الصراخ.. وشعور أليم باليأس يجثم على صدرى..

إنها لم تعد فى حاجة إلىّ.. إن حولها الآن كثيراً من الصحفيين..
والأدباء.. إن ما أستطيع أن أعطيه لها ، يستطيع أى واحد من هؤلاء
أن يعطيه..

وحملت عذابى ، وابتعدت عنها..
يوم كامل لم أتصل بها..
واتصلت بى فى التليفون.. فهربت !
ويومان..
وثلاثة..

وهى تبحث عنى فى كل مكان.. وتبكى.. تبكى لكل من يقابلها..
وتعلن حبها.. تعلنه فى صراحة.. بلا خوف..
وعدت إليها بعد خمسة أيام..
واستقبلتنى بدموعها.. ووجهها الذى أنهكه الفراق..
وعدنا إلى الحب..
ولكنى ما لبثت أن عدت إلى الصراخ..
لنفس الأسباب..
ثم صرخت الصرخة الكبيرة :

- إنتى ما بتحبيش.. إنتى محتاجة لى لأنى صحفى.. محتاجة
لى علشان أكتب عنك.. بتحبينى زى ما بتحبنى إحسان عبد القدوس،
ومصطفى أمين ، وكامل الشناوى ، ويوسف السباعى.. ما بتحبيش
الإنسان اللى واقف قدامك.. بتحبنى الصحفى اللى بيشتغل فى
الكواكب..

وتركتها كالزوبعة..
تركتها وعقلى يدور حول موضوع واحد.. إن عقدتى معها.. عقدة
حبنا.. هى شكى فى أنها لا تحبنى لأنى إنسان.. ولكنها تحبنى لأنى
صحفى أكتب عن الفن والفنانات..

كيف أتخلص من هذه العقدة ؟

الطريق الوحيد هو أن أفصل بين الإنسان ، وبين الصحفى !!
وبكل هدوء ذهبت فى اليوم التالى إلى دار الهلال ، وقدمت
استقالتي..

واعتقد رئيس التحرير أنى أستقيل لأعمل فى دار أخرى.. وأخذ
يصرخ.. ويشد شعره.. و.. حاتسبنا لمين من بعدك يا سبعى !!
ولكنى - بعد مجهود كبير - استطعت أن أقنعه بأنى أستقيل
لأننى قررت اعتزال الصحافة ، والاشتغال بالأعمال الحرة..
وبكل هدوء أيضاً.. ذهبت أبحث عن وظيفة فى إحدى الشركات..
وفى خلال ثلاثة أيام - وبمساعدة أبى - استطعت أن أحصل على
وظيفة ، فى قسم الحسابات بالمؤسسة الاقتصادية.
وتسلمت عملى فعلاً..

ثم ذهبت إليها..

إلى خيرية..

واستقبلتنى بدموعها.. ووجهها الذى أنهكه الفراق... وتعلقت فى
رقبتى ، وهى تنشج كالطفلة..

ونزعت ذراعيها من حول عنقى ، وقلت فى لهجة خطيرة :

- أنا استقلت.. استقلت من دار الهلال.. اعتزلت الصحافة..
خلاص.. مش حا أقدر أكتب عنك بعد كده..

ونظرت إلى نظرة خلتها نظرة هلع.. ولكنى تبينت بسرعة أنها
نظرة دهشة فقط..

ثم فجأة انفجرت ضاحكة..

ضحكت كثيراً..

ثم عادت تتعلق برقبتي.. تقبلنى فى كل مكان من وجهى.. وهى
تهمس بين قبلاتها :

- يا حبيبي.. ما كنتش فاكرة إنك بتحبنى للدرجة دي..
وفجأة دق جرس التليفون.. تليفونها !
إن صوت رنين جرس تليفونها أصبح كصوت طلقات مدفع
رشاش مصوب إلى قلبي..
ورفعت سماعة التليفون.. ثم أشارت إلىّ لأتحدث..
قلت فى دهشة :
- أنا..
قالت وهى تبتسم :
- أيوه أنت..
وأمسكت بسماعة التليفون.. لابد أنه رئيس التحرير.. إنه الوحيد
الذى تعود أن يبحث عنى عند خيرية..
ولكنه ليس رئيس التحرير. إنه مسيو جريجورى صاحب شركة
دولار فيلم..
وصاح مسيو جريجورى :
- أنت فين يا أستاذ.. أنا بادور عليك من ثلاث أيام.. الست
خيرية دي مجنون خالص.. مش عايز يمضى العقد ، بيقول إنه
اعتزل السينما.. اعمل معروف يا أستاذ.. عقلها..
ولم أستطع أن أرد عليه.. ألقىت سماعة التليفون والتفت إليها فى
دهشة..
وقالت وهى تبتسم :
- أنا كمان اعتزلت السينما..
قلت والدهشة تقفز فوق لسانى :
- مش معقول..
قالت :
- ما دام باحب.. يبقى معقول..

قلت :

- خسارة

قالت :

- مش خسارة فيك..

وضممتها إلى صدري..

بقوة..

وقلبي يخفق بخفقات قلبها..

و...

تزوجنا..

أتدري ماذا حدث بعد شعر العسل..

عادت خيرية إلى السينما..

وعدت إلى الصحافة..



الناس يضربون عند

أنا عوض أحمد حسنين النحلاوى..
موظف فى إدارة النسخ بوزارة العدل..
عمرى ٥٢ سنة ، وإن كنت أبدو أكثر من
ذلك بكثير... فعيناي تبدوان من خلف نظارتى
ذات الإطار الفضى ، متاكلتين محمرتين دائماً..
وصدغاي مجعدين.. وأنا رفيع ، وظهرى منحن
قليلاً.. ورغم ذلك فصحتى حديد ، لم أشك يوماً مرضاً. وربما
اكتسبت هذا المظهر العجوز من انكبابى على هوايتى الوحيدة..
وهوايتى الوحيدة هى تصليح الساعات..



وقد كانت الساعات تبهرنى منذ كنت طفلاً أقيم فى بلدتنا ، « كفر
عليوة ».. كنت أقضى الساعات منزوياً أمام دوار العمدة ، حتى
يخرج إلى الحوش الكبير الذى يواجه الدوار ، فأركز عيني على
السلسلة الفضية البارزة فوق جلبابه ، ويظل قلبى يدق فى انتظار أن
يشد السلسلة ليخرج ساعته الكبيرة المعلقة فى طرفها.. حتى إذا
رأيتها فى يده اتسعت عيناى كأنهما تشهقان وتجمع كل إحساسى
الصغير فى رغبة واحدة جامحة هى أن ألمس هذا الكنز المسحور
الذى يخبئه حضرة العمدة فى صدره..

وعندما كان مهندس الرى يزور بلدتنا ، كنت أسير وراءه طول
اليوم ، وأجرى وراء العربة التى يركبها ، لا لشيء إلا لأملأ عيني
بمنظر الساعة التى يربطها فوق معصمه.. والرغبة الجامحة تشدنى
لألمس هذه الساعة... مجرد لمسة واحدة.. وقد تجرأت يوماً عندما
كان المهندس واقفاً على الجسر وسط الكثيرين من أهل البلدة ،
فاستطعت أن أصل إليه ، ومددت يدي ، مرتعشة واجفة ، إلى أن
استطعت أن ألمس الساعة.. وشعر المهندس بيدي واعتقد أنى أحاول
سرقة ساعته ، فاستدار لى بغتة وصفعنى على وجهى صفعه لا
يزال صداها يرن فى أذنى حتى اليوم.. ولولا تدخل أهل البلدة

لسلمنى للمركز..

وظلت الساعة هى حلمى الوحيد.. إلى أن جئت إلى القاهرة - وأنا
ساقط ابتدائية - واستطاع أبى بتوصية من حضرة العمدة أن
يعيننى فى وظيفة نساخ فى إدارة النسخ بوزارة العدل.. بمرتب
خمسة جنيهات وثلاثة وعشرين قرشاً..

وبدأ الحلم الكبير يقترب منى..

كنت أقضى الساعات الطوال وأنا واقف أمام دكاكين بيع
الساعات ، أنظر إليها كأنى أنظر إلى نجوم السماء.. وعرفت أشكالها ،
وأحجامها ، وأسماءها.. إنى أحفظ عن ظهر قلب أسماء جميع
ماركات الساعات.. موفادو.. رولكس.. الجرس.. أوميجا.. اركاديا..
و.. و.. إنى أنسى سريعاً أسماء الناس ، ولكنى لا أنسى أبداً أسماء
الساعات..

وأخيراً...

استطعت أن أوفر من مرتبى فى خلال عام ما يكفى لشراء أول
ساعة فى حياتى.. ولا تتصور فرحتى.. كأنى تزوجت.. كأنى ولدت
من جديد..

والساعة فى يدى تغرينى بأن أكتشف سرها..

والإغراء يشتد..

وبدأت أفتح ساعتى.. كأنى أفتح قلب حبيبتى.. وشغلت بها عن
الدنيا كلها.. كنت أخرج من الوزارة ، أجرى إلى البيت ، لأعود إلى
ساعتى.. أعبت بقلبها.. واستطعت أن أفك كل مساميرها ، ثم أعيد
تركيبها.. بنفس الدقة.. ثم لا ألبث أن أعود وأفكها ، وأعيد تركيبها..

وهكذا بدأت هوايتى لتصليح الساعات.. أصبحت لا أعيش إلا فى
ساعة أصلحها.. ليس لى عالم آخر.. ليس لى أصدقاء.. ليس لى
ناس.. بل إن هوايتى شغلتنى عن الزواج.. لم أتزوج إلا عندما
وصلت سن التاسعة والثلاثين ، وبعد أن أصرت أمى - قبل أن

تموت بعامين - على تزويجى رغم أنفى..

ولم يتغير منى شىء بعد الزواج ، سوى أنى انتقلت إلى شقة
مكونة من حجرتين فى بيت يقع فى أطراف الجيزة.. عالمى كله
ساعات أصلحها - ساعات زملائى فى الوزارة - وزوجتى - وهى
من بلدنا - بعيدة عن هذا العالم.. بعيدة عنى ، وأنا بعيد عنها..
والواقع أنه لم تكن الساعات هى هوايتى الوحيدة ، وإن كانت
هوايتى الكبيرة.. فقد كانت لى هوايات فرعية لا ترتفع إلى مستوى
هوايتى للساعات..

كنت أهوى تصليح الأحذية كل أحذيتى أصلحها بنفسى.. أستطيع
أن أصنع لها نصف نعل.. ونعلاً كاملاً.. وأن أخيط ثقبوها..
وصدقنى أنى أحتفظ إلى اليوم بكل أحذيتى التى اشتريتها منذ جئت
إلى القاهرة.. وكلها لا تزال صالحة للاستعمال.. ولا مانع عندى من
أن أصلح حذاء لزميل لى من زملاء الوزارة..

وكنت أهوى أيضاً الطبخ.. أقسم لك أنى أستطيع أن أعد طبقاً من
فته الكوارع أشهى مما يعده «الركيب» طاهى الكوارع المعروف..
ولكنى اضطررت بعد أن تزوجت أن أحد من هوايتى للطبخ ، فقد
كانت زوجتى تعتبرها نوعاً من التحدى على اختصاصها.. لم تكن
تحتج.. ولم تكن تعترض.. ولكنى كنت أقرأ تذرماً على وجهها..

وبعد عامين من زواجى رزقت بابنى عبدالفتاح.. على اسم أبى..
وفرحت بعبد الفتاح.. ولكن فرحتى به لم تغير شيئاً من حياتى ،
ولم تقلل من ضياع كل وقتى وكل اهتمامى ، بين الساعات
والأحذية.. وتركته لأمه تصنع به ما تشاء ، ولا يصلنى منه إلا
صراخه.. وعندما كبر قليلاً ، حرصت على ألا تصل يده إلى عالمى..
إلى الساعات التى أصلحها ، والآلات الصغيرة التى أستعين بها فى
إصلاحها..

وعندما وصل عبد الفتاح إلى السادسة من عمره.. ماتت زوجتى..

وحزنت عليها.. حزنت كثيراً.. ولكن شيئاً لم يتغير فى حياتى ،
سوى أنى أصبحت أمارس هوايتى فى الطبخ ، وأصبحت أشرف
بنفسى على شئون عبدالفتاح.. ولم يكن عبدالفتاح يحتاج إلى جهد
كبير للإشراف عليه.. فقد كان ولداً مؤدباً ، مطيعاً ، صامتاً، يبدو
هيكله ضعيفاً وإن لم يشك أبداً من مرض..

وعشت مع عبدالفتاح كصديقين ، قليلى الكلام.. أنا فى غرفة
منكب على إصلاح الساعات ورتق الأحذية.. وهو فى الغرفة
الأخرى.. لا أدرى ماذا يفعل.. أحياناً أجده يقرأ.. وأحياناً أجده يخط
خطوطاً على الحائط.. وأحياناً أجده يلعب ألعاباً لا أفهمها.. ولا يخرج
من غرفته إلا نادراً.. يبقى وحده ساعات طوالاً.. مثلى.. ولم يشغلنى
أبداً شىء من أحواله.. لم يخطر على بالى أن فى حياته مشكلة.. كنت
سعيداً به ، وكنت أعتقد أنه سعيد بى..

وأصبح عبدالفتاح فى الحادية عشرة.. تلميذاً فى المدرسة
الإعدادية..

وفى يوم دخل إلى حجرتى ، وأخذ يرقبى صامتاً وأنا أصلح
ساعة ، وفوق عيني اليمنى المنظار المكبر الذى أرى من خلاله الدنيا
الدقيقة الرائعة.. دنياى..

وفجأة سمعت عبدالفتاح كأنه ينادينى من عالم بعيد :

- بابا..

ورفعت إليه وجهى والمنظار المعظم مركز فوق عيني اليمنى وأراه
من خلاله كأنه خيال ضخم مهزوز..

واستطرد عبدالفتاح قائلاً :

- بابا.. كيف أستطيع أن أجد صديقاً..

وسمعت السؤال جيداً.. ولكنى لم أفهمه.. ونزعت المنظار المعظم
من فوق عيني ، ونظرت إليه فى دهشة ، وقلت :

- ماذا تريد يا عبده ؟

وعاد عبدالفتاح يقول فى صوت حائر وهو يدير وجهه عنى :
- أريد أن أجد صديقاً..

واشتدت دهشتى..

ماذا يعنى عبده.. ماذا يقصد.. ولماذا يحتاج إلى صديق ، لماذا
يحتاج الإنسان إلى صديق.. وما هو الصديق.. إنى أعرف ناساً
كثيرين.. أعرف زملائى فى الوزارة.. وأعرف الحاج عبده البقال..
والمعلم عليش الجزار.. والسيد محمد نوفل الساعاتى.. فهل أستطيع
أن أعتبرهم أصدقاء.. إنى لا أعرف عنهم شيئاً.. لا أعرف شيئاً عن
حياتهم ولا من مشاكلهم.. ولا أزورهم ولا يزوروننى.. ولا أجلس
معهم على مقهى.. ولا أشعر بأنى فى حاجة إليهم ، أكثر من حاجاتى
إلى مجرد التعامل معهم ، فهل هذا يكفى ليكونوا أصدقاء ، لا
أدرى..

ونظرت إلى عبدالفتاح وقلت فى برود :

- إنك تستطيع أن تجد أصدقاء كثيرين بين زملائك فى المدرسة..

قال فى صوت حزين :

- ليس لى بينهم أصدقاء..

قلت وأنا أحاول أن أبتسم :

- أتخذ منهم أصدقاء..

قال والحيرة تنطلق من عينيه :

- كيف ؟

وترددت.. ترددت طويلاً.. إنى لا أعرف كيف يصنع الإنسان
أصدقاء.. ولم أحاول يوماً أن أصنع صديقاً.. لقد عشت وهواياتى
تغنينى عن كل الأصدقاء.. عن كل الناس..

ورغم ذلك قلت لعبده :

- اقترب منهم ، وحادثهم.. والحديث يؤدى إلى الصداقة..

وقال عبده فوراً :

- ماذا أقول لهم ؟

قلت وأنا لا زلت غارقاً فى حيرتى :

- قل لهم أى شىء.. أى كلام..

قال :

- قد أقول كلاماً سخيلاً ، فيضحكون علىّ..

قلت وأنا أنظر إليه فى إشفاق :

- من أدراك أن كلامك سيكون سخيلاً.. ربما يعجبهم كلامك..

وإذا لم يعجب واحداً ، قد يعجب الآخر..

وسكت عبد الفتاح.. نكس رأسه.. وخيل إلى أنه تنهد.. ثم قام

يسير بخطوات متثاقلة ، وقبل أن يخرج من الغرفة.. التفت إلى كأنه

يهم أن يتكلم.. ولكنه لم يتكلم.. عاد ونكس رأسه وخرج إلى غرفته..

وحاولت أن أعود إلى الساعة التى أصلحها.. ركزت المنظار المعظم

فوق عيني اليمنى.. ونظرت إلى قلب الساعة.. ولكنى لم أر شيئاً.. كل

ما أراه صورة عبد الفتاح مبتسماً حزيناً منكس الرأس..

إنى لم أكن أتصور عبد الفتاح حزيناً أبداً.. كنت أتصوره سعيداً..

مثلى.. وكنت أعتقد أن هذه الساعات الطويلة التى يقضيها وحيداً فى

غرفته يلعب ألعاباً لا أفهمها ، هى ساعات حلوة كالتى أقضيها ألعب

بالساعات والأحذية..

ولكنه ليس سعيداً..

إنه حزين ، يعانى مشكلة.. لا أفهمها..

وحاولت أن أنسى مشكلة عبد الفتاح.. حاولت أن أقنع نفسى أنها

ليست مشكلة ، ولكنها مجرد خاطر من خواطر الطفولة.. ولكنى لم

أنس.. إن صورة وجهه الحزين تملأ عيني.. وتلاحقنى.. لم أعد

أستطيع إصلاح الساعات.. ولا الأحذية.. لم أعد قادراً على تركيز

ذهنى فى شىء إلا فى مشكلة عبد الفتاح..

وأصبحت بائساً أنا الآخر..

والعلاقة بينى وبين عبد الفتاح أصبح يشوبها بعض التوتر ،
وكثير من الحرج.. كل منا لا يستطيع أن ينظر فى عينى الآخر..
والكلمات بيننا مقتضبة.. وكل منا يزداد عزلة عن الآخر.. كل واحد
فى غرفته.. وربما كنا دائماً هكذا.. ولكنى بدأت أشعر أن انعزال كل
منا فى حجرته ، ليس مجرد انسياق لطبيعتنا ، ولكنه تباعد متعمد..
ومر أسبوعان..

ثم تجرأت وسألت عبد الفتاح ، وصوتى يرتعش كأنى أفتح به
جرحاً فى صدرينا :

- هل وجدت صديقاً ؟

ورفع إلى عبد الفتاح عينين قاسيتين كأنه يلومنى ، وقال فى
اختصار باتر :

- لا..

ثم مشى إلى غرفته ، وشفتهام ممطوطتان تقطران سخطاً ومرارة
ويأساً.. ونظرت خلفه وأنا أشعر أنه يحملنى مسئولية فشله فى
العثور على صديق..

وبدأت أشعر أنى مسئول فعلاً.. ولم أكن أشعر من قبل بأى
مسئولية نحو عبد الفتاح ، لقد كبر بجانبى دون أن يشعرنى
بمسئوليته ، ودون أن أشعر أنا بهذه المسئولية.. ولكن الآن.. أنى
أشعر بأنى أب فاشل.. أشعر بأنى أهملت عبد الفتاح طول عمره..
أشعر بعجزى.. بضعفى.. بتفاهتى..

وانقضت أيام وأنا لا أستطيع أن أرفع رأسى ، حتى أمام زملائى
فى الوزارة.. خيل إلى أنهم هم أيضاً يتهموننى بالتقصير فى حق
عبد الفتاح.. يتهموننى بالعجز.. بأنى أب فاشل..

وطوال هذه الأيام ، كرهت كل شىء.. حتى الساعات.. ربما كانت
هذه الساعات هى التى شغلتنى طول عمرى عن عبدالفتاح..
وأفكر.. كيف أحل المشكلة..

فكرت كثيراً..

إنها ليست مشكلة سهلة كما كنت أتصور..

وأخيراً تذكرت جارنا الحاج على مقاول البياض.. إن له ابناً فى عمر عبد الفتاح.. ولم يكن بينى وبين الحاج على صداقة ، ولا شبه صداقة.. كل ما بينى وبينه ، تبادل التحية من بعيد كلما التقينا عند مدخل الحى.. ولكنه كان يبدو بشوشاً دائماً.. وقد حاول أكثر من مرة أن يُجرى معى حديثاً ، وكنت أقطع محاولته لأسرع عائداً إلى بيتى ، أو أسرع ذاهباً إلى عملى..

وابتسمت فى راحة عندما تذكرت الحاج على.. إنه لن يبخل على بصداقته.. ولن يبخل بصداقة ابنه لابنى..

وأخذت أترقبه ، وأبحث عنه بعينى ، فى ذهابى وعودتى.. إلى أن صادفته.. ولم أكتف بالسلام عليه من بعيد ، كما كانت عادتى.. تقدمت إليه.. واحتجت لكل شجاعى لأتقدم إليه.. ومد الحاج على يده يصافحنى وقد اكتسى وجهه بالدهشة.. ربما فوجىء عندما تقدمت إليه ووقفت أصافحه.. ولكنه أفاق من دهشته سريعاً واسترد بشاشته.. وأخذ يهز يدي فى عنف ، وكلمات الترحيب تتدفق من فمه كالشلال.. وأنا عاجز عن ملاحقة كلماته والرد عليه بمثلها.. ويدي مستسلمة ليده.. وعقلى كله مشغول بترتيب الكلمات التى سأقولها له.. وأحس بالارتباك.. والخرج.. والعجز..

واكتفى الحاج على من كلمات الترحيب ، وترك يدي وقد التصقت أصابعها بعضها ببعض ، وقال :

- فرصة سعيدة يا حسنين أفندى.

قلت ، والكلمات ثقيلة على لسانى :

- إننا لا نراك يا حاج..

وقال الحاج على وابتسامته أعرض من كرشه :

- تحت النظر يا حسنين أفندى..

قلت فى تلعثم ومسكنة :
- إنى أتمنى لو نتزاور.. لماذا لا تأتى لزيارتنا.. إنى أعىش وحدى
كما تعلم..
وقال الحاج على من خلال ضحكة كبرىة :
- أوامر يا حسنبن أفندى..
قلت صوتى يكاد يضحى من حلقى :
- تفضل بزيارتنا.. غداً..
قال :
- هذا شرف كبرى.. قبل المغرب بإذن الله..
وترددت قليلاً ثم استجمعت شجاعتى ، وقلت :
- ولعلك تستطيع أن تأتى معك بابنك المحروس.. ليتعرف بابنى
عبد الفتاح..
وعادت الدهشة تملأ وجه الحاج على ، ونظر إلى كأنه يشك فى
سلامة عقلى.. وقال :
- ابنى.. أى واحد فىهم تقصد..
قلت فى صوتى المسكين :
- الذى فى الحادىة عشرة من عمره.. أو ما يقاربها.. لقد رأيت
معك كثيراً..
وضحك الحاج قائلاً :
- تقصد الواد خميس.. والله ده ما يستاهل يا حسنبن أفندى.. ده
واد مجرم... إنما إيه الحكاية.. هى حفلة؟!
قلت وأنا أغتصب ابتسامة :
- أبداً.. إنما ابنى عبد الفتاح يريد أن يكون له صديقاً..
ونظر إلى الحاج على فى شك ، ثم قال :
- فهمت.. حاضر يا أستاذ حسنبن.. يحصل لنا الشرف..
ولم يكن يبدو على الحاج على أنه فهم شيئاً..

ومددت له يدي وأنا أؤكد عليه :

- غداً.. قبل المغرب.. بإذن الله..

عاد الحاج على يهز يدي في عنف وكلمات الترحيب تتدفق من فمه الكبير كالشلال..

ولا أستطيع أن أصف لك مدى ما عانيته وأنا أستعد لزيارة الحاج على... لم يحدث من قبل أن زارني أحد في بيتي ، سوى عدد قليل من أقاربي الذين يفدون من بلدتنا في المناسبات.. ولم أكن أعرف كيف يستقبل الناس زوارهم.. ولم أكن أدري على الأخص ما يمكن أن يدور من أحاديث خلال هذه الزيارة.

وقضيت الليل مرتبكاً ، أعد كل ما يخطر على بالي استعداداً للزيارة.. وفي اليوم التالي اشترت أثناء عودتي من الوزارة نصف كيلو من الكعك ، ونصف كيلو من الحلوى. وأخذت أرتبهما في أطباق، وأعد لهما مكاناً فوق المائدة التي تتوسط الصالة..

ولم أكن حتى هذه اللحظة قد أخبرت عبد الفتاح بما أعددت له ، وانتظرتة إلى أن عاد من المدرسة ، وقلت له :

- استعد.. وجدت لك صديقاً ، سيأتي لزيارتنا اليوم..

ونظر إلى عبد الفتاح من خلال عينيه البائستين ، كأنه لا يفهم شيئاً..

واستطردت قائلاً :

- جارنا الحاج على سيأتي لزيارتنا ومعه ابنه خميس.. إنه في مثل سنك.. وتستطيع أن تتخذه صديقاً..

ونظر إلى عبد الفتاح صامتاً وشفته مملوءتان.. وعيناه يائستان.. ثم استدار ومشى إلى غرفته ، دون أن تبدو عليه فرحة ولا دهشة..

وأحسست كأنه يستهين بي ، وبعقليتي..

لا يهم..

عدت أستعد للزيارة المرتقبة.. واحترت هل أستقبل الحاج على وأنا ارتدى البدلة ، أم الجلباب.. فكرت كثيراً.. ثم قررت أن أرتدى البدلة وطلبت من عبد الفتاح أن يرتدى القميص والبنطلون اللذين يذهب بهما إلى المدرسة.. وأطاعنى كعادته دون أن ينظر فى عينى..
و...

وجاء الحاج على وولده خميس..
وارتفع صوته الضخم يملأ البيت ضجيجاً.. إن بيتى لم يتردد فيه كل هذا الضجيج من قبل.. خيل إلى أن جدرانها ستقع.. خيل إلى أنى خرجت من بيتى.. طردت منه.. وأصبحت فى الشارع ، بكل ما فى الشارع من ضجيج..

وجلس الحاج على ، وجلست قبالة..
وجلس ولده خميس.. وجلس عبد الفتاح قبالة..
وعزمت عليهما بطبق الكعك ، فأخذ كل منهما كعكة.. وأخذ عبدالفتاح هو الآخر كعكة..

والحاج على يتكلم.. إنه يتكلم وحده.. وأنا أبتسم.. وأهز رأسى دون أن أستطيع ملاحظة معانى كلامه.. وأنظر بين الحين والآخر إلى خميس وعبد الفتاح.. إنهما لا يتكلمان.. يختلسان النظر أحدهما للآخر دون أن يتكلما.. كيف أجعلهما يتكلمان.
وكان خميس قد انتهى من التهام كعكته ، فقمت أعزم عليه بكعكة أخرى ، وأنا أسأله :

- ما اسم مدرستك يا خميس..
وكننت أتمنى أن أصل من هذا السؤال إلى حديث يدور بين خميس وعبد الفتاح.. ولكن خميس لم يرد.. تولى الحاج على الإجابة عنه..
وعاد الحديث يتدفق من فمه الكبير ، ويملاً البيت ضجيجاً..
وانتهى خميس من التهام الكعكة الثانية ، ومد يده وأخذ كعكة ثالثة دون أن أعزم عليه.. ثم اختصر المسافة وقام ووقف أمام المائدة

يلتهم الكعك وقطع الحلوى.. بسرعة مذهلة.. إنه يبتلعها بلعاً.. وأنا
وعبد الفتاح ننظر إليه فى دهشة كأننا ننظر إلى أحد الحواة..
وصوت الحاج على يملأ آذاننا ، ولا نستريح منه إلا برهات متقطعة
يمد خلالها يده ويلتقط قطعة من الحلوى أو قطعة من الكعك يحشو
بها فمه ، ويعود إلى الكلام..

وقمت بمحاولة أخيرة.. نظرت إلى عبد الفتاح ، وقلت وأنا أعلق
على شفتى ابتسامة :

- لماذا لا تقوم وتلعب مع خميس فى حجرتك ؟

ونظر إلى عبد الفتاح شذراً كأنى أطلب منه شيئاً سخيلاً غاية السخف..

وقال خميس وهو واقف بجانب المائدة يلتهم قطع الحلوى :

- لا أريد أن ألعب..

وقال الحاج على فى صوته الضخم :

- خليهم يتهدوا شوية..

وسكت أنا..

يئست..

وعاد الحاج على يملأ البيت ضجيجاً.. وخميس يملأ فمه بالكعك
وقطع الحلوى.. وأنا وعبد الفتاح صامتان..
وانتهت الزيارة..

وقام الحاج على يصافحنى ويلصق أصابعى بعضها ببعض ،
والكلمات الضخمة تتدفق من فمه.. وخرج دون أن يصافح عبد الفتاح
كأنه لم يشعر بوجوده بيننا أبداً..

وقبل أن يخرج خميس ، استوقفته وحملت القليل الذى بقى من
قطع الحلوى ، ووضعتها فى جيبه كأنى أقول له :

- بالسم..

وصاح الحاج على :

- متشكر على الكرم يا حسنين أفندى.. والله الواد لا يستاهل

شيئاً.. إنه ولد ملعون..
وابتسمت كأني أوافق على رأيه..
خرج الحاج على وولده..
وأنا أشعر بالخيبة..
بالفشل..
ولا أستطيع أن أنظر في عيني عبد الفتاح..



ومر أسبوع آخر ، وأنا أشعر بكل لحظة يقضيها عبد الفتاح
وحده في غرفته.. وأشعر أنها لحظة عذاب.. وزهق ، وإحساس
بالنقص.. ولا أكف عن التفكير في مساعدته على الخروج من وحدته ،
وعزله ، وانطوائه وجعل حياته مليئة بأصدقاء كثيرين. يلعبون معه.
ويتكلمون معه. ويضحكون معه.. إنها مسئوليتي.. أنا أبوه.. وإذا
كنت قد أهملته طوال هذه السنين ، فعذري أنى لم أكن أدري. لم أكن
أدري أنه تعيش في وحدته..

وتشجعت. وسألته ونحن نتناول طعام الغداء :

– هل رأيت خميس ؟

وقال وهو يلوى شفتيه :

لا..

قلت كأني أتوسل إليه :

– لماذا لا تذهب لزيارته..

ونظر إلى كأنه يتهمني بالجهل ، وقال :

– إن الأطفال لا يتزاورون..

قلت :

– إذن.. قابله في الحارة..

قال :

– لماذا ؟

قلت :

- لتلعب معه..

قال فى صوت باتر لا يقبل المناقشة :

- لا أريد أن ألعب معه..

ولم أجد شيئاً آخر أقوله.. وعدت أفكر.. أياماً كثيرة وأنا أفكر.. ثم ساءلت نفسى.. لماذا لا أكون أنا صديقاً لعبد الفتاح.. ربما كانت عادة التصادق تبدأ بصداقة الابن لأبيه.. وقد عشت طول عمرى وأنا بعيد عن عبد الفتاح مشغولاً عنه بهواياتى.. بالساعات والأحذية ، والمطبخ.. لم أكن يوماً صديقاً له.. بل ربما كنت أقل من أب.. كنا غريبين ، نعيش فى بيت واحد.. فلماذا لا أحاول أن أكون صديقاً له.. لماذا لا أبدأ من جديد..

وقلت له ساعة العصر :

- تعال نخرج نتمشى قليلاً..

قال وشفته مملوطتان كعادته :

- لماذا ؟

قلت :

- لا لشيء.. ولكنى زهقان من البيت.. وأريد أن أشم الهواء..

ونظر إلى عبد الفتاح كأنه لا يصدق أنى أنا الآخر يمكن أن أكون

زهقاناً مثله.. ثم ابتسم ابتسامة كبيرة ، لم أرها من قبل.

وقال فى حماس :

- هل أرتدى القميص والبنطلون ؟

قلت وأنا أتهد كأنى فعلاً زهقان :

- لا.. لا يهم.. ضع حذاءك فقط..

وخرجنا - عبد الفتاح وأنا - نسير فى الطريق الخلوى القريب

من بيتنا عند أطراف الجيزة.. وجلبابانا يعفران الطريق من تحت

أقدامنا..

ووجدت صعوبة كبيرة فى أن أبدأ حديثاً معه.. لم أكن أدرى عما أحدثه... ولكن عبد الفتاح كان مرحاً منطلقاً ، وبدأ يسألنى عن أبى.. أى جده.. وعن بلدتنا.. وعن الساعات.. وبعد فترة وجدت نفسى منطلقاً فى حديث لا ينتهى... اكتشفت أن عبد الفتاح لم يكن يعلم شيئاً عنى ، ولا عن عائلتنا ولا عن هواياتى.. واكتشفت أن له عندى حديثاً طويلاً.. طول عمرى طول الحياة كلها..

وعدنا إلى البيت بعد الغروب ، وكل منا يشعر بالمرح.. يكاد يطير عن الأرض.. وجلسنا نتناول عشاءنا بشهية مفتوحة.. لم أر أبدأ عبد الفتاح يأكل بهذه الشهية.. ويأكل كل هذه الكمية.. ونمنا سعداء هذه الليلة..

وبدأنا نخرج - عبد الفتاح وأنا - كل يوم ، ساعة العصر ، ونتمشى فى الطريق الخلوى.. وكنا نمر دائماً على قطعة أرض فضاء يلعب فيها الأولاد الكرة.. وكنت كلما أرى الأولاد يلعبون ، أحس كأن قلبى يتململ.. وأحس بأمل مخنوق يقف فى حلقى. إنى أتمنى أن أرى عبد الفتاح يعلب الكرة مع الأولاد.. ثم إنى أعلم أنه لا يكفى أن يقتصر عبده على صداقتى.. إنه فى حاجة إلى صداقة مثل هؤلاء الأولاد الذين يلعبون الكرة..

ولكن عبد الفتاح لا يثيره منظر الأولاد الذين يلعبون الكرة.. ولا يتوق لتتبع لعبهم.. ولا يبدو عليه أنه متأثر لأنه لا يلعب معهم ، أو أنه يتمنى اللعب معهم..

وبدأت أنا أتوقف كلما مررنا على الأولاد الذين يلعبون الكرة.. ويقف عبد الفتاح بجانبى دون أن يشعر بصخب الأمل الذى يجيش فى صدرى..

والأمل يزداد صخباً..

الأمل فى أن أرى عبد الفتاح يوماً يلعب الكرة مع أصدقائه.

أصبح هذا الأمل هو كل حياتى..

وأخيراً.. لم أطق أن أخفى أملى ، قلت لعبد الفتاح ونحن واقفان
نرقب الأولاد الذين يلعبون :
- لماذا لا تلعب معهم..
قال :
- إنى لا أعرفهم..
قلت :
- من السهل أن تعرفهم..
قال :
- لا أريد أن ألعب الكرة.. إنى لا أعرف كيف ألعبها..
قلت :
- من السهل أن تلعبها..
قال :
- كيف ؟

ولم أكن أدري كيف.. ولكنى لم أعد أستطيع أن أتخلص من
أملى.. أريد أن أرى ابنى له أصدقاء غيرى.. وأريد أن أراه يلعب
معهم.. ويلعب الكرة... ثم إنى أريد أن أعود إلى هواياتى.. إلى
ساعاتى.. وأحذيتى.. وإلى المطبخ..
وأصبحت أطيل الوقوف أمام ملعب الأولاد ومعى عبدالفتاح..
وأتعمد الابتسام كلما اقترب منا واحد منهم ، لعله يبادلنى
ابتسامتى.. وفى مرة جاءت الكرة ناحيتنا وجاء خلفها ولد ليلتقطها..
فابتسمت له ابتسامة كبيرة ، وقلت له :
- ما اسمك يا شاطر..

ونظر إلى الولد نظرة قاسية ، فيها ازدراء واستخفاف ، والتقط
الكرة وجرى بعيداً ، دون أن يقول لى اسمه..
وخيل إلى ساعتها أن وجه عبد الفتاح قد احتقن.. كأنه شعر
بالخجل.. ولكنه ظل صامتاً.. لم يتكلم.. والواقع أننا فى الأيام

الأخيرة لم نكن نتكلم كثيراً.. كأن الكلام قد فرغ من بيننا.. وبدأ كل منا يشعر أنه يبتعد عن الآخر.. كأننا التقينا.. لنفترق..

ولكنى كنت لا زلت مصمماً على أن يلعب عبد الفتاح الكرة مع الأولاد..
وفى مرة قذف الأولاد الكرة ، وجاءت ناحيتنا.. وجاء ولد يجرى خلفها.. وأسرعت والتقطت الكرة قبل أن يلحقها الولد ، وحملتها بين يدي ، وقدمتها لعبد الفتاح كأنى اصطدت له صيداً ثميناً ، وقلت له وأنا أبتسم فى إغراء :

- خذ.. شوط..

واحتقن وجه عبد الفتاح حتى أصبح فى لون الجزرة ، وهز رأسه فى عنف وهو يكرر :

- لا.. لا.. لا يا بابا..

وجاد الولد يجرى خلف الكرة ، وصاح :

- هات الكرة يا عم..

ونظرت إليه وقلت له فى رجاء :

- انتظر قليلاً..

ثم مددت يدي بالكرة إلى عبد الفتاح وأنا أصرخ فيه :

- خذ شوط يا عبد الفتاح..

وعاد عبد الفتاح يهز رأسه فى عنف ، كأنى أطلب منه أمراً منكراً، ويقول كأنه يهم بالبكاء :

- لا.. بلاش يا بابا..

والولد صاحب الكرة يصرخ :

- يا عم هات الكرة..

والتفت إليه وصرخت فيه وأنا أحس أن أعصابى كلها قد التفت حول الكرة..

- قلت لك انتظر قليلاً..

وعدت أرجو عبد الفتاح أن يشوط الكرة..

وعبد الفتاح يرفض..
وتجمع حولنا بقية الأولاد الذين يلعبون ، وصاح كبيرهم :
- سيب الكرة يا رجل..
ولكن لا.. لن أترك الكرة.. يجب أن يشوطها عبدالفتاح.. يجب..
يجب..
واحتضنت الكرة إلى صدرى بكلتا يدي ، وبكل قوتي ، وعدت
أتوسل إلى عبدالفتاح أن يشوطها..
وعبدالفتاح يرتعش..
وجهه أحمر كالجزرة..
وعيناه متجمعتان للبكاء..
ومد كبير الأولاد يده يحاول أن يخطف الكرة منى.. ولكن ، لا..
مستحيل.. يجب أن يشوطها عبدالفتاح أولاً..
ولا أدري ماذا حدث بعد ذلك.. ولكنى شعرت بالأولاد
يدفعوننى.. ثم وجدت نفسى واقعاً على الأرض.. وشعرت بضربة
فى جنبى.. وسمعت عبد الفتاح يصرخ.. بابا.. بابا.. ثم وجدته يقع
على الأرض بجانبى.. وأنفه ينزف دماً..
وأخذ الأولاد الكرة.. وهم يصيحون.. «العجل وقع ، هاتوا
السكين»..
وعبدالفتاح يبكى.. يبكى بحرقة..
وقمت من على الأرض، وعدلت نظارتى فوق أنفى ، وأخذت
أنفص التراب عن جلابى ، وعن جلاباب عبد الفتاح ، وأجفف له الدم
الذى ينزف من أنفه ، وأمسح له دموعه..
وسرنا إلى البيت.. صامبتين.. لا يستطيع أحدنا أن يرفع عينيه
إلى الآخر..
وكلب أسود صغير ، بارز العظام معمص العينين ، يسير خلفنا ،
ويتمسح فى ساقى عبد الفتاح ، ويهز ذيله..

ونظر عبد الفتاح إلى الكلب من خلال دموعه.. ثم انحنى يربت
على ظهره..
ووصلنا إلى البيت..
والكلب معنا..
ودخلنا.. ودخل الكلب معنا..
وأسميناه «عنتر» لأن لونه أسود.. وعبد الفتاح يحبه.. وهو يحب
عبد الفتاح.. وأنا أهوى تصليح الساعات.. وترقيع الأحذية ، وطهو
الأطعمة.. وكل مشكلتي أن الناس يضربون عنتر كلما رأوه ،
ويقذفونه بالطوب.. لأنه... نجس..



معهد الأحياء

كان فى العشرين من عمره.. قصيراً، قبيح
الخلقة، أنفه أفطس، وشفته منتفختان كبالونة
علقت فى مقدمة وجهه..



وكان يؤمن بأن الحب، والفن، والخيال، هى
حرفة الأغنياء.. ليس من حق الفقير أن يحب،
ولا أن يدخل إلى متحف الفنون ليتأمل لوحة
من اللوحات الفنية، ولا أن يجلس مسترخياً ويرسم صوراً من
خياله.. إن الفقير ليس له إلا حرفة واحدة، وهى أن يبحث عن غذاء
بطنه.. أن يأكل !
وقد كان فقيراً..

ولكنه لم يكن يريد أن يحترف الأكل، وملء بطنه..
إنه يريد أن يحب، وأن يمتع نفسه بالفن، ويمضى حياته فى
الخيال.

وكان يعرف الفتاة التى يريد.. إنها «نسليار» ابنة الأمير عمرو..
لقد أحبها من صورتها التى تنشرها لها الصحف.. وصورة أخرى
كبيرة معلقة فى فترينة المصور «ألبان» بشارع قصر النيل.. وكان
يحتفظ بكل هذه الصور التى تنشرها الصحف، وكان يذهب كل يوم
ويقف أمام فترينة المصور، وينظر إليها، وكان يذهب إلى الحفلات
التي تقام فى الأوبرج، أو فى دار الأوبرا، ويقف عند الباب ليشاهدها
داخلة.. وينتظر فى الليل البارد، حتى يراها خارجة..
ولكن..

ليس من حق الفقير أن يحب.. إن الحب هو حرفة الأغنياء!!
وقرر أن يكون غنياً ليحترف الحب.. حب نسليار..
واشتغل عند تاجر يهودى ليتعلم منه أسرار التجارة.. ولكن
مضت شهور طويلة، ثم اقتنع أنه لن يتعلم شيئاً.. وأن أسرار اليهود

لا يمكن أن يتعلمها إلا اليهود..

واشتغل عند أحد المحامين.. واكتشف أن أبواب المحامين لا تؤدي إلا إلى مزيد من الفقر..

واشتغل في أكثر من عشرين مهنة.. ولكن، لا أمل.. إنه سيبقى فقيراً، وخير له أن يستسلم للفقر، ويتفرغ لحرفة ملء بطنه.. أن يكتفى من الدنيا بالأكل..

ثم فجأة تنبه إلى أنه يملك موهبة كبيرة.. موهبة خفة الدم.. إنه جيد إلقاء النكتة.. ويجيد التعليق الساخر الجريء.. وأصدقائه لا يكفون عن الضحك كلما اجتمعوا به.. بل إنهم يسعون إليه ويلحقونه ليضحكهم.. وقد كان يضحكهم بالمجان.. كان يمارس موهبته كهواية..

لماذا لا يحترف خفة الدم !؟

لماذا لا يتاجر بالنكت، والتعليقات الساخرة !؟

وبدأ ينتقى الأصدقاء الذين يضحكهم.. ليس من حق كل الأصدقاء أن يضحكوا، إنما فقط الأصدقاء الأغنياء ذوو النفوذ، الذين يستطيعون أن يسخوا عليه بكرمهم، وأن يضعوا نفوذهم في خدمته..

وجمع حوله فريقاً من الأصدقاء متوسطى الثروة، متوسطى النفوذ.. ثم بدأ يتسلل إلى طبقة أرقى من الأصدقاء، طبقة أكثر مالاً ونفوذاً.. ثم طبقة أرقى.. وأرقى.. إلى أن أصبح معروفاً في الطبقة العليا.. وأصبح من بين من يضحكهم، وزراء، وأمراء، وباشاوات..

وهو في خلال ذلك يشتغل نفوذ هؤلاء الضاحكين في القيام بخدمات تدر عليه مالاً.. يتوسط في تعيين الموظفين لقاء أجر.. ويحصل للتجار على أذن الاستيراد والتصدير، نظير أجر.. و.. و.. وجمع الألف جنيه الأولى.. والألف الثانية.. والألف الثالثة..

والرابعة.. والخامسة..

وهو لا يزال يحب نسليار..

وسعى حتى أصبح من أصدقاء والدها الأمير عمرو.. أصبح مضحكاً للأمير.. وكان يعتنى بإضحاكه جداً.. يحتفظ له بأحلى نكاته، ويجهد عقله ليختار له ألطف التعليقات الساخرة وأجراها.. وأصبح يرى نسليار.. يراها عندما يذهب لزيارة والدها.. يراها فى الحديقة.. وأحياناً يجلس معها على مائدة الغداء... وأحياناً يرافقها هى ووالدها إلى إحدى الحفلات.. ويحاول دائماً أن يضحكها..

ولكن نسليار تعامله باحتقار.. تعامله كخادم.. حتى عندما تضحك لنكاته، يحس فى ضحكتها احتقاراً له..

إنه لا يزال فقيراً.. وليس من حق الفقير أن يحب ! وأقبل على جمع المال بشراهة.. يريد أن يكون غنياً.. أغنى من الجميع.. حتى يحترف الحب، والفن، والخيال..

وأصبح يملك عشرة آلاف جنيه.. وخمسة عشر ألفاً.. وعشرين ألفاً.. وثلاثين.. وهو يقتر على نفسه ليزيد من رصيده فى البنك.. ويذهب إلى البنك كل صباح ليراجع هذا الرصيد.. وليجلس مع المدير والموظفين يطمئن على أمانتهم بنفسه، حتى لا يتلاعبوا برصيده.. ومضت عشرون عاماً..

واقتنع أنه أصبح غنياً..

وبدأ يمتع نفسه بالفن.. بدأ يذهب إلى معارض الفنون ويتأمل اللوحات طويلاً.. ثم بدأ يشتري هذه اللوحات.. ولكنه لاحظ فى نفسه شيئاً غريباً.. إنه يهتم بثمن اللوحة أكثر مما يهتم بقيمتها الفنية.. ويسائل نفسه : هل تبقى اللوحة محتفظة بثمنها على مر الزمن.. أم أن ثمنها يمكن أن يقل.. أم يمكن أن يزيد.. فإذا وجد أنها

تظل محتفظة بثمنها، أو يمكن أن يزيد ثمنها.. اشتراها..
وبدأ يمتع نفسه بالخيال.. كان يجلس مسترخياً ساعات طويلة
يرسم خلالها صوراً من خياله.. ولكنه لاحظ أن كل ما يرسمه هو
صور مشروعات اقتصادية.. مشروعات تدر عليه مزيداً من المال..
ونسليار !!

إنها لا تزال تحتقره.. وقد أهداها صندوقاً من «السيفر» كلفه
مائتى جنيه.. وأهداها سواراً من الذهب، ثمنه مائة وخمسون جنيهاً..
وأرسل لها أكثر من باقة ورد.. وهى تتقبل هداياه، ثم تمنحه مزيداً
من الاحتقار والتعالى عليه..
ثم قامت الثورة..

وأصبحت نسليار ووالدها فقيرين..
إنه الآن أغنى منهما.. لم يعد فى حاجة إلى إضحاك الأمير.. ولم
تعد نسليار تستطيع أن تحتقره..
وبدأت نسليار تبتسم له.. ومنحته يدها ليقبلها، ويضغط عليها
بشفتيه المنتفختين... ثم قبلت دعوته لتناول العشاء.. وقبلت أن
تراقصه..

ولكنه لم يصل إليها بعد..
وطلباتها منه لا تنتهى.. وآخر ما تطلبه عربوناً لحبه، عشرة آلاف
جنيه لتوظيفها فى مشروع جديد.. وهو يستطيع أن يدفع لها العشرة
آلاف جنيه.. ولكن.. إن هذا المبلغ لن يسترده.. ونسليار رغم أنها لا
تزال جميلة، إلا أنها أصبحت فقيرة وعلاقته بها قد تسيء إلى مركزه
ومركز مشروعاته الكثيرة.. إنها - فى الواقع - لا تساوى عشرة
آلاف جنيه..

وأحس أنه لا يريد نسليار..
لا يحبها..

وجلس يفلسف حياته من جديد..
إن الحب، والفن، والخيال، ليس حرفة الأغنياء.. إن الأغنياء
يحولون الحب إلى نقود، ويحولون الفن إلى نقود، ويحولون الخيال
إلى نقود.. إن الأغنياء لا يحترفون إلا حرفة واحدة.. هي : أن يكونوا
أغنياء !!
والحب، والفن، والخيال.. حرفة الفقراء..



النار...!

فتحت عينيها على الحياة لتجد نفسها فى يد
امرأة عجوز مهلهلة الثياب ، تطوف بها فى
الشوارع تستجدى المارة والجالسين على
المقاهى.. ثم تعود بها فى آخر اليوم إلى رجل
شرس مخيف ، يتسلمها ويلقى بها على الأرض
بين أطفال مثلها..



وكبرت قليلاً.. وعرفت أنها لقيطة.. وأن هؤلاء الأطفال الذين
ينامون معها ، لقطاع مثلها.. وأن هذا الرجل الشرس ، يتجر بها.. إنه
يؤجرها للشحاذين ، ليستدروا بها عطف المحسنين ، لقاء ثلاثة
قروش فى اليوم..

وكبرت أكثر.. ووضع الرجل الشرس فى يدها مجموعة من
أوراق اليانصيب ، تطوف بها على مدمنى الحظ.. ثم تعود إليه قبل
النصف الأول من الليل ، لتضع فى يده النقود.. كل النقود..
وعرفت أنها جميلة.. ليست جميلة كالبنات اللاتي تراهن فى
شارع قصر النيل وسليمان باشا ، وهى تباع اليانصيب.. ولكنها
أجمل البنات الحافيات الأقدام ، المهلهلات الثياب.. بشرتها فى لون
البن المحمص.. وعيناها مشروطتان مكحلتان.. ووجهها باسم..
وجسدها ملفوف ، ملىء ، مثير.. وكل الرجال يغازلونها.. الرجال
الذين يبيعون معها اليانصيب ، والرجال الذين تباع لهم اليانصيب.
ولكن كان فيها شىء آخر غير جمالها..

إنها دون كل بنات اليانصيب.. تتميز بشخصية عارمة.. إنها لا
تضحك للرجال.. ولا تتقبل غزلهم.. وهى حريصة على شرفها.. ولم
يكن أحد قد علمها معنى الشرف.. ولا معنى كلمة الكرامة.. إن البنات
حولها ليس لهن شرف ولا كرامة.. ولكن فى دمائها شىء يجعلها
تثور دائماً كلما اقترب رجل من شرفها أو من كرامتها.. وهى تعرف

دائماً كيف تدافع عن نفسها.. بل تعرف كيف تدخل معركة بيديها
وأسنانها وأظافرها ، ولسانها ، دفاعاً عن شرفها وكرامتها..
ولكن الرجل الشرس الذى يؤويها ، وجد فيها شيئاً جديداً يتاجر
به.. كانت تسمعه وهو يعد الرجال بها.. بجسدها.. وكان يصحبها
أحياناً ثم يتركها لرجل.. وكانت دائماً تثور.. وتنجو بشرفها
وكرامتها.. والرجل يقسو عليها أحياناً ، ثم يعود فيهدأ حتى تبيع له
اليانصيب.. إنها أنشط البنات فى بيع اليانصيب.. إنها ثروة!
وجاء اليوم الذى عرفت فيه أنها لن تستطيع أن تستمر وحدها
فى الدفاع عن شرفها وكرامتها.. كان يجب أن تبحث عن رجل
تحتوى به.. رجل تتزوجه..
واختارت زوجها بنفسها..

كان سيد عقله ، رجل يكبرها بكثير.. يطوف على المقاهى
بصندوق سجائر.. ولم يكن قوياً ولا ثرياً.. كان فقيراً ، بالنسبة
لكثيرين من أمثاله ، وكان مصدوراً أصفر الوجه ، ولكنه كان هادئاً
محترماً يلجأ إليه رؤساء عصابات اليانصيب وأعقاب السجائر ،
فيفض منازعاتهم ، ويحكم بينهم.
وكانت تعرف أنه يريد لها.. ولكنه كان يحترم نفسه ، فلا يغازلها ،
ولا يحاول الاعتداء على شرفها وكرامتها..
وبدأت تشكو إليه متاعبها وحالتها.. وبدأ يتولى أمرها ، ويقف
بجانبها فى وجه الرجل الذى تعيش مع.. ثم فاجأته ذات يوم قائلة :
- تتجوزنى يا معلم سيد ؟
وابتسم المعلم سيد ، وقال فى هدوء :
- أتجوزك يا نعيمة..

وتزوجها سيد.. وصممت على أن يكون زواجها على سنة الله ورسوله ،
وعلى يد مأذون.. لا زواجا عرفياً شفويماً كما يجرى زواج زميلاتنا..

ولم يكن يهتمها أن سيد له زوجة أخرى.. كان كل ما يهتمها أنه
رجل محترم يستطيع أن يصونها ويحميها..
وتركت الرجل الذي تعيش في بيته ، وهو يتوعدها.. وانقطعت
عن بيع اليانصيب.. وعاشت مع سيد في عشة من الصفيح ، فوق
سطح بيت قديم في تلال زينهم..
وبعد عام رزقت بولد أسمته محمود..
وبعد عام آخر ، ضاق صدر زوجها بمرضه.. ومات..
وعادت تباع اليانصيب ، وفوق كتفها محمود.. وهي لا تزال
شابة.. جميلة.. والرجال يغازلونها.. الرجال الذين يبيعون معها
اليانصيب ، والرجال الذين تباع لهم اليانصيب..
والتقت بعبده سنكر..
وكان عبده سنكر شاباً قوياً.. ذكياً.. استطاع أن يسيطر على كل
عصابات اليانصيب وأعقاب السجاير.. كان يملئ إرادته بعينيه..
وكان في جيبه سكين ، لا يشهره إلا نادراً.. فكان يكفيه أن يعلم من
حوله أن في جيبه سكيناً..
وأعجبت بعبده سنكر..
واشتد إعجابها ، حتى أصبح حباً.. واشتهاء.. إنها الآن امرأة من
حقها أن تشتت.. لا يكفيتها أن تجد رجلاً يحميها.. وبادلها عبده
الإعجاب.. ولكنه كان إعجاباً وقحاً.. إنه ينظر إليها كأنها شيء تافه..
شيء لا يكلفه احتراماً ولا اهتماماً.. واكتفى بأن وضعها تحت
حمايته.. إنها من أملاكه.. دون أن يسألها رأيها.. ودون أن يكلف
نفسه التودد إليها.. وابتعد عنها كل الرجال بعد أن اعتبروها من
أملاك عبده سنكر.. إنهم يخافونه.. فتركوها له وحده..
وبدأت تحس بضعفها أمام شخصيته.. تحس أنها لن تستطيع أن
تدافع عن شرفها ، وكرامتها.. لن تستطيع أن تقاوم طويلاً..

وقالت له يوماً ، وهى جالسة تحت أقدامه أمام باب المقهى :

- مش تتجوز يا عبده ؟

ونظر إليها ساخراً ، ثم قام من جلسته ، وقال لها فى لهجة أمرة:

- تعالى..

قالت وهى تهتم بالقيام :

- على فين يا عبده ؟

قال دون أن ينظر إليها :

- تعالى بس يا نعيمة.. بلاش كتر كلام !

وسار أمامها وهى وراءه ، تجذبها شخصيته المسيطرة.. ودخل
إلى عشته.. ودخلت وراءه..

ولم تستطع أن تقاوم طويلاً..

استسلمت.. لأول مرة بلا زواج !

وعاشت معه... تنام وبجانبها ابنها محمود... إلى أن يدخل عبده ،
فيأخذ من جسدها ما يريد ، دون أن يتكلم كثيراً.. وابنها محمود
بجانبها..

وانقضت شهور قليلة.. شهر.. شهران.. ثم بدأ عبده يمتنع عن
التردد عليها..

وبدأت تلاحقه.. لاحقته كثيراً.. فرطت فى كل ما بقى من
كرامتها.. إلى أن دفعها يوماً فى صدرها ، وهو يصرخ :

- غورى من وشى.. هيه تلقيحة.. باقولك غورى.. أحسن واللى
خلقك ، أطينها على دماغك..

وصرخت كالنمرة الجريحة ، واندفعت إليه تحاول أن تنشب
أظافرها فى عنقه.. ولكنه كان أسرع منها.. وصفعها صفة قوية بيد
كقطة الحديد.. فسقطت على الأرض.. سقطت فى الطين..

والرجال والنساء من حولها يضحكون..

وعرفت أنها لن تستطيع أن تعيده..
وعرفت أنها لن تستطيع أن تتأثر لشرفها وكرامتها الذبيحة..
ولكن.. هناك شخص يستطيع أن يثأر لها.. محمود.. ابنها
محمود.. إنه يستطيع أن يثأر لشرف أمه وكرامتها..
وبدأت تضع المليم فوق المليم.. والقرش فوق القرش.. حتى
استطاعت أن تشتري سكيناً حادة ، وضعتها فى يد ابنها محمود ،
وهو لا يزال فى الخامسة من عمره.. وأخذت تحدثه عن عبده سنكر
الذى يجب أن يقتله..

ولم يكن محمود يفهم حديثها.. ولا يفهم معنى للسكين التى
تخرجها أمه من تحت ثيابها ، وتضعها فى يده ، وتعلمه كيف يقتل
بها..

وكبر محمود، أصبح فى الثالثة عشرة من عمره ، وفهم حديث
أمه.. إنها تقول له إنه يجب أن يثأر من عبده سنكر.. لأنه قتل أباه..
وشرد أمه..

وذهب محمود ليرى عبده لأول مرة..
إنه لا يحس نحوه بكراهية.. يحس أن أمه تكذب عليه.. لا يستطيع
أن يصدق أن عبده قتل أباه.. بل إنه معجب بعبده.. معجب
بشخصيته.. وقوته.. وسيطرته على كل الرجال والأولاد..

وعرفه عبده.. وناداه :

- تعال يا محمود..

ثم أخرج بضعة أوراق يانصيب ، وقال له :

- خذ دول بيعهم.. وارجع لى آخر النهار..

وأحس محمود بالزهو على قرنائه لأنه أصبح يعمل فى خدمة
عبده.. واجتهد فى بيع أوراق اليانصيب.. وقربه عبده إليه أكثر..
وأكثر.. وتباهى محمود بصداقة عبده ، أكثر.. وأكثر.. إلى أن سمع

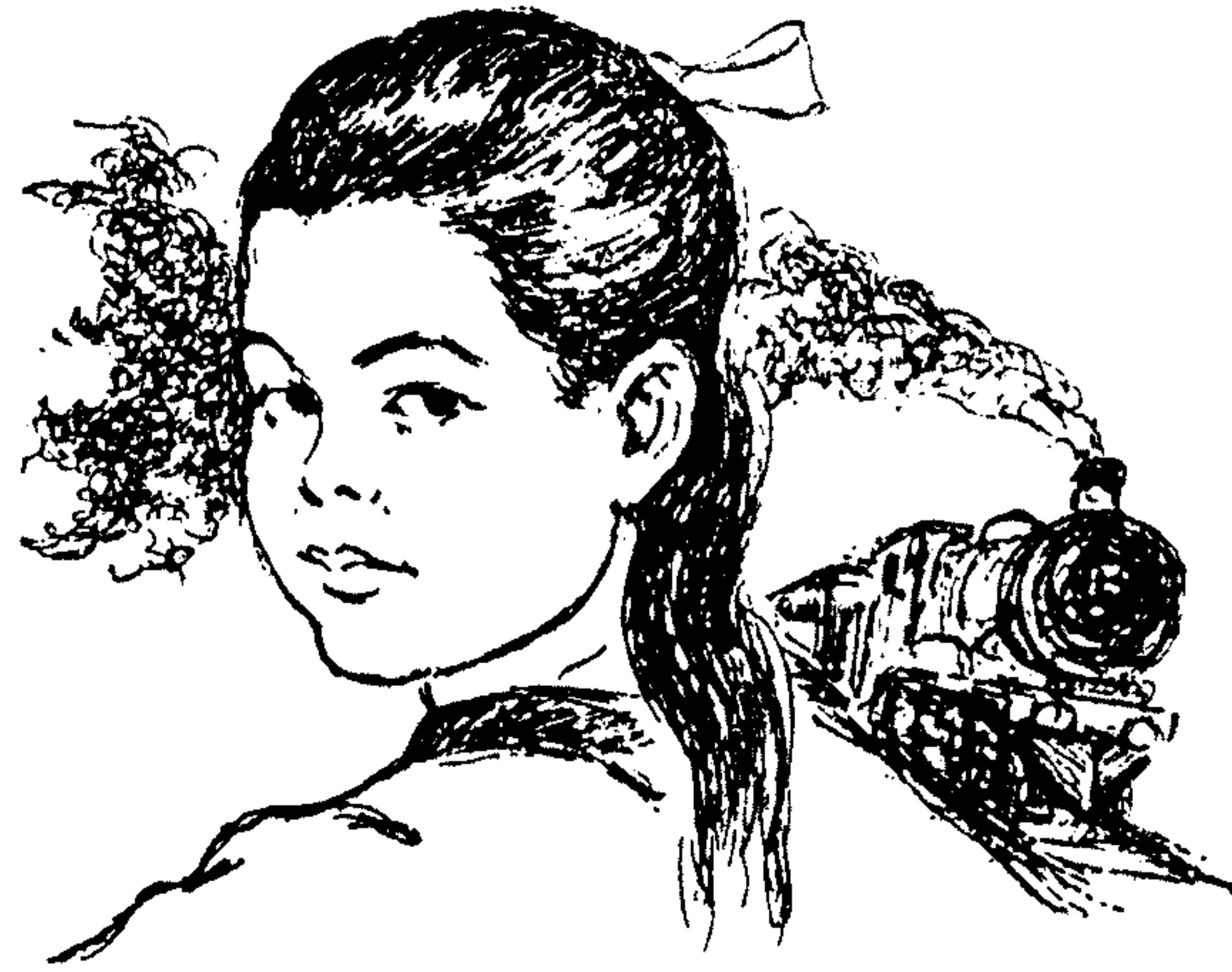
يوماً أحد الأولاد يقول لزميله :
- الواد ابن نعيمة ده طالع فيها.. ما حدش قادر يكسر أنفه..
اكنن أمه كانت رفيقة عبده..
ولم يصدق أذنيه.. وبدأ يستعيد حديث أمه.. هل كانت تريد منه
أن يقتل عبده لأنه كان عشيقها..
وبدأ يحتار.. وينظر إلى أمه بعين جديدة.. ويرى فيها بقعاً من
الدماء.. دماء شرفه المثلوم ، وكرامته المباحة.. وبدأ يحس كأنه
يكرها.

وتشاجر يوماً مع الأولاد ، وصاح فيه أحدهم :
- ما تروح تتشطر على أمك ، اللي كانت مرافقة عبده سنكر.. ده
يظهر أن عبده مرافقك انت كمان..
وجن محمود..

وأمسك بزميله الصغير ، وأخذ يضرب رأسه فى الأرض ، حتى
كاد يقتله.. ثم جرى المجنون إلى بيته ، وأخرج السكين التى اشتريتها
أمه ، وهمّ أن يعود.. لا يدرى إلى أين.. ولكن السكين فى يده.. وهو
يريد أن يقتل..

وصاحت أمه وراءه كأنها تزغرد :
- أنا جاية معاك.. نفسى أشرب من دمه.. دمه كله مش حايطفى
نارى..

والتفت إليها المجنون..
وفى لمحة واحدة.. هجم عليها ، وأطلق السكين فى صدرها.. فى
صدر أمه.. ثم رفعها.. وعاد يطعنها. ويطعنها.. ويطعنها..
ثم وقف فوق جثتها هادئاً..
وسقطت السكين من يده..



البنت عه أمي

لن أستطيع أبداً أن أنسى مها..
كنا أطفالاً صغاراً، وكانت مها فى مثل
عمرى.. تقيم مع عمته وزوج عمته، فى
شارعنا.. شارع يشبك بالعباسية.. سمراء..
واسعة العينين.. صغيرة الأنف... مكتنزة
الشفتين.. تترك شعرها الأسود الغزير ينسدل
فوق كتفها، ويتدلى فوق جبينها فى إهمال.. كانت جميلة.. جميلة
جداً.. جمالها أكبر من سنها.. ولكنه كان جمالاً فيه نوع من القوة
والشراسة والعناد.. كجمال القطاة البرية.. حيوان جميل لم
يستأنس..



وكنا نسمع من أمهاتنا قصصاً كثيرة عن مها.. وكنا نعلم أن أمها
هربت عقب ولادتها مع ضابط بوليس، وذهبت لتقيم معه فى
الإسكندرية.. وأن أباه كان رجلاً عجوزاً.. يكبر أمها بأكثر من
عشرين عاماً.. مات عقب فرار زوجته متأثراً بالصدمة.. وعاشت مها
فى رعاية عمته وزوج عمته اللذين لم ينجبا أطفالاً..
ولم تكن قصة أم مها تذكر إلا همساً.. كانت قصة تمثل أكبر
فضيحة وقعت فى حى العباسية فى ذلك الجيل.. وكانت عائلة مها لا
تذكر هذه القصة أبداً، بل كان محرماً على أفرادها أن يتفوهوا باسم
الأم الخاطئة.. اعتبروها ماتت.. وحاولوا إقناع مها بأن أمها ماتت..
ولكن مها عرفت قصة أمها كما عرفناها.. لا أدرى كيف.. وسمعتها
مرة تقول لعمته فى حدة :

– أريد أن أذهب إلى أمى..

وقالت عمته والهلع يطل من عينيها :

– أنا أمك.. ليس لك أم إلا أنا..

وقالت مها وعيناها المتوحشتان تبرقان فى تحد :

- لا.. أنت لست سوى عمتي.. إنى أعلم أن أمى فى الإسكندرية..
وسأذهب إليها يوماً.. سترين.. سأذهب إليها يوماً..
ثم تركت عمته المذهولة، وجذبتنى، من يدي، وخرجنا نلعب فى
الشارع..

وكانت لعبة مها المفضلة هى لعبة «القطار».. كانت تصفنا الواحد
وراء الآخر.. أولاداً، وبنات.. وكل منا يمسك بذيل ثوب الآخر.. ثم
تتقدمنا.. وتجري ونحن نقلد صوت القطار..
وكانت تبدأ اللعبة فى هدوء.. ثم تزيد سرعة الجرى.. وتسرع
أكثر.. وأكثر.. وتصرخ فينا وهى فى حالة هستيرية :
- ارفعوا أصواتكم.. توت.. توت.. اجروا بسرعة.. لقد قربنا على
الإسكندرية..

ثم كانت تصرخ فى فرح وأنفاسها تلهث :

- سيدى جابر.. إسكندرية.. إسكندرية..

وكانت تتجه بالقطار فى كل مرة إلى الإسكندرية.. لم تفكر مرة
فى أن تقودنا إلى بورسعيد.. أو إلى سوهاج.. دائماً إلى
الإسكندرية.. حيث ذهبت أمها..

واللعبة الثانية التى كانت مها تفضلها هى «لعبة العرائس»..
وكانت هى دائماً العروسة.. وتختار واحداً من الصبية ليمثل دور
العريس.. ثم يشترك باقى الأولاد والبنات فى تمثيل زفة العروسة..
وفى إحدى المرات، لعبنا هذه اللعبة فى بيت مها.. ولم تكن عمته
موجودة.. ودخلت مها إلى غرفة عمته، وأخذت ثوبها.. ثوباً أبيض..
ولفته حول جسدها لتبدو كالعروسة.. وأخذت شالاً من الحرير
وضعته حول رأسها.. ثم كسرت الدرج الذى تحتفظ فيه عمته
بمصاغها، وتحلت بكل ما وجدته من مصاغ.. أساور ذهبية..
ومشابك.. وخواتم.. وعقود.. و «بندنتيف» من الماس.. ثم اختارتنى

أنا لأمثل دور العريس.. ووضعت ذراعى فى ذراعها، وبقية البنات والأولاد يغنون ويرقصون من حولنا.. ثم قادتنى إلى غرفتها فى البيت.. ودخلت أنا وهى، وأغلقت وراءنا الباب.. كما تفعل العروس والعريس..

وكنت أنا فى الثامنة من عمرى، ولا أدرى شيئاً مما يفعله العروس والعريس فى حجرة النوم.. فوقفت أنظر إلى مها فى غباء.. ورأيتها ترقد على السرير، وهى ملتفة بالثوب الأبيض، وقطع المصاغ الكثيرة منتشرة فوق جسدها.. ثم قامت فجأة، وقبلتنى فوق خدى.. وفتحت الباب..

وجاءت عمته، وطردتنا من البيت وخرجنا ونحن نسمع صراخها فى وجه مها..

ولا أدرى من الذى أبلغ أمى بهذه الحادثة.. ولكنها علمت أنى دخلت مع مها حجرة النوم، وأغلقتنا وراءنا الباب.. فضربتنى ضرباً قاسياً.. وحرمت على أن أعب مع مها.. ثم ذهبت إلى العمه وشكت إليها من أن مها تفسد أخلاقى، وتطلعنى على أشياء لا يصح أن يعلمها الأطفال..

وأصبحت سمعة مها فى الحى سمعة سيئة.. وكانت أمهاتنا يقلن عنها دائماً أنها ستشبه كأمها، ويرددن المثل القائل : « اكفى السلطانية على فمها، تطلع البنت لأمها »..

واحتارت العمه وزوجها، فى تربية مها.. وفى كبت عنفها وشذوذها.. وكان الزوج يحاول دائماً أن يخيفها بعذاب النار فى الآخرة.. كان يحدثها كثيراً عن الجحيم الذى أعده الله للبنات اللاتى لا يطعن أهلهن، واللاتى ينحرفن فى طريق الرذيلة.. ولكن مها كانت تحفظ هذه القصص.. قصص الجحيم.. ولا تتأثر بها.. وفى مرة كنت معها، وكان زوج عمته يروى لنا قصة من قصص الجحيم،

وفجأة قالت له مها فى وقاحة :

- لقد سمعت هذه القصة من قبل.. حدثنى عن أمى..

وغضب زوج العمه لوقاحة مها.. وقام وضربها.. وظل يضربها بقسوة وجنون.. ومها لا تتحرك ولا تبكى.. إنما تنظر إليه بعينيها الواسعتين المتوحشتين، فى تحد ساخر.. حتى كلت يد الرجل فانصرف عنها وهو يلعنها..

ولم يعد أهل مها بعد ذلك يخفون عنها قصة أمها.. بدأوا يحدثونها عنها ويسبونونها ويلعنونها أمامها، ويرددون أنها جرت العار على العائلة، وأن عذابها عند الله عذاب كبير..

ومها تستمع إلى كل ذلك، ثم تقول فى هدوء :

- أريد أن أرى أمى..

وعندما بلغت مها الرابعة عشرة فرت من البيت !

خرجت دون أن تحمل معها ثياباً، أو نقوداً.. وسارت إلى محطة السكة الحديد.. ووضعت نفسها فى القطار المتجه إلى الإسكندرية.. ولكن مفتش القطار ضبطها، وأنزلها فى محطة طنطا، وأعادها البوليس إلى القاهرة.. إلى بيت عمته..

واستقبلتها عمته وهى لا تدرى كيف تدارى فضيحتها، وبعد صراخ كثير، قالت لها :

- لعلك الآن تعلمت ألا تهربى من البيت !

وقالت مها فى هدوء :

- سأهرب مرة ثانية.. سترين أنى سأهرب مرة ثانية.. سأذهب

إلى أمى !!

صرخت العمه :

- أمك ماتت.. لا يعرف أحد أين هى.. ماتت.. ماتت..

وقالت مها فى قسوة :

- لم تمت.. وسأذهب إليها !

ووضعوا مها تحت رقابة شديدة.. وبدأت عمته تعاملها كخادمة..
ولكن مها لم تسمح لأحد بأن يعاملها كخادمة.. فكانت تتكاسل فى
تلبية أوامر عمته وزوج عمته... فإذا طلبت منها العمة أن تأتى لها
بشئ - طبق صينى، مثلاً - تعمدت أن تحمله ثم تسقطه من بين
يديها على الأرض، فينكسر.. وإذا طلبت منها أن تصنع فنجالاً من
القهوة صنعته رديئاً.. ماء ساخناً ملوناً بلون البن..

ويئست منها عمته وتركتها فى حالها دون أن تكلفها بشئ..
وفى سن السادسة عشرة نفذت مها وعددها، وهربت من البيت
مرة ثانية .

وفى هذه المرة استطاعت أن تصل إلى الإسكندرية.. ولكنها لم
تكن تعرف عنوان أمها، ولا اسم الرجل الذى فرت معه. وتاهت مها
فى الزحام يوماً كاملاً.. ثم اضطرت أن تعود.. إلى القاهرة.. إلى بيت
عمته..

ولكنها عادت إنسانة أخرى..

يائسة.. حزينة.. تهرب من صديقاتها.. وتخلو إلى نفسها طويلاً..
كل ما بقى فيها من شذوذ، أنها أصبحت تجلس الساعات الطوال فى
نافذتها التى تطل على فناء كلية البوليس فى العباسية.. تنظر إلى
ضباط وطلبة الكلية، كأنها تبحث بينهم عن الضابط الذى هربت معه
أمها.

وتعود طلبة كلية البوليس أن يشاغلوها فى أوقات فراغهم.. وأن
يمروا تحت نافذتها كلما خرجوا فى إجازتهم. ولكن مها لم تقبل
غزل واحد منهم.. ولم تصده.. كانت تطل من نافذتها تتلقى غزلهم
صامتة.. لا تبتسم.. ولا تنسحب..

وساءت سمعة مها فى الحى أكثر..

ومنعت الأمهات كلهن بناتهن من مصادقة مها أو من زيارتها..
بل إن الأمهات أنفسهن امتنعن عن زيارة عمتهن..
ثم فجأة حدث شيء غريب، أثار الحى.. فإن سمعة مها أصبحت
على كل لسان، بحيث اعتقدنا أن أحداً لا يمكن أن يتزوجها، وأنها
ستعيش عانساً طول عمرها..

ولكن هذا الرجل تقدم لخطبتها.. وهو رجل غنى.. تاجر كبير من
تجار النحاسين، ويسكن معنا فى العباسية.. كل عيبه أنه كبير.. فى
الخامسة والأربعين من عمره.. أكبر من مها بخمسة وعشرين عاماً..
وسبق له أن تزوج مرة وماتت زوجته.. وتزوج مرة ثانية، وماتت
زوجه أيضاً.. وهذه هى المرة الثالثة التى يتقدم فيها للزواج..
ورحب أهل مها بالرجل.. وجدوا فيه حلقة النجاة.. ولم يكن غناه
هو الذى أطمعهم فيه، بقدر رغبتهم فى التخلص من مها.. ومن
شذوذ مها.. وتحميل مسئوليتها لأى رجل يتقدم لحمل هذه
المسئولية..

ولكنهم خشوا أن ترفض مها.. إنها عنيدة.. وهى مجنونة.. ولن
يستطيعوا أن يرغموها على شيء.. والرجل عجوز.. أكبر منها
بخمسة وعشرين عاماً.. وسترفض حتماً أن تتزوجه..
وما كادت مها تسمع النبأ، حتى ضحكت.. ضحكت أولاً ضحكاً
طبيعياً.. ثم بدأت تضحك ضحكاً هستيرياً، كأنها لن تكف أبداً عن
الضحك.. ثم قالت من خلال نوبة الضحك التى تستبد بها :
- موافقة.. سأتزوجه !

قبلت زواجه قبل أن تراه، وهى تعلم أنه عجوز..
وفى فترة الخطوبة أغرقها الرجل بهداياه.. هدايا ثمينة غالية، لم
ترها بنت من بنات الحى من قبل.. مجوهرات.. وحلى من الذهب..
وأمتار لا حصر لها من الحرير..

وبدأت بنات الحى وأمهاتهن يتوددن إلى مها، ويغرن منها.. وهى فرحة بتوددهن وغيرتهن.. إنها تتلذذ بنفاقهن.. وتعاملهن فى تعال وأنفة.. ثم توزع عليهن بعضاً من الهدايا التى يفيض بها عليها خطيبها.. حتى أنها أعطت أختى دبوساً من الذهب، فيه فص من العقيق.. وكأنها فى كل ذلك تتعمد إذلالهن، انتقاماً للكلام الكثير الذى قلنه عنها وعن أمها..

وكان فرح مها أكبر الأفراح التى شهدها حى العباسية.. فرح كبير غنى فيه عبد الوهاب.. ورقصت فيه أكثر من عشر راقصات.. وعوالم.. ومونولجست.. وأكثر من ألف مدعو.. ثم..

أتدرون ماذا حدث بعد ذلك..

لم يمر عام على الزواج، حتى هربت مها من زوجها..

أتدرون مع من هربت ؟

هربت مع ضابط بوليس !!



!وَأَنَا...

إن النقد الذى يوجه دائماً إلى اللوحات التى
أرسمها ، هو أن كل النساء اللاتى أرسمهن ،
هن امرأة واحدة.. وجه واحد يتكرر فى كل
لوحة..



وهذا صحيح..

إن هناك وجهاً واحداً يسيطر على فرشاتي ،

ولا أستطيع أن أتخلص منه..

وجه نعيمة..

ونعيمة هى حبي الأول..

ولا أدري متى أحببتها.. ربما أحببتها منذ ولدت.. ولكنى لم أتنبه

إلى هذا الحب ، إلا عندما بلغت السادسة عشرة من عمري..

وكنا أيامها نسكن فى حارة العنبة ، بالسيدة زينب.. أمى وأخى

وأنا.. وكانت نعيمة تسكن فى البيت الملاصق لبيتنا.. كانت أكبر

منى.. كانت فى العشرين من عمرها.. وكان لها أربعة إخوة كبار

يسيطرون على الحارة كلها.. ويفترشون حصيرة أمام بيتهم ،

ويدخنون الحشيش.. ولم أكن أدري من أين يتكسبون.. كنت أعرف

أن أحدهم يشتغل سائق لورى.. والثانى يعمل فى مصنع نسيج..

والثالث والرابع يبحثان عن عمل.. ولكنى كنت أراهم طول النهار

جالسين على الحصيرة أمام باب البيت ، يدخنون الحشيش..

وينشرون الرعب فى الحارة.. وكنت أخافهم.. وكنت أحب أختهم

نعيمة..

وكنت أعود من المدرسة ملهوفاً ، وأقف أمام شباك بيتنا.. وتخرج

نعيمة وتقف فى شباك بيتها.. وتبتسم لى.. وأبتسم لها.. وأمسح

بيدى على شعري ، إشارة إلى أنى أحييها.. سلام شعري.. وتمسح

بيدها على شعرها.. ونقف هكذا ساعات طوالاً.. لا نمل الوقوف.. ولا

تمل عيناى عينيها.. ولا نمل الابتسام.. وكنت أمسك بورقة وقلم وأرسم لها صورتها.. رسماً سانجاً ، فقد كنت لا أزال مبتدئاً.. ثم أطوى الورقة على شكل سهم ، وأقذف بها إليها.. وتلتقطها ، وتفرح بها.. وتتسع ابتسامتها..

كم صورة رسمتها لها ؟ عشرات !

وكنت لا أتحرك من أمام الشباك.. وأمى تلاحظنى وتسكت.. وأخى الكبير ، يرانى فيهبزأ بى.. ويحاول أن ينهرنى ، ويشدنى بعيداً عن الشباك.. ولكن ، محال.. بل إنه كان يحدث أن يزورنى بعض أصدقائى فى البيت ، فأستقبلهم وأنا بجانب الشباك ، وأجلس معهم ، وأترك ذراعى مطلقه على حافة الشباك ، حتى تعرف نعيمة ، أنى لست مشغولاً عنها.. فإذا خرج أصدقائى ، عدت أطل عليها من الشباك ، فأراها لا تزال فى نافذتها.. تبتسم لى.. ولم يكن هذا هو كل شىء..

كانت نعيمة تخرج أحياناً من بيتها ساعة الغروب.. وتشير إلى لألحق بها.. فأخرج من البيت مندفعاً كأنى ألقى بنفسى من النافذة.. ولا أكاد أصل إلى الطريق ، حتى أدهى الهدوء ، وأسير أمام إخوتها الأربعة الجالسين أمام الباب ، وقلبى يدق حتى أخاف أن يسمعوا دقاته.. ثم أتبع نعيمة على مهل ، حتى تصل إلى دكان عم عبد الله البقال ، الذى يقع على ناصية الشارع.. ونتبادل كلمتين.. وقلبى يدق.. وأطرافى ترتعش.. وصهد النار.. نار الحب.. ينطلق فى وجهى.. ثم تشتري قرطاس لب.. وأشتري أنا الآخر قرطاس لب.. ونعود إلى بيتينا.. ونقف فى نافذتيننا.. ونقزقز اللب.. وتكون الحارة قد هدأت.. وسادها الصمت.. وانصرف إخوتها الأربعة إلى ليلهم.. ويرن صوت قزقزة اللب فى هذا السكون ، كأنه صوت قبلاتنا.. وحدث أكثر من هذا..

لقد خرجت مرة وراء نعيمة حتى التقينا فى دكان عم عبد الله ،
وفوجئت بها تقول لى :

- تحب تيجى معايا السیما..

وارتبكت من المفاجأة ، وقلت فى تلعثم :

- لوحدك ؟

قالت :

- أيوه.. ما تخافش.. تعال ومالكش دعوة!

قلت :

- إمتى ؟

قالت :

- بكرة الساعة ستة..

واتفقنا على أن نلتقى أمام السینما.. سینما السیة.. ثم عدت إلى
البيت ، وقبلت رأس أمى حتى استطعت أن آخذ منها نصف ريال..
وانتظرت نعيمة فى اليوم التالى أمام السینما.. وجاءت.. وحدها..
ودخلنا.. وأطفئت الأنوار.. وقلبي يدق.. وأطرافى ترتعش.. وصهد
النار.. نار الحب.. ينطلق من وجهى.. ثم ما لبثت أن شعرت
بالضيق.. إنى لا أستطيع أن أتابع الفیلم.. ولا أستطيع أن أرى وجه
نعيمة وابتسامتها فى الظلام.. إنى أفضل النافذة على السینما..
النافذة أحسن ألف مرة..

لا أخفى عليك.. لقد فكرت أن أستغل ظلام السینما.. فكرت أن أمد
يدى وأمسك بيدها.. أو أقرب ساقى من ساقها.. ولكن عيب.. يجب
أن يبقى حبي نظيفاً.. ونعيمة أرق من أن يدنسها الظلام..
وخرجت من السینما وأنا فى شوق لأن أقف فى نافذتى..
ثم..

حدث بعد ذلك أن سافرت إلى بلدة خالى ، ومكثت هناك شهراً..

محروماً من نعيمة..

وعدت.. وقبل أن أصل إلى النافذة ، قالت لى أمى :

- مادريتش اللي حصل لصاحبتك ؟

قلت كأنى أحمى نعيمة :

- صاحبتي مين ؟

قالت :

- البت نعيمة..

قلت ، فى دهشة لجرأة أمى :

- حصل لها إيه ؟

قالت :

- روح اسأل أخوك..

وألقيت نظرة خاطفة من خلال النافذة ، فلم أر نعيمة فى نافذتها ،
فاندفعت إلى حجرة أخى ، أسأل : ماذا جرى لنعيمة ؟
وقال أخى كأنه يسخر منى ، إن نعيمة حامل ، وأنها أبلغت أمها
بمصيبتها ، ولما سألتها أمها عن الرجل الذى اعتدى عليها.. اتهمت
نعيمة أربعة شبان من شبان الحارة.

وصرخت فى أخى :

- اتهمت أربعة !؟

وقال أخى وهو لا يزال يسخر منى :

- أيوه يا سيدى.. أربعة مرة واحدة ؟

وانتفض قلبى.. إنى لست وحدى.. إن هناك ثلاثة غيرى

يشاركوننى فى حب نعيمة.. يا للهول !

وتمالكت أعصابى ، وقلت لأخى :

- مين هم الأربعة دول ؟

وقال أخى وهو يهز كتفيه :

- عبد العال.. وحسنين.. ومحمود.. والواد دقة صبي عم عبدالله
البقال..

واتسعت عيناى حتى أحسست بهما يكادان يخرجان من
مكانهما.. مستحيل.. لا يمكن.. لا يمكن أبداً.. لقد احتملت أن أكون
واحداً من أربعة.. أما أن لا أكون واحداً حتى من أربعة.. فهذا ما لا
أحتمله.. وأحسست بموجة طاغية من الغيظ تنتابنى ، وتكاد
تخنقنى.. الغيظ من نعيمة.. لماذا لم تتهمنى.. لماذا.. لماذا.. لماذا لم
تشفق علىّ وتتهمنى.. وكدت أصرخ فى وجه أخى : وأنا.. لماذا لم
تتهمنى أنا الآخر..

وقسوت على نفسى حتى لا أبدى غيظى أمام أخى ، وسألته وأنا
أفتعل الهدوء :

وإخوة نعيمة عملوا إيه ؟

قال :

- لسه ما يعرفوش.. وأمك وأمها قاعدين يتحايلوا عليها إنها
تختار واحد بس ، علشان يقدرُوا يلزقوها له..

واطمأننت عندما عرفت أن إخوة نعيمة لم يعرفوا بعد.. وقلت
لأخى كأنى أمثل دوراً خطيراً :

- اسمع يا أخويا.. أنا اللي عملت كده فى نعيمة..

ونظر إلىّ أخى فى احتقار ، وقال :

- والنبي تتلهى..

ثم ضحك ضحكة كبيرة..

وصرخت فيه :

- أنا باتكلم جد.. أنا السبب.. كنت باروح لها البيت بعد ما

تناموا.. و.. وهى مارضتش تقول علىّ لأنها بتحبنى..

ولكن أخى لا يزال يضحك.. ضحكات كبيرة..

وعدت أصرخ :
- أنا حاروح أقول لأمى..
وما كادت أمى تسمع كلامى ، حتى نهرتنى قائلة :
- بس يا واد بلاش كلام فارغ.. إوعى أسمع الكلام ده على
لسانك تانى.. دى نعيمة ما يكفهاش عشرة مفاعيص زيك !
لا يريد أحد أن يصدقنى..
وأنا لا أزال ألح ليصدقونى.. ولم يكن إلحاحى لأنى أريد إنقاذ
نعيمة.. لم يخطر هذا خاطر على بالى.. إنما فقط كنت أريد أن أرتفع
بنفسى.. أرتفع إلى مستوى الاتهام.. وأسترد كرامتى المجروحة..
كنت أريد - على الأقل - أن أكون واحداً من الأربعة..
وفى هذا اليوم ، وقفت فى النافذة.. وتأخرت نعيمة عن الظهور
فى نافذتها.. ولكنها ظهرت أخيراً.. وابتسمت.. ابتسامة كبيرة..
وبادلتنى سلام الشعر.. كأن شيئاً لم يحدث.
وأشرت لها على بطنى ، مستفهماً عما فى بطنها..
فهزت كتفها بلا مبالاة..
فأشرت عليها على نفسى ، أسألها : هل أنا السبب.. أو هل تريد
أن أقول إنى أنا السبب.. وهل تريد أن أتزوجها !?
وضحكت نعيمة.. ضحكة عالية.. وابتعدت عن النافذة !



العبدى



لم يكن فى سميحة أى شىء يثير اهتمامى..
والواقع أنه لم يكن فى أى واحدة من صديقات
أخواتى ما يثير اهتمامى ، ولا فى أخواتى
أنفسهن.. كنت أنظر إليهن من فوق أنفى.. نظرة
فيها كثير من التعالى والاستخفاف.. وكانت
الدنيا التى أعيش فيها دنيا بعيدة عنهن.. بعيدة
جداً.. دنيا الأدب العالمى.. دنيا شكسبير ، وأوسكار وايلد ، وبرنارد
شو ، ودستوفسكى ، وموباسان.. و..

ولكن سميحة كانت تنظر إلى من بعيد. تنظر إلى نظرات مسكينة ،
ذليلة.. كأنها تتوسل إلى.. كأنها تريد شيئاً منى.. وكنت ألمح
نظراتها، ولا أهتم بها.. ماذا تريد منى.. ماذا يمكن أن تريد منى
مثل هذه الفتاة التافهة ، وليس عندى ما أقدمه إلا عبقريتى ،
وعبقريات الآخرين..

ثم حدث أن دعينا إلى حفلة راقصة أقيمت فى بيت الجيران ،
وجمعت شباب الحى وبناته. وأذكر أنى ليلتها شربت بعض
الكؤوس.. كأسين من الويسكى.. وبدأت أرقص مع البنات.. كنت
أرقص معهن دون أن أفقد إحساسى بقيمتى الأدبية.. بعبقريتى. ثم
طلبت سميحة إلى الرقص.. طلبتها كأنى أعطف عليها.. وقفزت واقفة
بين ذراعى ، والفرحة تومض فى عينيها الذليلتين ، وأردت أن
أجاملها ، فضغطتها إلى صدرى ، وتركت خدى يسقط على خدها..
واستسلمت نشوانة كأنها نامت فوق خدى.. ثم قررت أن أجاملها
أكثر ، بعد أن أثارت فى مزيداً من العطف والشفقة عليها.. فقبلتها..
قبلة سريعة خلف أذنها.. وارتعشت بين ذراعى.. وازدادت التصاقاً
بى.. ثم انتهت الرقصة ، فتركتها وعدت إلى كأسى وأصدقائى..
تركتها دون أن تترك رقصتى معها أثراً فى قلبى ، ولا فى أعصابى..

ولكنى تنبتهت بعد قليل إلى أنها اختفت من بين البنات.. وبحثت عنها بعينى ، إلى أن رأيتهـا جالسة فى الشرفة وحولها بعض صديقاتها.. وتبكى.. تبكى فى حرقهـة.. ولكن ليس فى بكائها رنة حزن ولا آهة ألم.. كأنها تبكى من النشوة..

- مالك ؟

- ماليش !

ولكنى كنت أعرف لماذا تبكى.. إنها تبكى فرحتها لأنى تنازلت ورقصت معها.. تبكى انفعالها بلمساتى.. إن أعصابها لم تحتمل نشوتها بقبلتى..

وطلبتها للرقص مرة ثانية..

وكانت نشوة الخمر قد استبدت بى ، فنسيت نفسى وأخذت أحدثها عن إعجابى بها وحبى لها.. وأنها أجمل بنت رأتهـا عيني.. و.. وذابت بين ذراعى.. واعترفت لى بأنها عاشت طول عمرها تنتظر هذه اللحظة.. وأنها تحببى.. تحببى جداً.. وأنها كادت تياس لولا هذه الليلة..

وقلت لها ، لا يأس مع الحياة ، ولا حياة مع اليأس.. واعترفت لها أن هذه الكلمة ليست من ابتكارى ، ولكن قالها قبلى الزعيم مصطفى كامل.. وقد اتضح أنها لا تعرف الزعيم مصطفى كامل.. إن مصطفى كامل الوحيد الذى تعرفه ، هو شاب يسكن فى آخر شارعنا..

ورغم ذلك فقد حددت لها موعد لقاء فى السينما ، فى اليوم التالى... كانت الخمر قد جعلتنى رقيقاً شفافاً ، فازدادت شفقتى عليها إلى حد أن دعوتها إلى السينما..

وأفقت من الخمر فى الصباح التالى.. ولكنى لم أستطع أن أخلف موعدى معها.. لم تكن أخلاقى تسمح بأن أخلف معها موعدى.. فذهبت إلى السينما ، ودخلت قبلها وتركت لها التذكرة عند الباب ،

فلم أكن أحب أن يرانى أحد فى صحبة فتاة لا يميزها شىء ، سوى أنها فتاة جميلة..

وجاءت وجلست بجانبى.. فى الظلام.. وأمسكت يدها.. وما كدت أمسك بها حتى ذابت.. ذابت بكل ما فى الكلمة من معنى.. وألقت رأسها على كتفى.. وبحثت بشفتيها عن أى شىء عار من جسدى لتقبله.. أصابعى ، وعنقى ، ووجهى.. واضطرت أن أبادلها القبلات.. و..

ولا أطيل عليك.. لقد أصبحت ألقاها كثيراً.. ليس كثيراً جداً.. ليس أكثر من مرة فى الأسبوع.. ودائماً فى الظلام.. ظلام السينما أو ظلام حجرتى فى البيت بعد أن يخرج أخواتى.. ودائماً تذوب.. إنها لا تستطيع أن تقدم لى شيئاً إلا ذوبانها.. ولا تريد أن تأخذ منى شيئاً إلا أن أذوب معها.. وقد حاولت أن أجد موضوعاً نتحدث فيه.. حاولت كثيراً.. ولكن مستحيل.. ليس فى رأسها شىء يمكن أن ينطلق فى حديث ، أو يخلق مناقشة.. تصور أنها لا تعرف شيئاً عن إسكندر ديماس.. لا الأب ولا الابن.. ولا تعرف أن مؤلف قصة روميو وجولييت هو شكسبير العظيم.. ولم تسمع من قبل عن عملاق الأدب سومرست موم.. و.. إنها تافهة.. وكل ما تستطيع أن تتحدث فيه هو أغانى عبد الحليم حافظ ، وآخر نكات فرقة ساعة لقلبك.. تفاهة بل منتهى التفاهة..

ثم..

ثم التقيت بتحية فى فناء الكلية.. ولعلك فهمت أنها كلية الآداب! ما أبعد الفرق بين تحية وسميحة..

إنى أقضى الساعات الطويلة مع تحية فى حديث لا ينتهى.. لا أشبع منه.. إننا نتناجى بأشعار شيللى وببيرون.. وندناقش حول أدب ه.د. لورنس.. ونفتخر من كنوز الأدب الرومانسى ، والأدب

السيمبوليك والسيرىالى.. ونعد أنفسنا لليوم الذى نستطيع أن
نقضى فيه على أدباء هذه الأيام من أمثال إحسان عبد القدوس
ويوسف السباعى ، وغيرهما من صعاليك الأدب..

و..

وتخرجت.. نلت الليسانس.. وتزوجت تحية.. ولم أكن أستطيع أن
أحجم عن الزواج من أجل سميحة.. إنها فتاة تافهة.. ومهما تماديت
فى الشقة عليها ، فلا يمكن أن تصل شفقتى إلى حد أن أفكر فى
الزواج بها ، أو أن أتردد فى الزواج من تحية..

لقد كان زواجى من تحية هو أول خطوة لتحقيق أحلامى.. أحلام
العبرى.. أن تكون لى زوجة تساهم معى فى حياتى الأدبية.. وأن
نقضى ليالىنا فى ضوء مصباح أخضر نقراً ، ونفكر ، ونكتب.. وأن
نصحو لنناقش أفكارنا ، وأفكار زملائنا العباقر.. وأن ننشر إنتاجنا
الأدبى على الناس لننير عقولهم ، ونسمو بأرواحهم ، ونحررهم من
صعاليك الأدب..

ولكنى كنت أحس بأن هناك شيئاً ينقصنى..

لم أكن أدرى ما هو هذا الشىء.. إن كل شىء حلمت به حققته لى
تحية.. المكتبة الضخمة التى تضم أمهات الكتب الأدبية.. والمصباح
الأخضر.. وأمسيات الفكر.. وصباح المناقشة.. و..

ولكن هذا الشىء لا يزال ينقصنى..

ومرت الأيام وإحساسى بالشىء الذى ينقصى يزداد ، ويقلقنى ،
ويجعلنى كأنى شقى بحياتى الزوجية.. تعيس.. قرفان !.

وبعد ستة شهور اكتشفت هذا الشىء..

أدري ما هو ؟

إنه التفاهة..

نعم.. كل ما ينقصنى هو التفاهة.. حتى العباقر يحتاجون أحياناً

إلى التفاهة ورحت أبحث عن سميحة..

أصبحت أكثر من زيارتي لأخواتى البنات لعلى ألقاها.. ولكن
عبثاً.. إنها لم تعد تتردد عليهن.. وبدأت أطوف حول بيتها لعلى أراها
خارجة أو داخلة.. ولكن عبثاً.. وحاولت أن أتصل بها فى التليفون..
ولكن عبثاً.. لقد أصبحت أكره كلمة عبثاً هذه !
وفجأة رأيتها..

رأيتها فى شارع سليمان باشا.. وجريت خلفها.. ثم استوقفتها..
وحاولت أن أستجمع أمامها شخصيتى ، وأن أنظر إليها من فوق
أنفى كما تعودت أن أنظر إليها.. وأن أحادثها بلهجة المتعالى العبقري
كما تعودت أن أحادثها.. ولكن.. عبثاً..
لقد شعرت أنى أرتعش أمامها.. كلماتى ترتعش.. ونظراتى
ترتعش.. وريقى يتدفق من فوق شفتى ، وأحاول أن أجففه بلسانى..
وقلت لها :

- تيجى نروح سينما..

قالت وفى عينيها نظرة خيل إلى أنها نظرة احتقار :
- لا..

قلت وأنا لا أستطيع أن أنزع من عيني نظرات التوسل الذليل !
- لا ليه ؟

قالت وهى تهز كتفها :

- لأنك تافه..

وتركتنى..

تصور.. تصور أنها تقول عنى إنى تافه.. أنا.. أنا.. أنا.. أنا تافه !!
هل تريد الحقيقة..
إنى أشعر فعلاً بأنى تافه..



الجميلة

كانت تعرفنى، وكنت أعرفها.. من بعيد!
كانت تعرف أنى صحفى، أجمع أخبار
المجتمع..



وكانت أعرف أنها أجمل السيدات، وأنها
أنضر زهرة من زهرات المجتمع.. كما كنا نسمى
بنات الطبقة الراقية فى ذلك الحين..

وكانت بنات الطبقة الراقية - حتى عام ١٩٥١ - يخفن
الصحفيين أمثالى، ويختفين عن أنظارهن، حتى يتجنبن نشر
أخبارهن.. ولكن زيزى لم تكن تخافنى، ولم تكن تحاول أن تختفى..
بالعكس.. كانت عندما ترانى على الشاطيء، أو فى أحد المحال العامة،
تنظر فى وجهى بكل عينيها، وتبتسم، كأنها تستعد لالتقاط صورة..
ثم كانت تتعمد أن تفتعل فضيحة صغيرة تثير اهتمامى، كأن تقبل
الرجل الذى تراقصه.. أو تتظاهر بأنها سكرانة.. أو تجعلنى ألمحها
وهى تختفى مع شاب خلف شجرة..

وكانت أدهش لتصرفاتها هذه.. فهى ليست فى حاجة إلى فضيحة
لتثير اهتمامى بها.. إن كل الناس يهتمون بها بمجرد ظهورها فى
مجتمع من المجتمعات.. فهى من عائلة كبيرة تصاهر عائلة محمد
على.. وهى جميلة.. أجمل سيدة فى مصر.. وجمالها صاعق، يخلع
العينين ويهز الأعصاب.. وهى غنية.. وهى أنيقة.. ثيابها كلها من
باريس.. وكانت عندما تدخل مكاناً فيه فاروق، تنصرف الأنظار كلها
عن فاروق.. وتتجه إليها، وتتعالى الهمسات.. زيزى.. زيزى..
زيزى..

وأصبحت أغتاز من تصرفات زيزى التى تبديها أمامى..
وأغتاز أكثر لأنها تتحدانى بهذه التصرفات.. كأنها تحاول أن
تقنعنى بأنه لا يهمها ما يكتب عنها فى الصحف..

ثم تعمدت أن أهمل نشر أخبارها.. حتى أحرمها من متعة تحدى الصحفيين.. وتعمدت ألا ألتفت إليها كلما التقيت بها فى مكان، لأشعرها بأنها ليست شخصية هامة تستحق الالتفات..

ورغم ذلك لم أفقد الاهتمام بها أبداً..

كنت أبحث عنها فى كل مكان، وأتسلل بعينى إليها لأرقب كل حركة من حركاتها، وكل تصرف من تصرفاتها.. وكنت أبحث دائماً عن مفتاح شخصيتها.. هذه الشخصية الشاذة القلقة، التى لا تهدأ، ولا تكتفى.. لا تكتفى بجمالها.. ولا بثرائها.. ولا بالحب الذى يحيط بها..

وبدأت أعرف عنها كل شىء.. تقريباً !

كانت وهى بنت، أجمل البنات.. تعيش فى الضاحية الهادئة، بين أبيها الثرى، وأمها الأجنبية.. لم يكن فى الضاحية الهادئة ما يحرك هدوءها وركودها سوى جمالها.. إنه جمال تضحج به مرآتها، وتضحج به عيون الشبان، وتضحج به الشوارع التى تمر بها.. وعاشت فى ضجة جمالها..

لم تكن تستطيع أن تحتل هدوء الضاحية، ولا هدوء أهلها، ولا هدوء قلبها..

وعندما كانت فى الخامسة عشرة دخل حياتها أول رجل.. وكان زوج خالتها.. رجل يكبرها بأعوام كثيرة.. ولكنها رأت انعكاس جمالها.. فى عينيه، وفى كلماته، وفى تهافته.. فأعطته ما أراد، لا لمتعة جسدية أرادتها، ولكن فقط لتمارس سطوة جمالها..

ثم عرفت شاباً.. لم تحبه، ولكنها رأت فيه صدى لضجة جمالها.. واندفعت وراء هذه الضجة.. تحاول أن تسمعها لكل الناس.. فكانت تقفز من نافذة القصر لتلقى حبيبها، ولم يكن يهمها أن تلقاه، بقدر ما كان يهمها أن يعرف الناس أنها قفزت من النافذة..

ولم تحتل الضاحية مزيداً من الضجة، ولا أهلها.. فزوجوها للشباب الذي اختارته حتى لا تجد سبباً لأن تقفز من النافذة.. وتزوجت وهي فى التاسعة عشرة من عمرها..

ومرت شهور على الزواج، وبدأ الهدوء يزحف على حياتها.. وهي لا تطيق الهدوء.. إنها تريد دائماً أن تحتفظ بالضجة التي يثيرها جمالها.. وتريد دائماً مزيداً من الضجة.. وبدأت تخرج إلى المجتمعات، لترى نفسها فى عيون الناس.. ترى انعكاس ضجة جمالها.. ثم لم يعد يكفيها أن ترى فى العيون نظرات الإعجاب.. إنها تريد أن ترى فيها الاشتهااء.. الحسرة.. الحب.. الأمل..

وزوجها بجانبها لا يتركها.. إنه يحبها.. ويغدق عليها كل ثروته الطائلة، وكل شبابه، وكل حبه.. وهو يعلم أنها جميلة.. وأن جمالها فى حاجة دائماً إلى حارس، يحميه، لا من الناس فحسب، بل منها أيضاً..

ولا حظت زيزى أن كثيراً من الرجال يحسبون حساب زوجها.. وأنهم يتعمدون أن يضعوا إعجابهم بها فى قالب من الاحترام.. وأن نظراتهم إليها فيها كثير من اليأس.. اليأس من أن يصلوا إليها..

وبدأت تشجع الرجال على التحرر من احترام زوجها.. واحترامها.. كانت إذا رقصت مع واحد منهم التصقت به، وسكبت أنفاسها فى أذنه.. وتسعد عندما تحس به يرتعش بين ذراعيها، وتحمر أذناه، ويشع الصهد من وجهه.. تحس ساعتها بقوة جمالها.. بسحرها... بسيطرتها..

وكانت إذا جلست إلى مائدة تمادت فى حديث جرى.. لترى الأنفاس حولها مبهورة.. والعيون جاحظة.. وزوجها ضعيف.. لا يستطيع أن يصد عنها كل هؤلاء الرجال المتهاالكين.

وانطلقت فى مغامرات صغيرة متعددة.. ولكن هذه المغامرات لم تعد تكفيها..

إنها لا تستطيع أن تعيش عمرها كله مرتبطة برجل واحد.. إنه يحبها.. ليس هناك امرأة نالت كل هذا الحب.. ولكن حبه لا يهتمها.. إن جمالها أكبر من الحب.. وأكبر من أن يمتلكه رجل واحد.. وكان لزوجها صديق متزوج هو الآخر من سيدة جميلة.. نوع آخر من الجمال.. جمال هادي وقور.. ولكنه جمال مشهور في المجتمع.. حتى أن المجلات كانت تقارن دائماً بين جمال الزوجتين.. وبدأت تجرب قوة جمالها على صديق زوجها، وتتحدى جمال صديقتها..

وأصبح الأربعة يخرجون سوياً كل ليلة في المنتديات العاملة.. الزوجان، والزوجتان.. وهي تطوف بعينيها حولها كأنها تعد العيون التي تنظر إليها، وتعد العيون التي تنظر إلى صديقتها.. ثم تتعمد أن تبرز كل فتنتها، وكل إغرائها، وتعرض كل فضائحها الصغيرة، حتى تجتذب أكبر عدد من العيون.. كل العيون.. وأخيراً انتصرت..

أحبها زوج صديقتها..

وتزوجته بعد أن طلقت من زوجها..

ولم يكن يهتمها أن يحبها.. ولم يكن يهتمها أن يتزوجها.. ولم يكن يهتمها أيضاً أن تخرب بيت صديقتها، وأن تراها وهي تنزوي عن المجتمع باكية شقية.. كان كل ما يهتمها، وكل ما تحس به، هو أنها انتصرت.. انتصر جمالها..

وكان الزوج الجديد أقسى عليها من الزوج الأول.. إنه يحبها أكثر.. ويغار عليها أكثر.. ويعرف نزواتها أكثر.. فأحاطها بسياس من مراقبته.. كان يعيش معها ككلب الحراسة.. وراءها في كل مكان.. وينبح كلما اقترب منها رجل.. ولكن..

إنها تستطيع دائماً تجد ميداناً تعرض فيه جمالها..
وتتلقى فيه من عيون الرجال نظرات الاشتهاء.. والرغبة..
والحسرة..

لم يتغير منها شيء..

كل ما فعله زوجها أنه حد من مغامراتها الطائشة، ولكنه لم
يستطع أن يحد من إحساسها بجمالها، ولا من اندفاعها فى إثارة
الضجة حول هذا الجمال..

وكان هناك زوج آخر يعيش فى حياتها.. زوج كل النساء.. زوج
قاس لا يرحم.. ولا يشفق.. إنه الزمن..

الزمن لا يريد أن ينساها، ولا يريد أن يطلقها..

وهى تكبر.. وكما كبرت عاماً ازداد تهالكها وتشبثها بجمالها..
وعندما تعدت الثلاثين من عمرها، بدأت تبدو كالمجنونة.. إنها ترتدى
ثياباً خليعة.. الخلاعة فيها تطفى على الذوق السليم.. وهى تغالى فى
المساحيق التى تضعها على وجهها.. وتعقص شعرها بطريقة مثيرة،
كأنها تقيم من خصلات شعرها مسرحاً للأراجوز..

وهى تلتفت حولها فتجد جيلاً جديداً من البنات والنساء.. قد لا
يكون بينهن من هى أكثر منها جمالاً، ولكنهن جميعاً أكثر شباباً..
وأكثر نضارة.. وأكثر حياة.. وعيون الرجال تلتفت إلى العالم
الجديد.. إلى الشباب.. والنضارة.. والحياة..

وجنت..

أقبلت تشرب الخمر بشراهة لتنسى الزمن.. لتنسى أنها تكبر..
لتنسى أنها لا تملك السلاح الذى تستطيع أن تحارب به غريمتها
الجدد.. وازدادت تهتكاً.. أصبحت حياتها كلها استعراضاً لجسدها،
وخلاعتها، وجنونها..

وزوجها لا يستطيع أن يوقفها.. إنها مجنونة.. مجنونة..

وخيل إلى المجنونة أنها لو استطاعت أن تتخلص من زوجها،
فستعود إلى عرشها.. العرش الذى تصنعه من عيون الرجال..
ستصبح حرة.. وسيعود الرجال يطمعون فيها، ويجرون وراءها،
ويشتهونها.. ويضعونها على عيونهم..
وطلقت..

أقامت ضجة كبرى، حتى طلقها الرجل الذى لا يزال يحبها.
وخرجت إلى المجتمع، وفى يدها شاب صغير من الجيل الجديد..
لتقنع الناس أنها لا تزال من الجيل الجديد.. إنها لم تعد من الماضى،
بل تعيش فى الحاضر المتجدد..
لكن لا أمل..

إنها لا تستطيع أن تعود إلى عرشها..
والزمن يسحبها ليضعها فى مكانها.. مكانها بين رجال عجائز..
يشتهونها كما يشتهون أحلام شبابهن.. ولا يستطيعون أن يقدموا
لها إلا نقوداً.. ثمناً لسهراتها معهم وثنماً لجسدها الذى تبذله بين
أيديهم.

ولجأت إلى آخر سلاح تستطيع أن تقنع به نفسها أنها لا زالت
أجمل بنات القاهرة..
المخدرات..
أدمنت المورفين..

وأخذها المورفين إلى آخر السلم.. إلى نوع من الرجال، لا
يحترمون الجمال، ولا يقدرونه، ولكنهم يستعملونه.. يستعملون
بقاياها..

ورأيتها فى الأسبوع الماضى..
صفراء.. هزيلة.. شعرها ساقط فوق جبينها.. وعيناها تائهتان..
وأصباغ كثيرة على وجهها.. كانت بجانب رجل عجوز، قمىء، يورد

النساء لكبار السائحين..

ورأتني.. وكما تعودت، حاولت أن تلفت نظري، فانحنيت على
الرجل القمىء تقبله.. لعلى أكتب عنها فضيحة فى صفحة المجتمع..
وتجاهلتها.. وأنا أرثى لها..
وجاءت ورائى تصيح :
- يا أستاذ.. تسمح كلمة !

وقفت فى انتظارها، دون أن أتقدم إليها، وعندما وصلت إلى
ووقفت تنظر إلى فى حدة، ثم كأن عينيها لم تحتمل حديثها، فانطفأت
نظرتها، وقالت فى صوت ضعيف :

- أستاذ.. ما رأيك فى ؟

قللت وأنا أدهش لسؤالها :

- ليس لى رأى فىك..

قالت وبين شفيتها ابتسامة مسكينة :

- إنى أعرف رأيك فى.. لست فى حاجة لأن أسمع.. ولكن قل

لى... ماذا ينقصنى.. طول حياتى ؟

قلت :

- الحب ؟

قالت وهى تضحك ضحكة مترنحة :

- الحب.. لقد حصلت على كثير من الحب !!

قلت :

- لقد أحبك بعض الناس.. ولكنك أنت لم تحبى أحداً..

قالت مترنحة :

- إن المثل يقول.. أن تحب فهذا لا شىء.. وأن يحبك أحد فهذا

بعض الشىء.. وأن تحب ويحبك من تحبه فهذا هو كل شىء..

قلت :

- هذا مثل خاطيء.. وصحته.. أن تحب، فهذا هو كل شيء.. إن الحب الذى يحمينا هو الحب الذى يعيش فى صدورنا، لا الحب الذى يعيش فى صدور غيرنا..

قالت فى أسى :

- لقد كنت جميلة، وكنت أستحق مصيراً غير هذا..

قلت :

- إن جمالك كان جمال الإطار.. والحب هو جمال الصورة.. أنت إطار جميل وضعت فيه صورة فارغة، ليس فيها جمال..

قالت :

- زوجى ظلمنى..

قلت :

- إنك لم تقدمى لزوجك غير جمال وجهك.. جمال تقديمه لكل الناس.. وتستطيعين أن تجذبى به عيون كل الناس.. ولكن الزوج فى حاجة إلى جمال لا يجذب عينيه فحسب، بل يجذب عقله، وقلبه، وحياته..

قالت :

- ماذا أفعل ؟

قلت :

- تزوجى مرة أخرى.. رجلاً لا يجذبه جمال وجهك، ولكن يجذبه جمال شخصيتك..

قالت :

- أين أجده.. كلهم يكتفون بالنظر إلى وجهى..

قلت :

- لأنك لا تقدمين لهم إلا وجهك.. حاولى أن تقدمى شيئاً آخر..

قالت :

- فات الأوان.. لقد كبرت.. أصبحت عجوزاً.

قلت :

- إن الشخصية لا تكون أبداً عجوزاً.. إنها الشيء الذى يحتفظ

دائماً بشبابه..

قالت :

- يا ريت..

وتركتنى.. ووقفت أرقبها.. عادت إلى الرجل الذى جلست معه،
ومدت يدها تلتقط كأسها.. ثم فجأة.. ألقت الكأس.. وقامت من جانب
الرجل.. وسارت فى خطوات مسرعة، وفى عينيها عزم.. كأنها ذاهبة
لتبحث عن شيء ضاع منها طول حياتها..



مصباح نور

كنت فى الرابعة والعشرين من عمري،
وتزوجت رجلا فى الخامسة والخمسين..
لا تشهق..



فلم أكن ضحية، ولم يجبرنى أحد على
زواجه، بالعكس، لقد اخترته بنفسى، وفضلته
على كثير من الشبان الذين تقدموا لخطبتى
فى ذلك الوقت.. بل وحسدنى عليه كل البنات، وكل السيدات
أيضا..

كان رجلا رائعا.. طويلا، رشيقا، أنيقا، والشعر الأبيض فى فوديه
كدخان بخور العنبر.. وكان حديثه عذبا، لا تمله.. كنت أستمتع إليه
الساعات فيخيل إلى أنى أستمتع إلى لحن رائع لشوبان.. وكان غنيا،
كريما، مفاتيح الجنة بين يديه.. وكان خبيرا بالمرأة... كان يعرف متى
يقول الكلمة الحلوة، وكيف يقولها.. ومتى يضغط على اليد، وكيف
يضغط عليها.. ومتى يقدم الهدية وكيف يقدمها.. ومتى يدعو إلى
سهرة، وكيف يعدها.. كان خبيرا، إلى حد أنى كنت أغار من خبرته..
لا بد أنها خبرة اكتسبها من خلال تجارب ومغامرات كثيرة، مع
بنات ونساء كثيرات.. غيرى!

ووقعت أسيرة خبرته وعذوبته، من قبل أن نتزوج.. وعندما
تزوجنا قضينا شهر العسل فى سويسرا.. شهر فى الجنة.. كانت
الأيام تمر بنا حلوة هادئة.. كأننا نلهم.. كأننا نسبح فوق السحب.. لا
عنف، ولا نقاش، ولا شىء ينقصنى.. وفى كل ساعة أحس بالأفق
يتسع أمامى.. وأحس بدنيا جديدة من النعيم.. وأحس بعقلى يكبر.. لم
يكن زوجا فحسب.. كان أكثر من ذلك.. كان أبا وأما.. أكثر.. فلم يكن
أبى وأمى يدللانى كل هذا الدلال.. ويمنحاننى كل هذا الاهتمام.. لقد
كان يحس بى، قبل أن أحس بنفسى.. كان يحس بأحلامى قبل أن

أحلمها.. ويحس برغباتى قبل أن أريدها.. ويحس بمرضى قبل أن
أمرض..

وفى يوم نظر إلى وجهى بعينيه الحانيتين، وقال :

- إنتى مش عاجبانى النهاردة يا زيزيت.. لونك متغير !

ولم أكن أشعر بمرض.. ولا بألم.. ورغم ذلك فقد أصر على أن
يستدعى لى الطبيب.. أكبر أطباء سويسرا..

أتدرى ماذا قال الطبيب :

لقد اكتشف أنى مصابة باحتقان فى المرارة..

وبدأت العلاج.. وبدأت أتعرض لسلسلة أمراض كثيرة بجانب

المرارة.. الكلى، والكبد، والمصران الغليظ، ثم.. القلب !

ولم يبد على زوجى أنه ضاق بأمراضى.. أو ضاق برقادى

الطويل فى فراشى.. كان دائما بجانبى يرعانى، وينظر إلى كأنى

أغلى وأثمن شىء يمتلكه.. ويناولنى الدواء بيده.. لم يتأخر لحظة عن

موعد الدواء.. وبدأ يقرأ كثيرا فى كتب الطب، وفى المجالات الطبية،

ويتابع آخر مستحدثات الأدوية.. وأصبح حديثنا كله عن المرض

والدواء والأطباء.. وأصبح لى فى حجرة نومي أجزخانة صغيرة

أنيقة، تنتظم فيها زجاجات الدواء، كأنها زجاجات العطر.. وأصبحت

أعرض على صديقاتى أمراضى وأدويتى كأنى أعرض عليهن ثيابى

الجديدة.. وأحس بنوع من الزهو وأنا أعرضها.. وزادنى المرض رقة

واستسلاما.. ولا أكذب عليك، فقد كنت أبالغ فى رقتى واستسلامى

كأن المرض نوع من التظاهر بالارستقراطية، ومظهر من مظاهر

الدلع والدلال..

وزوجى سعيد..

يرعانى..

ولا أكاد أقوم من فراشى يوما لأذهب إلى السينما، أو لأستقبل

بعض الضيوف، حتى يعود بي الزوج الرحيم إلى الفراش، لأبقى فيه أياما، وأسابيع، وهو بجانبى.. فى عينيه حب، ينظر إلى كأنى الشىء الرقيق الغالى الذى يملكه..

وكان لزوجى ابن أخ..

شاب فى التاسعة والعشرين من عمره..

وكان يتردد علينا كثيرا.. ولم يكن من عادتى ولا من عادة زوجى، أن نترك أحدا يتردد علينا بهذه الكثرة، أو يرفع الكلفة بيننا وبينه.. ولكن عادل.. ابن أخى زوجى.. كان شيئا آخر.. كان بمثابة ابن لزوجى، فهو الذى رباه ورعاه بعد وفاة والده.. ورغم أن عادل كان يقيم مع أمه، إلا أنه كان معتبرا بيننا كواحد منا.. كأنه يعيش معنا.. لقد كان يدخل حجرة نومي، ويجلس بجانب فراشى..

وكان عادل يسخر من مرضى..

كان لا يريد أن يصدق أنى مريضة.. كان يسمع كلام الأطباء فيتهمهم بأنهم نصابون.. وكان يرانى أتناول الدواء، فيتهمنى بأنى مصابة بالوهم.. وكنت أتأوه فيقول لى.. بلاش دلع !

وكنت - رغم هذا - أستريح لعادل.. كانت سنة مقاربة لسنى.. ولكنى كنت أشعر بأنى أكبر منه.. كأنه ابنى.. ألسنت زوجة عمه..

وبدأت أرى فى عينى عادل نظرات تقلقنى..

نظرات، كأنه يطرق بعينيه فوق قلبى..

ثم بدأت أسمع منه كلاما يحيرنى.. كأنه يحاول أن يقول لى بأن هناك من يحرص على أن أظل أسيرة الوهم بأنى مريضة..

وكنت لا أغضب من هذه التلميحات.. كنت أتجاهلها.. إلى أن قال

لى يوما بصراحة :

- فوقى لنفسك يا زيزيت.. ما تضيعيش عمرك فى كلام فاضى..

إنتى مش عيانة ومافيكيش حاجة.

قلت :

- اسأل عمك، وهو يقولك..

قال فى حدة كأنه يهم بالصراخ :

- عمى هو اللى معيىكى.. هو اللى أقنعك بأنك عيانة.. ومصمم

على أنك تفضلى عيانة طول عمرك..

قلت وأنا فى دهشة :

- ليه... وهو حاخذ من كده إيه ؟

قال وهو يزداد حدة :

- حياخذ شبابك.. الفرق بينك وبينه واحد وثلاثين سنة.. ومش

ممكن يعيش معاكى وهو مطمئن، إلا إذا ضيع شبابك... ضيع شبابك

ازاى.. بالمرض.. إنه يوهمك أنك مريضة.. علشان تبقى عجوزة زيه..

علشان تفضلى راقدة فى السرير، وماتطالبيش بحقوقك.. حقوق

شبابك..

وشهقت..

لا.. لايمكن أن يكون هذا الكلام صحيحا.. لايمكن أن تكون كل

هذه الأمراض وهما.. مجرد وهم.. وكل هذه الأدوية.. وكل هؤلاء

الأطباء.. مستحيل.. مستحيل..

وقلت لعادل :

- إيه الكلام اللى بتقوله ده ؟

وقال عادل وهو ينحنى فوق فراشى :

- باقول إنى باحبك يا زيزيت.. باحبك.. من يوم ماشفتك وأنا

باحبك.. وباتعذب.. حرام عليكى تضيعى شبابك وشبابى علشان

راجل عجوز زى عمى..

وقبل أن أرد عليه كانت شفتاه فوق شفتى..

وحاولت أن أغضب منه..

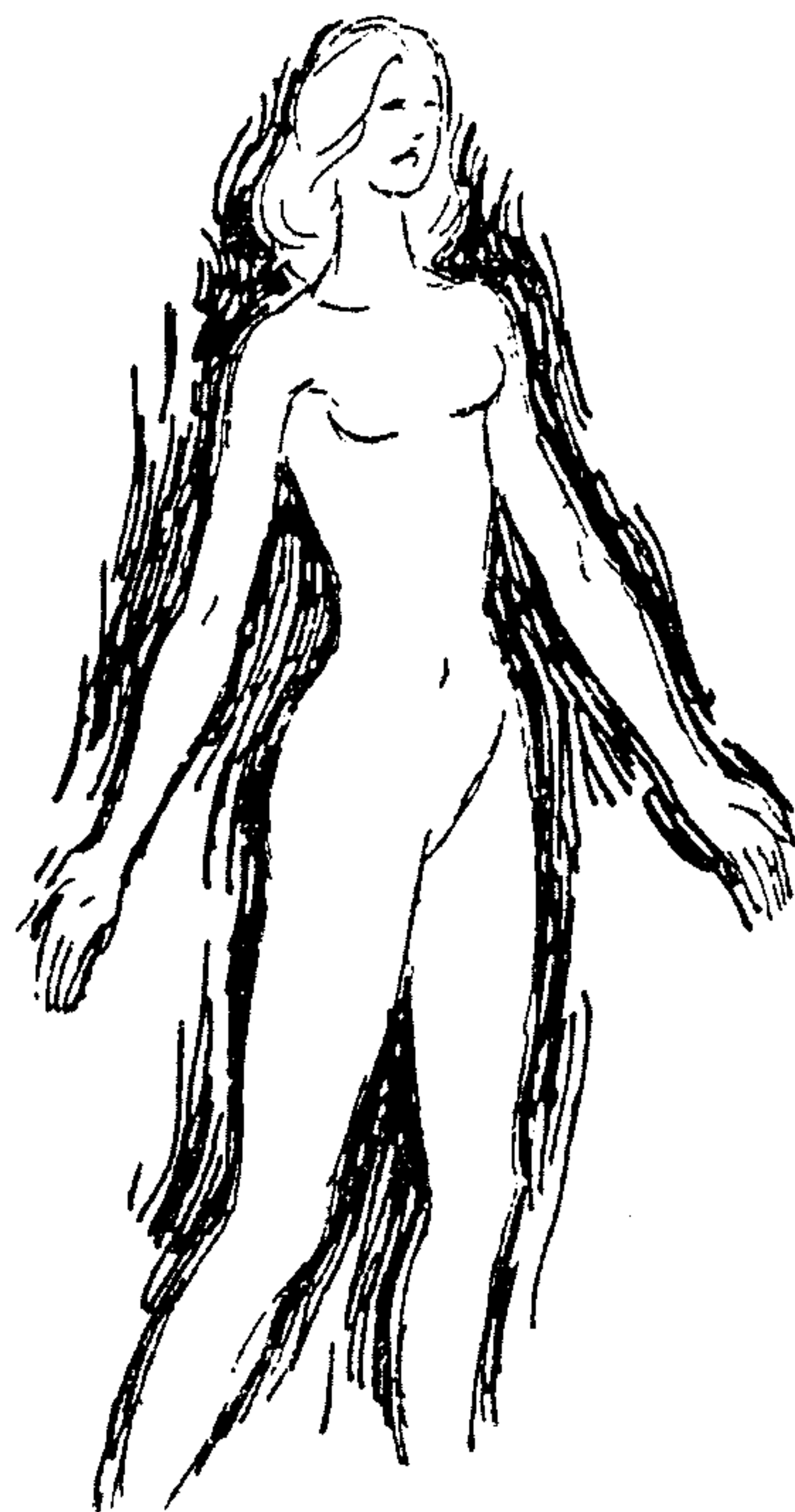
ولم أستطع..
استسلمت لقبيلته الثانية.. وقبلته الثالثة.. وقبلات كثيرة..
وأحسست بدماء جديدة تجرى فى عروقى.. دماء شبابى..
ويومها قمت من الفراش..
ولم يستطع زوجى أن يعيدنى إليه..
ولم أعد أتناول الدواء، ولا أتردد على الأطباء.. اكتشفت فعلا أنى
كنت واهمة.. أنى لست مريضة، أريد أن أخرج من البيت.. وأريد أن
ألهو.. وأن أضحك.. وأن أرى عادل..
ولا أطيل عليك.. لقد تركت بيت زوجى غاضبة، وأقمت فى بيت
أبى.. ورفض زوجى أن يطلقنى.. لم يطالبنى بالعودة، ولكنه فقط
رفض أن يطلقنى.. وظل صابرا محتفظا بكبريائه..
وتماديت مع عادل..
أصبحنا نلتقى فى شقة خاصة، اشتركت معه فى تأثيثها..
وأصبح لقاؤنا لحنا عنيفا.. ورمبا.. سامبا.. تشاتشا.. ليس
كألحان التانجو والفالس، التى كنت أعيش فيها مع زوجى..
ثم كان يوم..
بعد ستة شهور فقط، من لقائى مع شبابى..
وذهبت إلى الشقة التى اشتركت فى تأثيثها مع عادل.. ذهبت بلا
موعد معه، لأضع فيها تمثالا عاريا اشتريته فى طريقى..
ورأيته..
رأيته مع امرأة أخرى..
على نفس الفراش..
ووقفت مبهوتة.. وصراخ عنيف يملأ صدرى.. ولا أدرى كيف
كنت أبدو ساعتها.. وحررت كيف أتصرف.. ولكنى أخيرا خرجت..
دون أن أنطق بكلمة.. وجريت.. جريت على السلم.. ثم ركبت

السيارة، وكل شيء فى جىرى.. يلهث.. وعدت إلى بيت زوجى،
وألقيت بنفسى على فراشى.. وقلت له وأنا أحبس دموعى :
- أنا عيانة.. هات لى دكتور..

وابتسم زوجى فى هدوء، واستدعى الطبيب..
أتدرى ماذا قال الطبيب ؟

قال إنى مصابة بالتهاب فى المصران الأعور، وفى حاجة إلى
عملية جراحية !!
واستسلمت..

استسلمت للعملية الجراحية، وللمرض.. كأنى وجدت فيه عزائى..
ولكنى لم أعد كما كنت.. إنى لست مقتنعة بأنى مريضة.. بل لست
مقتنعة بأنى كنت فى حاجة إلى عملية المصران الأعور.. إنى أحياناً
أتصور أن زوجى أجرى لى العملية بالاتفاق مع الطبيب.. عقاباً لى..
وأحياناً أشتاق لعملية أخرى أتعزى بها، وتلهينى عن التفكير فى
عادل، وترضى زوجى الذى لا يرتاح إلا إذا رأى مريضة..



الخطوط الطولية



لو استعرضت التماثيل التي أصنعها لوجدت أنها كلها تمثل أجسادا طويلة.. ومنذ كنت طالبا في كلية الفنون، وكل قطعة فنية تخرج من بين أصابعي، تخرج طويلة.. إن نفسي مليئة بخطوط طويلة.. طويلة جدا.. وكل شيء ينقلب أمام عيني إلى شيء طويل.. النساء طويلات، والرجال طوال، والشجر طويل، وقلة الماء لها عنق طويل.. خطوط طويلة.. طويلة جدا..

وأنا أحب كل شيء طويل.. المآذن.. والنخل.. والعمارات.. والبالونات الملونة في يد الأطفال.. إنني أرتاح كلما رفعت رأسي إلى أعلى.. أحس كأنني أتسلق هذه الأشياء الطويلة لأصل إلى السماء. وكانت الأشياء الطويلة هي كل حياتي.. أعيش بينها، وأصنعها بيدي.. لم يكن في حياتي شيء آخر.. لم يكن في حياتي نساء، إنما كنت أكتفى منهن بخيالي.. وخيالي يرسمهن طويلات.. طويلات جدا.. أطول مما تستطيع أن تكون أية فتاة..

وكان لي صديق اسمه جلال.. ولم يكن جلال فنانا، أو يفهم شيئا من الفن.. كان بعيدا عني في كل شيء.. وكان طالبا في الجامعة الأمريكية يدرس العلوم السياسية.. ولكني كنت أحبه لمرحه، وإقباله الشديد على الحياة، ونهمه في تذوق كل شيء.. سواء كان تذوق ألوان الطعام أو ألوان البنات.. وكان يلجأ إلى كل الحيل ليشبع نهمه.. وكانت له خدع كثيرة ليوقع بالبنات.. ويروي لي هذه الحيل والخداع فأضحك، وأنظر إليه مبهورا بذكائه، متعجبا من جرأته وسفالته.. ورغم هذه السفالة، كنت أحبه.. كان يمثل لي الأرض التي أقف عليها بقدمي، وتطول عنها قامتي.. تطول إلى سماء المثل العليا النظيفة التي أومن بها وأعيش فيها..

وجاءني جلال يوما ليقول لي إنه تعرف بفتاة أمريكية التحقت أخيرا بالجامعة.. جميلة.. تلحس.. تهوس.. وأخذ يصفها لي وهو

يرقص من الفرح..

ولم أهتم.. فقد تعودت من جلال أن يتعرف كل أسبوع بفتاة جديدة.. وأحيانا، فتاتين فى الأسبوع.

وأصبح جلال يأتى إلى كل يوم ويروى لى مزيدا من التفاصيل عن الفتاة الأمريكية.. أدق التفاصيل.. إنها ابنة أستاذ أمريكى استدعى لإلقاء عدة محاضرات فى كلية الآداب بجامعة القاهرة.. وتملك عربة فى أمريكا.. و..و.. لقد قبلها.. لقد أخذها إلى بيته.. لقد تذوقها !

وكنت أستمع إليه، ولا أهتم..

إننا لا نهتم كثيرا بالأرض التى نقف عليها..

ثم جاءنى جلال ومعه الفتاة..

وبهت..

يا الله.. إنى لم أكن أتصور أن هناك شيئا طويلا إلى هذا الحد..

وتسلقت قامتها الطويلة بعينين مبهورتين، وفكى ساقط من

الدهشة.. إلى أن وصلت إلى وجهها.. يا الله.. إن رأسى لم يرتفع من

قبل إلى شىء جميل كل هذا الجمال.. العينان الواسعتان الملونتان،

ينطلق منهما بريق نشط.. والأنف الدقيق.. والشفقتان كوردة لم

تتفتح بعد .. وشعرها الأصفر يرتفع فوق رأسها كذيل الحصان ، ثم

ينسدل.. طويلا.. طويلا.. حتى يصل إلى خصرها..

وقدمها جلال إلى :

- ماجى..

ثم أخذ يتحدث كثيرا كعادته.. ولكنى لم أكن أستمع إليه.. كنت لا

أزال مبهورتا، وفكى لا يزال ساقطا من الدهشة.. والخطوط التى فى

نفسى تزداد طولاً.. وأحس كأنى أخبط برأسى فى السحاب..

وأفقت من دهشتى، والتفت إلى جلال وقلت له بلهجة خطيرة،

إنى أريد أن أصنع لماجى تمثالا.. قلتها كأنى أطلب منه أن يستدعى

لى الإسعاف..

وهز جلال كتفيه بلا مبالاة..

ووافقت ماجى..

واستطعت أن آخذ إذنا من إدارة الكلية لتأتى ماجى إلى الأستديو
وتقف أمامى..

وأصبحت تأتى كل يوم بعد أن تنتهى من دراستها فى الجامعة
الأمريكية، وتجلس على المائدة المستديرة التى تجلس عليها
الموديلات.. وأصنع تمثالها.. ولكنى لم أكن مخلصا فى صناعة
التمثال.. كنت أحب النظر إليها أكثر من حبى لفنى.. كانت شيئا
يغنينى عن فنى.. إنها أطول من خيالى.. أطول من كل شىء يمكن أن
أصنعه بيدي.. ومضت ثلاثة شهور وأنا لم أنته من صناعة التمثال..
وبدأ شعور جديد يزحف على قلبى..

لعله الحب..

ومهما كانت حقيقة هذا الشعور، فقد وجدت نفسى أقاومه.. كنت
أعتقد بأن ليس من حقى أن أشعر نحو ماجى بأكثر من الصداقة..
فهى فتاة صديقى.. وصديقى قد أئتمنى عليها..

وثار فى نفسى نوع من الإحساس بالذنب نحو صديقى..
ودفعنى هذا الإحساس إلى أن أذهب إليه كل يوم، وأروى له تفاصيل
كل شىء حدث بينى وبين ماجى.. ولم يكن يحدث بيننا ما يستدعى
هذا الإحساس بالذنب.. لم يجر بيننا سوى أحاديث فى الفن، وفى
الأدب، وفى الأشعار التى كانت تكتبها.. وكنت أروى لصديقى كل
هذه الأحاديث.. ولكن الذنب كان فى تطور عواطفى نحوها..

ثم لم أعد أحتمل..

ذهبت إلى صديقى، وقلت له إنى أحب ماجى..

وهز جلال كتفيه بلا مبالاة، كعادته، وقال :

- خذ راحتك.. ولا يهملك !

واستسخرت نفسى، فقد كنت إلى ذلك الحين لم أفاتح ماجى
بحبى.. فلماذا أفاتح به صديقى..

وعواطفى تزداد تطورا.. وهى تزداد صراحة فى أحاديثها، كانت تحدثنى عن نفسها كثيرا، كأنها لم تجد فى حياتها أحدا تتحدث إليه عن نفسها قبلى.. ثم.. ثم جاءت يوما إلى وهى متعبة.. وبدل أن تجلس على المائدة رقدت عليها، ونامت.. نامت نوما هادئا عميقا..

وأنا واقف أنظر إليها مبهورا بجمالها وطولها.. إنى لم أر من قبل شيئا طويلا نائما.. كل الأشياء الطويلة واقفة.. ولم أعد أستطيع أن أتمالك نفسى، فاقتربت منها على أطراف أصابعى، وانحنيت وقبلتها فوق خدها.. لم تكن قبلة.. كانت مجرد لمسة من شفتى.. وظلت نائمة..

وأنا واقف بعيدا أبتهل إلى الجمال الطويل النائم.. إلى أن استيقظت، وجلست أمامى، لأعمل فى تمثالها.. وظللت يومها أعمل حتى الغروب، ثم خرجنا سويا نسير فى شارع الجبلية، لأوصلها إلى حيث تقيم فى الباخرة « أرابيا ».. والتفتت إلى فجأة وقالت :

- هل تريد أن ترانى فى أسعد حالاتى ؟

وفجأة خلعت حذاءها من قدميها.. وأخذت تسير بجانبى فى الشارع حافية القدمين.. وارتبكت، أحسست كأن كل الناس تنظر إلينا.. ولكنها قالت :

- لا ترتبك.. أراهنك أن أحدا لن ينظر إلى قدمى !
وأخذت تتراهن على كل من يمر بنا.. وفعلا لم ينظر أحد إلى قدميها ليلحظ أنها تسير حافية.. كلهم يكتفون بالنظر إلى وجهها الجميل وقامتها الطويلة..

وعندما وصلنا إلى الباخرة، سألتها وأنا أتلعثم :

- هل ستقابلين جلال الليلة ؟
واحمر وجهها كأنما انطلقت فيه النار، ولمعت عيناها، وقالت فى حدة :

- لا.. لن أقابله.. لا أريد أن أقابله.. إن صديقك مقرف.. إنه لا يرى

فىّ إلا قطعة من اللحم.. إنه لا يريد إلا جسدى.. إنه حيوان..
ونظرت إليها فى دهشة.. لقد كنت أعتقد أنها تحبه.. ثم خفضت
عنها عيني صامتا.. وأمسكت بيدي وقالت فى رقة تمسح غضبها..
- أنت شىء آخر.. أنت إنسان..

وتركتها، وأنا ثائر على صديقى.. كيف لا يرى فيها إلا قطعة من
اللحم.. كيف لا يرى هذه الخطوط الطويلة.. الطويلة جدا..
ورغم ذلك فقد ذهبت إلى صديقى فى اليوم التالى وقلت له كل
شىء.. قلت له إنى قبلتها وهى نائمة.. وقلت له إنها تتهمه بأنه
حيوان.

وهز جلال كتفيه بلا مبالاة.. وربما اغتاض ساعتها، أو حقد على..
ولكنى لم ألحظ منه إلا اللامبالاة..

وتطورت علاقتى بماجى.. أصبحنا نخرج كل يوم سويا..
وأصبحنا لا نفترق.. وتعودت منها كثيرا من التصرفات الشاذة..
كانت دائما ضاحكة.. منطلقة.. بريئة..

ولم تعد ترى صديقى.. وأصبحت أحاديثنا ناعمة، جميلة، ليس
لها بداية ولا نهاية.. أصبح كل منا يعرف مافى قلب الآخر دون أن
نبوح به.. ولم يكن صوتها يرتفع ويحتد إلا إذا جاء ذكر جلال.. إنه
حقير.. سافل.. إنها تكرهه.. إنه أول رجل فى حياتها اغتصب
جسدها.. وهى تقرف منه.. وتقرف من نفسها كلما تذكرته..

وأصبحت حريصا على أن أوكد لها أنى لست كصديقى.. إنى لا
أطمع فى جسدها.. إنى لا أريد حتى أن ألمسه.. إنى فقط أعبد
الخطوط الطويلة..

إلى أن كان يوم، وكنا جالسين على شاطئ النيل، وقدماهما
العاريتان مغروستان فى الطين.. وقالت لى فجأة :

- لماذا قبلتنى وأنا نائمة ؟

وتلعثمت.. خفت أن تعتبرنى كصديقى، وقلت :

- لا.. لم.. كنت..

وقاطعت لعنمتى قائلة :

- لا تسرق شيئاً هو من حقك !

ونظرت إليها فى دهشة.. وشفاتها تقتربان من شفتى..
وقبلتها..

قبلتها كثيراً.. إنى لم أعود على كل هذه القبل..
وكننت أدخل معها فى غرفتها بالفندق العائم، وأقبلها مزيداً من
القبليات..

و..

ولا شىء غير القبل..

كنت لا أريد أن أكون كصديقى جلال..

وكانت لا تريد أن تعيد تجربتها مع جلال..

كانت هناك عقيدة تقف بيننا.. عقدة نفسية، اسمها جلال..

وكنا ننساق فى قبلاتنا.. وأشعر بالنار تندلع فى أعصابى، وفى
أعصابها.. ثم ينظر كل منا إلى الآخر.. ونشعر بشىء كالخوف..
الخوف من أن يفقد أحدهنا الآخر.. الخوف من أن أكون كجلال..
والخوف من أن تشعر نحوى شعورها نحو جلال.. فنكبت النار،
ونكف عن قبلاتنا..

وتعذبت كثيراً بهذا الكبت ..

كنت أتركها وأذهب إلى بيتى، وأدور فى غرفتى كالمجنون..
أضرب الجدران بقبضتى.. وأكاد أهم بالبكاء.. وأعود إليها وأنا
مصمم ألا أقبلها، حتى لا أتعرض بعد ذلك لعذاب الكبت.. ولكننى لم
أكن أستطيع أن أقاوم.. ولا هى.. كنا نحب أحدهنا الآخر.. ونحب
قبلاتنا.. ونتعذب بعقدتنا.. العقدة التى تركها لنا جلال.. كأنها اللعنة
التى تلاحقنا..

كم مضى علينا..

أربعة شهور..

ثم تقرر أن تغادر مصر.. تحدثنا فى الزواج.. ولكنها كان يجب

أن تعود أولاً إلى بلدها.. وسافرت معها إلى الإسكندرية، وأقمنا
يومين في فندق واحد.. في غرفتين متلاصقتين.. لا.. في غرفة
واحدة.. ورغم ذلك فاللعنة تقف بيننا.. أحاول أن أقنع نفسي بأن
حبنا عذرى.. حب سام.. ليس كحب جلال.. فتعذبني النار المندلعة
في أعصابي.. وتحاول أن تقنع نفسها بأنها لا تريد منى ما كان
يعطيه لها جلال.. فتشتعل النار..
وسافرت..

واعتقدت أنى سأستريح من النار.. وسيخلص حبي من العذاب..
سأحبها على البعد حبا أرق من حبي لها وهى قريبة منى..
ولكن.. لا.. إن النار تلاحقنى.. تلاحقنى وهى بعيدة عنى..
تلاحقنى فى صحوى، وفى نومى.. وخرجت من البيت كالمجنون،
ذهبت إلى جلال، والنار تعمى عينى.. وانهلث عليه ضرباً.. ضربته
بكل غلى.. بكل عذابى.. بكل لهيب أعصابى..
وأبعدونى عنه..
وهو مندهش :

- ماذا أصابك أيها المجنون.. ألم أترك لك ماجى !؟
- لا.. إنك لم تتركها لى.. لقد كانت لعنتك تلاحقنا..
وعدت أصنع التماثيل للأشياء الطويلة..
لقد ازدادت الخطوط طولاً..
إن أصدقائى يسألوننى فى تعجب : لماذا أصنع الخطوط طويلة
إلى هذا الحد..



أيه زوجي؟



قضيت عمري كله، وأنا أبحث عن زوجي..
كنت وأنا في الرابعة عشرة أبحث عنه
بخيالي، ثم أصبحت وأنا في السابعة عشرة
أبحث عنه في الواقع.. أبحث عنه في كل رجل
ألتقى به، وفي كل مجلة أقلب صفحاتها، وفي
كل فيلم أشاهده، بل كنت أبحث عنه أيضا في
الشوارع.. كنت أسير في الشارع وعيني تختلس النظر إلى كل رجل
أمر به، وأبحث في وجهه، لعله يكون زوجي..
الرجال كلهم لا يصلحون لشيء إلا للزواج.. والدنيا كلها ليست
إلا سوقا أنتقى منه الرجل الذي أتزوجه..
ولم أكن أبحث عن الحب..

صدقني.. إن خيالي لم ينطلق أبدا إلى الحب.. لم أكن أحن إلى
شاب يثير عواطفى، ويملاً فراغ يومى بحديث التليفون، ويأخذ
شفتى بين شفتيه.. لا.. كان كل ما أريده هو رجل أتزوجه.. وكل ما
أحلم به هو الزواج..

الزواج أولا.. وأخيرا !

ولم أكن أريد أى زوج.. بل كنت أريد زوجا لامعا.. زوجا
يحسدنى عليه البنات، ويشبع غرورى عندما أحمل اسمه، ويجمع
حولى العيون كلما سرت به فى شارع أو دخلت به إلى حفل..
ولم يكن عندى ما أقدمه لمثل هذا الزوج إلا جمالى.. فأنا جميلة..
وأعرف أنى جميلة.. أجمل من كل البنات.. وهذا الجمال يجب أن
يكون له ثمن.. ولن يستطيع أن يدفع ثمنه إلا رجل لامع ناجح..
يتزوجنى..

وقد تعودت وأنا أطوف بسوق الرجال أن أختصر منهم كل
الرجال المتزوجين.. إن الرجل المتزوج بالنسبة لى رجل ميت.. رجل

أدى وظيفته فى الحياة وانتهى.. لا نفع منه.. ولا يستحق الحياة فى دنياى..

وكنت أنظر إلى الرجل فى وجهه، فإذا أعجبني نقلت عيني بسرعة إلى أصابع يديه، فإذا رأيت فيها خاتم الزواج، شطبتة من الحياة.. وبخلت عليه بالنظرة الثانية.
وفوجئت بحقيقة رهيبة..

إن كل الرجال اللامعين متزوجون.. كل الأغنياء متزوجون، وكل الكتاب الكبار متزوجون، وكل نجوم السينما متزوجون.. ورجال الأعمال، والمحامون و.. و.. كلهم متزوجون.. كلهم يحملون علامة النهاية فى أصابعهم.. حتى الشبان منهم.. هل تعرف ممدوح خيرى، الذى ورث عن أبيه خمس عمارات وأكثر من نصف مليون جنيه.. إنه فى الرابعة والعشرين.. ورغم ذلك انتهى المسكين من حياته.. فهو متزوج !

وأخذت نوبات من اليأس تطوف بقلبي.. إنى لن أجد أبدا الزوج الذى أحلم به.. وبدأت أفكر فى أن أتنازل عن جزء من هذه الأحلام.. أن أتواضع.. فكرت أن أقبل الزواج من أحد الشبان الذين يخطون خطواتهم الأولى فى الحياة، وأكافح معه إلى أن يلمع وينجح ويغتنى، وألمع وأنجح وأغتنى معه.. ولكن لا.. إنى لا أستطيع أن أضحي بأجمل سنوات عمرى فى كفاح وحرمان.. ومن أدرانى.. لعل الشاب الذى أختاره لا يلمع أبدا ولا ينجح.. وربما نجح ولمع بعد سنوات طويلة.. بعد أن أفقد شبابى، وأصبح عجوزا.. بعد أن أفقد روعة الثوب على جسدى الشاب.. وروعة الفراء الثمين حول كتفى المشدودتين وروعة التفاف العيون المبهورة حول جمالى.. وعدت أتمسك بأحلامى.. إنى أريد زوجا جاهزا.. ليس فى عمرى وقت كاف لأصنع زوجا.. تفصيل !

وبلغت العشرين من عمري، وأنا أرفض كل طالب زواج يتقدم
لى.. فلم يكن بينهم من أبحث عنه..

إلى أن التقيت بمحمد..

كنت أسير فى شارع سليمان باشا عندما رأيته يهيم بركوب
سيارته.. سيارة « ثندر بيرد » بيضاء.. تجنن.. ورفعت عيني إلى
وجهه.. إنه وجه وسيم.. حلو الملامح.. يضج بالرجولة.. وهو ليس
صغيرا.. لعله فى الثلاثين أو الثانية والثلاثين..

ونقلت عيني بسرعة إلى أصابع يديه.. وابتسمت ابتسامة كبيرة..
ابتسمت رغم إرادتى..

ونظر إلى والدهشة تملأ عينيه.. ثم التفت خلفه كأنه يبحث عن
الشخص الآخر الذى أبتسم له.. ثم عاد إلى بوجهه، وابتسم لى
ابتسامة مترددة..

وسحبت ابتسامتى بسرعة، وأشحت بوجهى عنه، وخطوت من
أمامه.. وكل عقلى مشغول به..

ولكنى لا أعرفه..

لا أعرف شيئا عنه ..

وفى اليوم التالى عدت أسير فى شارع سليمان باشا فى نفس
الموعد.. ورأيت سيارته.. السيارة الثندر بيرد البيضاء واقفة فى
مكانها أمام باب العمارة الكبيرة.. وتلكأت فى مشيتى لعلى أراه مرة
ثانية.. ولكنه لم يظهر.. وتلكأت أكثر.. وأنا أفكر.. لعل مكتبه فى هذه
العمارة.. لعله دكتور.. أو مهندس.. أو صاحب شركة.. ووقفت أقرأ
الأسماء المعلقة على الباب، أحاول أن أختار من بينها اسما له..
وفجأة سمعت صوتا يهمس من خلفى قائلا :

- اسمى محمد شاهين.. أعلى يافطة على الشمال..

وتسمرت فى مكانى.. ولم ألتفت إليه.. أحسست كأنه ضبطنى

متلبسة بجريمة..

وعاد يهمس :

- تليفونى ٢٠٦ .

ولم أسمع بقية الرقم.. ودون أن أدري التفت إليه وهمست مثله :

- كام ؟

وعاد يردد الرقم :

- ٢٠٦٦٧ .

ثم خطا بسرعة وركب سيارته، وأنا واقفة لا أنظر إليه وعندما سمعت صوت السيارة تتحرك تبعتها بعينى.. وفى قلبى ابتسامة كبيرة..

وقضيت يومين ورقم تليفونه يتردد تحت لسانى، ولا أجرؤ على الاتصال به.. إنى لم أعود على معاكسة الرجال فى تليفون.. أحس أنى لو بدأت الاتصال برجل فكأنى تنازلت عن عرشى.. عرش جمالى.. كأنى أذلت نفسى.. ولكن هذا الرجل لقطه.. وأنا أريده زوجا لى.. وأخاف أن يضيع منى.. يا ربى لماذا لم أعطه أنا رقم تليفونى حتى يبدأ هو بالاتصال بى، ويعفينى من إذلال نفسى..

و..

واتصلت به.. وسرى صوته فى أذنى هادئا قويا يذيب إرادتى.. وأصبحت أتصل به كل يوم.. وعرفت عنه كل شىء.. إنه ابن مقاول كبير فى الاسكندرية، وتخرج فى كلية الهندسة واشتغل مع والده.. ثم جاء منذ ثلاثة شهور فقط ليفتح مكتبا فى القاهرة.. وهو يقيم فى فندق شبرد ويسافر كل خميس وجمعة إلى الاسكندرية بسيارته الثندر بيرد.. البيضاء..

وطالت أحاديثنا.. ولم أكن أستطيع أن أقول له فى التليفون : تعال تزوجنى.. كنت أعلم أنى يجب أن أخطو إليه خطوة أخرى.. كان

يجب أن ألقاه.. أن أخرج معه.. وهو فى حديثه يتمنى لقائى.. ولكنه
لا يلح ولا يتهافت ولا يحرجنى.. أنه قوى..
و..

لقد خرجت للقاءه..

كان أول رجل أخرج إلى لقاءه.. لقد كنت أعتقد قبل ذلك أنى لن
أخرج أبدا للقاء رجل.. سأبقى على عرشى، والرجال يأتون إلى..
ولكنى تركت عرشى وخرجت إلى محمد..
نعم.. لقد قبلنى.. قبلنى كثيرا.. وأحببت قبلاته.. لم أعد أستطيع
أن أنام إلا بعد أن تشبع شفتاى من شفتيه..
ولكنه لا يحدثنى عن الزواج !
وقلت له وأنا مختبئة فى صدره :

- وبعدين يا محمد.. حانفضل كده على طول..

ونظر إلى طويلا، وفى عينيه يأس كبير وحزن عميق.. ثم أدار
رأسه وأخفى عينيه عنى وقال فى صوت محشرج ينضح بالألم :
- أنا متجوز يا زيزى..

ووقف قلبى.. أحسست كأن حجرا ضخما سقط على رأسى..
ونظرت إليه فى هلع، وصرخت صرخة خافتة :
- بتقول إيه..

قال وهو لا ينظر إلىّ :

- أنا متجوز.. وعندى ولد..

وصرخت :

- وخبيت عنى ليه ؟

قال :

- إنتى ما سألتنيش.. وأنا ماخبتش عليكى.. كنت مستنى اليوم
اللى أقدر أقول لك فيه..

قلت وأنا أبتعد عنه وأنكمش فى ركن السيارة :
- كان لازم تقول لى من أول يوم، حتى لو ماسألتكش..
قال :

- ماقدرتش.. كنت عايز أعرفك.
وبلا إرادة نظرت إلى أصابع يديه كأنى سارى فيها شيئاً لم أراه
من قبل.. علامة الموت.. وعدت أقول :
- لكن أنت مش لابس دبله.
قال وهو يحنى رأسه فوق صدره :
- أنا ما أقدرش ألبس خاتم أبدا.. جلدى حساس.. والخاتم بيعمل
لى ارتكاريا..

ونظرت إليه برهة.. والدماء الساخنة تلهب رأسى وعينى وأذنى..
تلهبنى كلى.. وفتحت فمى.. كنت أريد أن ألعه.. أسبه.. أقتله..
ولكنى لم أقل شيئاً وفتحت باب السيارة، وألقيت نفسى منها وأخذت
أعدو.. وأعدو.. لم أدر كم عدوت.. ولكنى تنبعت إلى نفسى وأنا أنزل
من سيارة أجرة أمام بيتى..



هل تدري ؟
لقد عدت إلى محمد..
لم أتزوجه..
ولكنى أحبه..
إنى أعيش اليوم فى أحلام الحب، لا أحلام الزواج..
ولا أستطيع أن أنام إلا بعد أن تشبع شفتاى من شفثيه..



الرصيف

أنا رسام..

وعندما أرسم وجهها من الوجوه التي
أختارها، لا أرسم ما أراه بعيني، ولكنى أرسم
صورة صاحب هذا الوجه كما أتخيله.. أرسم
رأى فيه.. أرسم حكمى عليه.. وصحيح أنى
أتقيد بملامح الوجه، ولكن النظرة التي تطل من



العينين، والتعبير المرتسم فوق الشفتين، ومجموعة الألوان التي تملأ
اللوحة و.. و.. كل ذلك ينبعث من داخلي، ويكون رأى فى الوجه
الذى أرسمه.. وقد لا تعرف أن كل لون من الألوان التي أستعملها
هو عبارة عن رأى يختلف عن الآخر.. الأزرق له معنى غير الأحمر،
وغير الأصفر، وغير الأخضر.. وهكذا !

وقد تعودت أن أنظر إلى وجوه الناس الذين ألتقى بهم، وأرى
فيها أكثر مما يراه الرجل العادى.. أنظر إليها بعيني فنان، وأرى فيها
موضوعا، لا مجرد شكل.. فإذا أثارنى وجه من هذه الوجوه، وكونت
فيه رأيا، دعوت صاحبه ليجلس أمامى، وأرسمه.. وغالبا ما يرحب
الجميع بدعوتى.. لم يحدث أبدا أن رفض أحد الجلوس أمامى..
وغالبا أيضا لا يعجب من أرسمه بالوجه الذى رسمته له.. إنه يرى
وجهه فى اللوحة، ولكنه يرى بجانب وجهه رأى فيه.. فيغضب !

إلى أن التقيت بسوسن..

التقيت بها على شاطئ البحر فى رأس البر..

رأيتها من بعيد..

وتعلقت بها عيناى كأنى أشهق..

لم أر من قبل مثل هذا الجمال.. جمال برىء.. هادىء.. مريح..
كالدموع.. كالنغم الحزين.. كالتنهد.. وشعرها فى لون البندق.. تشده
إلى الورا، كأنها تخشى أن يسرقه منها الهواء.. وعيناها ملونتان،

واسعتان، فيهما دهشة دائمة.. دهشة سانجة، كأنها دهشة طفل
يفتح عينيه على الحياة لأول مرة.. ولم تكن ترتدى مايوها كبقية
البنات.. كانت ترتدى ثوبا أزرق، مقفولا حتى رقبته، وأكمامه تصل
إلى منتصف ذراعيها.. وكانت تعبت بأصابعها فى الرمال..

وقفت أبطلق فيها، من بعيد، وخيالى يرسم لها صورة.. واحترت
فى عنوان الصورة.. هل أسميها « القديسة » أو « الطاهرة » أو
« براءة » أو « ملاك ».. أو.. أو..

ولم تلتفت إلى سوسن.. إنها أشد براءة من أن يمسه غبار آدمى
مثلى.. أشد طهرا من أن ترفع عينيه إلى مخلوق من طين..

وقضيت يومى أحلم بالصورة التى أرسمها لها..
ثم مضت الأيام ولم أعد أحلم بالصورة، بل أصبحت أحلم بها..
بها هى.. بشخصها.. كأنى أحببتها.. ربما أحببتها فعلا..
وكان يجب أن أعرفها..

وأن أرسمها..

وأصبحت أتبعها وأنا أبحث عن الطريق إليها.. وعرفت كل
أقاربها، وكل صديقاتها، وصديقات صديقاتها.. إلى أن وجدت فتاة
أعرفها، ويمكن أن تقدمنى لها.. و..
وعرفتها..

وفى أول لقاء، لم أستطع أن أنتظر أكثر مما انتظرت، فدعوتها لأن
تجلس أمامى لأرسمها..

وقبلت..

قبلت فورا..

لا شك أنها تؤمن بالفن.. ولذلك قبلت بهذه السهولة، وبهذه
السرعة.

وواعدتها على أن تأتى إلى العشة التى أقيم فيها مع عائلتى.. إن

معى أخواتى البنات.. وليس هناك غبار على هذه الدعوة..
وقبلت..

وقضيت الصباح كله أعد نفسى لاستقبالها.. اخترت المكان الذى
ستجلس فيه بحيث يبدو البحر من ورائها، ليضفى على اللوحة
مسحة من الشاعرية.. واشترت زهورا بيضاء فى لون الطهر،
ووضعتها بجانب المقعد الذى تجلس عليه.. واخترت الألوان التى
سأرسمها بها.. كلها ألوان هادئة بريئة.. الأزرق، والأخضر،
والأصفر.. و..
وجاءت..

وأجلستها فى المكان الذى اخترته لها، وأنا أرتجف من النشوة..
كأنى مقبل على أهم عمل فى حياتى.. كأنى على وشك أن أدق
بفرشاتي باب كنز.. كنز الخلود.. كنز المجد..
وبدأت أرسم وجهها..

ولم تمض دقائق حتى بدأت سوسن تتكلم :
- قول لى يا أستاذ وحيد.. أنت حاتنشر الصورة دى فى أى
مجلة ؟

وكذبت أذنى.. لا يمكن أن تكون سوسن حريصة على أن تنشر
صورتها فى المجلات.. إنها أكثر براءة من ذلك.. لعلها تريد أن
تطمئن.. وأجبتها :

- مش حانشرها أبدا..
وسمعتها تقول فى حسرة :
- يا خسارة..
وعدت لأكذب أذنى.. ولكنها استطردت :
- يعنى ماحدث حاشوفها أبدا..
قلت وأنا أغالب نفسى :

- إزاي.. ناس كتير حاشوفوها.

قالت :

- أنا عايزاك ترسمنى حلوة قوى، علشان أغيظ صاحبتي مرفت..

وكنت فى هذه الأثناء أرسم شعرها.. كنت أرسم بلون بندقى هادى.. فإذا بى ودون أن أدري، أضيف إليه كثيرا من اللون الأصفر، فيبدو فى الصورة، كأنه شعر مصبوغ.. رخيص ! وبدأت سوسن تتلمل فى جلستها.. وعادت تتكلم :

- قول لى يا أستاذ وحيد.. أنت تعرف ترقص التشاتشا وارتعشت الفرشاة فى يدي.. وقلت :

- لا يا افندم..

قالت :

- يا خسارة.. لازم تتعلمها.. ولو حبيت أعلمها لك أنا..

لماذ تتكلم هذه الفتاة !؟

لماذا لا تسكت، حتى تصون لى خيالى الذى أرسمها به.. حتى تصون لى رأى فيها..

وكنت فى هذه اللحظة أرسم عينيها.. كنت أرسمها بلون يغلب عليه الأزرق الفاتح.. كلون البحر الذى يطل من ورائها.. كان فى عينيها رحيق الطهر.. ودون أن أدري اختلطت الألوان فى فرشاتي.. وإذا بالألوان الفاتحة تغمق، وإذا بى أرسم عينيها، وليس فيهما دهشة الطفل، ولكن فيهما جوع.. جوع القطة النهمة !

وازداد تلمل سوسن فى جلستها.. إنها لا تستطيع أن تستقر.. لا تستطيع أن تهدأ.. ولمحتها ترفع ثوبها عن ساقها، كأنها تغرني بهما.. كأنها تحاول أن تلهيني عن فنى.. وكنت فى هذه اللحظة أرسم شفتيها.. الشفتين اللتين تخيلتهما هادئتين نظيفتين، كشفتى

الجيوكوندا.. وإذا بي أرسمها شفاها غامقة فى لون الدم.. مثيرة..
متسخة !!

وتعبت..

وطلبت من سوسن أن تأتى فى اليوم التالى بالثوب الذى تريدى
أن أرسمها به.. وكنت قد أعددت فى خيالى ثوبا مقفولا لونه أخضر
فاتح.. ولكنها جاءت إلى بثوب أسود مفتوح.. ثوب يكشف عن لحم
صدرها، وعن كل ظهرها.. ووقفت تتمايل أمامى، وتقول لى :
- حلو الفستان يا أستاذ وحيد.. مش حلو والنبى.. ده أنا واخذ
الموديل بتاعه من كريستيان ديور..

ورسمتها..

ورسمت الفستان فى لون أحمر فاتح.. يكشف عن ساقىها،
وصدرها، ولم أرسم خلفها مياه البحر الزرقاء، بل رسمت فانوس
نور !!

ولم أر سوسن بعد ذلك..

لا أريد أن أراها..

وقد عرضت صورتها فى معرضى، وأسميتها : الرصيف !



هَلَا يَنْزُجُونَ

أريد أن أعرف كيف يختار الرجل زوجته ؟
إنى أعرف كيف يختار الرجل كرافتته.. إن
هناك دائما تناسقا بين جميع كرافتاته.. ذوق
واحد يختار به.. ويكفى أن ترى كرافتة واحدة،
لتعرف شكل الكرافتة التي سيختارها بعد سنة،
أو بعد خمسين سنة !



ولكنى لا أعرف كيف يختار الرجل زوجته ؟
هل يحكم ذوقه.. أبدا.. لو راجعت أنواع النساء اللاتي عرفهن كل
رجل فى حياته.. لوجدت أن ليس هناك ذوق واحد يربط بينهن..
سمينة.. رفيعة.. مثقفة.. جاهلة.. جميلة.. قبيحة..
ربما كانت هناك مقاييس محددة يختار بها الرجل زوجته..
مقاييس لا يدخل فيها الذوق..
ما هى هذه المقاييس !؟
هل هى الأخلاق ؟ أبدا.. إن البنات العفيفات الشريفات صاحبات
الأخلاق، أقل حظا فى الزواج من البنات المنحلات اللاتي يجرين بين
الناس بلا مبادئ وبلا أخلاق !
هل هو الجمال ؟ أبدا.. القبيحات يتزوجن أسرع من الجميلات..
هل هو الحب ؟.. أبدا.. إن قصص الحب التي تنتهى بالزواج أقل
بكثير من قصص الحب التي تنتهى بالانتحار..
الثقافة ؟.. أبدا.. أيضا..
الثروة.. الأصل الطيب.. و..و.. كل هذه مقاييس باطلة.. مقاييس
يتشدد بها الرجال، ثم يتجاهلونها..
لابد أن هناك شيئا صغيرا فى عقل الرجل، هو الذى يتحرك فى
لحظة معينة ليختار له زوجته !
ما هو هذا الشيء ؟

الله يعلم.. ولا أحد يعلم ؟
وأنا لى قصة.. قصة صغيرة بسيطة، هى التى دفعتنى إلى هذا
التساؤل.. ودفعتنى التساؤل إلى هذا الجنون !
أنى موظفة فى إحدى الشركات.. وبلا غرور.. أنا أجمل موظفات
الشركة.. وأطيبهن.. وأرقاهن ثقافة..
ورئيس القسم الذى أعمل فيه.. رجل فى السادسة والثلاثين من
عمره.. رائع.. ابتسامته تخطف القلب.. ومحترم.. ويفرض عليك
احترامه بلا تعمد.. و.. حلم كل موظفات الشركة !
وقد استطاع خلال سنوات طويلة أن يوزع إعجابه واهتمامه على
كثير من موظفات الشركة، دون أن يجرح عواطف واحدة منهن.. بل
دون أن يشعر واحدة منهن أنه معجب بالأخرى.. كانت كل واحدة
منهن تعتقد أنها الوحيدة فى قلبه وفى عينيه.. وتنطلق مع الأحلام
الكبيرة.. حلم الزواج به فى يوم من الأيام.. وكان يترك لكل واحدة
منهن أحلامها.. لا يصددها.. ولا يهدمها.. إن الحياة مع الأحلام،
أجمل من الحياة بلا أحلام.. كانت هذه فلسفته.. وكان قادرا برقته،
وذكائه وهيبته، على أن يثير الأحلام فى قلب كثير من البنات !
إلى أن التقت عيناه بعينى..
ومن يومها أصبح لى وحدى.. لم يستطع ذكاؤه أن يدارى إعجابه
بى.. وحببه.. وعرفت كل الزميلات.. عرفن أنه أصبح لى وحدى..
وأنى وحدى أصبحت صاحبة الحلم الكبير !
هل يحقق لى حلمى ؟
لا..
إنه يحببنى إلى حد لا يستطيع أن يخدعنى، ولا أن يترك لى حبال
الأمل كما كان يفعل مع بقية البنات..
إنه لن يتزوجنى..

لأنى مسيحية..

ولم أصددم.. لقد كنت أقدر هذه المشكلة أكثر منه.. كنت أعلم أنى لو غيرت دينى من أجله فسأقضى على أبى وأمى.. وأنه لو تزوجنى على دينى فسيقضى على أبيه وأمه.. وكلانا يحب أباه وأمه.. ولكن..

كان يجب أن أتزوج..

رغم حبى له.. كان يجب أن أتزوج.. أيضا، لأرضى أبى وأمى.. ولأرتاح من مشكلة.. ومن نظرة معينة يواجه بها المجتمع كل بنت لا تتزوج.. وتزوجت رجلا لا أحبه.. ولكنه محترم.. ناجح.. فيه كل الصفات التى تكفل لى الاستقرار.

ولا زلت أحب رئيس القسم..

وهو يعلم أنى لا زلت أحبه..

ويعلم أن حبى له يكفى ليغنيه عن كل البنات..

ولكنه فجأة تزوج..

بلا مقدمات.. رأيت يوزع بطاقات الدعوة إلى حفل قرانه، على الزملاء والزميلات، ورغم ذلك لم أفاجا.. لقد كنت أحسب حساب هذا اليوم، فى كل أيام حبى.. كنت أعلم أنه يوما ما سيتزوج.. كنت أعلم أنه وصل إلى السن التى يجب أن يتزوج فيها..

ولكن المفاجأة الكبرى.. الصدمة التى صدمتنى.. هى البنت التى اختارها لتكون زوجته.. إنها إحدى الزميلات، الموظفات فى الشركة.. وكنت أعلم أنه سيختار واحدة من الزميلات.. ولكن ليست هذه.. ليست هذه أبدا.. صدقنى أنها آخر بنت تصلح للزواج به.. أو للزواج بأى رجل.. ليست جميلة.. ولا مثقفة.. ولا غنية.. ولا فاضلة.. وليست شيئا على الإطلاق!

وصدقنى أنى لا أتحدث عن غيرة ولا عن حقد.

صدقنى أن هذه هى الحقيقة..

لماذا اختارها ؟

بأى ذوق.. الذوق الذى اختارنى به.. مش معقول !

بمقياس الثقافة.. أو الاحترام.. أو.. أو.. مش معقول أيضا.. ليس

هناك مقياس واحد ينطبق عليها..

وبدأت أتساءل..

وكل البنات يتساءلن..

وأخيرا سألته أنا :

- لماذا اخترتها.. هذه بالذات ؟

وهز كتفيه بلا مبالات، وقال :

- لا أدرى.. ربما لأنها الوحيدة التى لم تحلم بالزواج بى !

هل هكذا يتزوج الرجال !؟



سائبرک بیتنی!



أنا فى الثامنة عشرة..
وأختى فى السادسة عشرة
وأبى وأمى يعاملاننا كأننا صديقان لهما..
أبى يطلق لنا الحرية على آخرها، وهو دائما
مشغول.. مشغول عنا، ومشغول عن زوجته..
ودائما يبدو جادا.. إنه يجلس معنا فى الفترات
القليلة التى نراه فيها صامتا.. ينظر إلينا كأنه ينظر إلى مسرحية
تمثل أمامه.. ولا يبدى رأيه، لأنه لا يعتقد أن من حقه أن يكون ناقدا..
إن كل ما يجيده هو إدارة مصنعه.. وأمى فنانة.. أو هذا هو ما
تعتقده.. ترسم بالزيت... وتطرز قطع الأوبيسون.. وتذهب إلى
الحفلات.. وهى تنظر إلينا كأنها تنظر إلى ثوب من ثيابها.. يهمنها أن
يكون ثوبا جميلا. وأن يتحدث عنه الناس.. وأنا أعتقد أنها أم
ساذجة.. وأشفق عليها لسذاجتها.. وهى تحاول أن تكون صديقة لنا
- أنا وأختى - ولكننا لانستطيع أن نعتبرها صديقة.. إننا نحادثها
بصراحة.. ونناديها باسمها.. اسم الدلع.. ديدى.. ورغم ذلك
لانستطيع أن نعتبرها صديقة.. عقليتها لا يمكن أن تتفق مع عقليتى
أو مع عقلية أختى..

والواقع أننا - أنا وأختى - نجد أن أبى وأمى يثيران الملل.. ومما
يضاعف هذا الملل أننا مضطران للارتباط بهما.. ومضطران لأن
نعمل على إسعادهما.. ندللهم.. ونضحك أمامهما لنملا عليهما البيت
مرحا، ونبدد من حولهما وحدثهما.. أنا مثلا مضطر لا أتحمل أبى
حتى يدفع لى ثمن السيارة الصغيرة التى أنوى شراءها.. مضطر أن
أقنعه أنه رجل عظيم.. أو على الأقل أبدو أمامه كأنى مسلّم بعظمته..
ومضطّر فى الوقت نفسه أن أدلل أمى، حتى لا أجرح عواطفها..

وحتى أقنعها أنها عملت عملا عظيما بأن ولدتنى.. عمل تستحق عليه
التدليل..

وأحيانا أتساءل ما فائدة الآباء والأمهات ؟
أو على الأصح.. وحتى أضع تساؤلى فى صيغة مجردة.. ما
فائدة هؤلاء العواجيز !!

إن الدنيا ليست فى حاجة إلى الرجل بعد أن يبلغ سن الأربعين..
إنه يصبح بعد هذه السن عالة على الدنيا.. عالة على التقدم الذى
ينشده الإنسان.. إنه يفكر بعقلية الماضى.. ماضيه.. ويفكر كأن الدنيا
قد وقفت نهائيا.. وأن الطريق قد انتهى.. وهو يريد أن تقف كل
الأجيال التى تجيء بعده، فى نفس النقطة التى وقف عندها.. وهو
يفعل ذلك بسلامة نية.. لأنه هو نفسه يعتقد أن الطريق قد انتهى..
وأن البشرية قد وصلت إلى حافة الأفق..

وكثيرا ما حسبت الثروة التى يملكها أبى، ورحت أتخيل الأعمال
العظيمة التى كان يمكن أن أقوم بها لو كانت هذه الثروة فى يدي..
إنى أستطيع أن أحرر المصنع - مصنع أبى - من هذا الجمود الذى
يسير فيه.. من هذا الروتين البطيء.. وأنطلق به إلى أن يصبح فى
مستوى أرقى مصانع أمريكا.. وأستطيع أن أحرك كل جنيه ليصبح
عشرة.. ليصبح مائة.. بل إنى أستطيع أن أمتع نفسى بهذه الثروة
التى لا يمكن لأبى أن يتمتع بها.. لأن الواقع أن المتعة هى متعة
الشباب، فإذا انتهى الشباب لا يصبح هناك متعة فى الحياة
مهما امتلكت من ثروة.. كل شىء خلق فى الحياة، إنما خلق للشباب..
السيارة مثلا، إنها فى يد الشباب متعة، وحاجة.. إنه يستطيع أن
ينطلق بها انطلاق شبابه.. إن سرعتها هى سرعة الشباب.. إنها لم
تخلق للعواجيز.. إن العجوز سيان عنده أن يركب سيارة أو يركب
جملا.. بل إن الجمال يتلاءم مع طبيعته، ومع حاجته أكثر من

السيارة.. فإذا ركب بعد ذلك سيارة، استخدمها نفس الاستخدام الذى يصلح له الجمل.. سار بها فى هدوء وتأنٍ وحرص، كأنه جالس فى هودج على ظهر جمل..

ولا أعتقد أن المستقبل.. مستقبل البشرية.. سيحتل هؤلاء العواجيز.. لن يكون هناك عواجيز فى الأجيال القادمة.. لقد انقرض كثير من الحيوانات على مر الأجيال.. وانقرض كثير من أنواع النبات.. وكذلك سينقرض العواجيز.. لأن الحياة من عاداتها أن تتخلص من المخلوقات التى لا تحتاج إليها.. والحياة ليست فى حاجة إلى العواجيز.. إنها فى حاجة إلى الشباب وحدهم..
إنى مؤمن بأن الإنسان فى المستقبل لن يعيش بعد سن الأربعين..

وأبى الآن فى سن الثالثة والأربعين..

وأعتقد أنه يجب أن يموت..

وهذا الاعتقاد يمزق قلبى.. لو مات أبى فلا شك أنى سأحزن عليه جداً، فإنى رغم كل شىء أحبه.. ولكنى الآن أتكلم بمنطقى لا بعواطفى.. وأنا نفسى لا أتمنى أن أعيش بعد سن الأربعين.. إن أربعين سنة فى الحياة كثير.. كثير جداً.. يكفى أن أصل إلى التاسعة والثلاثين.. أى إلى نهاية الشباب.. وبعدها ما جدوى الحياة !!

وقد قلت هذا الكلام لأختى.. وبكت عندما تخيلت أن أبى يمكن أن يموت.. ولكنها مثلى مقتنعة بأن الحياة من حق الشباب وحدهم.. وأن الرجل أو المرأة بعد سن الأربعين يصبح شيئاً مملاً لا يحتمل.. ولذلك اقتنعت معى بأن العمر يجب أن ينتهى فى الأربعين.. وأن كل جهود العلماء التى تبذل الآن لابتكار الفيتامينات التى تزود العواجيز ببريق الشباب.. لن تجدى لأنها جهود تسير فى عكس اتجاه الطبيعة.. والطبيعة كما قلت تسعى دائماً للتخلص من العواجيز..

ثم..

فوجدنا يوما بأبى يدخل علينا، ثم ينظر إلينا نظرة غريبة، وهو يبتسم.. وكانت ابتسامته غريبة أيضا بالنسبة لنا.. فلم يكن من عادته أن يبتسم.. وهو يبتسم الآن ابتسامة كبيرة، تبدو أنها ابتسامة من القلب.. إنها ابتسامة تملأ كل وجهه..

ثم قال فى بساطة :

- يا أولاد.. سأترككم !

ولم نفهم شيئاً .. وقالت أمى فى سداجة :

- إلى أين ؟

وهز أبى كتفيه وقال :

- لا أدرى..

وقالت أختى :

- ومتى ستعود ؟

وقال فى برود عجيب :

- لن أعود !

وقالت أمى وفى عينيها فزع :

- ماذا تقصد ؟

قال وهو يبتسم :

- لا شىء.. كل ما هنالك أنى أفلست.. وكان هناك أكثر من وسيلة

للتغلب على الإفلاس.. ولكنى منذ أسبوع وأنا أفكر.. بماذا أتغلب على

إفلاسى.. ولم أجد هناك أى مبرر كى أسعى لاستعادة مركزى.. إنى

منذ ثلاثين سنة وأنا أشتغل كل يوم.. منذ ثلاثين سنة وأنا أضع على

وجهى هذا القناع الجاد.. وأرتب حياتى بالدقيقة والثانية.. والآن

شعرت أن من حقى أن أتحرر من كل ذلك.. وأن أنطلق حراً من دقائق

الساعة.. أن أتسكع فى الحياة.. أن أجلس على مقعد فى شارع

الكورنيش وأكل كوز ذرة مشوى.. أن أتحرر حتى منكم..

قلت أقاطعه فى حدة :

- هذا ليس من حقلك.. إنك لاتستطيع أن تتركنا بعد أن تحملناك

كل هذه المدة الطويلة..

قال أبى فى بساطة :

- وأظن أنك كنت طول هذه المدة تعتقد أنى إنسان ممل..

قلت :

- هذا صحيح.. ولكن هذا ليس ذنبك.. كل الآباء مملون !

قال أبى كأنه يسخر منى :

- ألم يخطر على بالك أن كل الأبناء مملون أيضا..

وصرخت :

- كيف.. إن الشباب لا يمكن أن يكون مملا.. من يملأ هذا البيت

بالحياة، إلا أنا وأختى.. من يزحم البيت بالضحكات.. من يسليكم..

أنا.. وأختى.. وقد كنت أبذل مجهودا كبيرا لأجعل من دنياك أنت

وأمى دنيا متحركة.. حية.. لا دنيا جامدة.. مية..

فقاطعنى فى هدوء :

- لقد بذلت مجهوداً كبيراً فى أن تجعل من نفسك شيئاً أكثر

سخافة.. لقد كنت أستمع إليك وأنت تتكلم عن البديهيات كأنها فلسفة

خطيرة توصلت إليها بذكائك.. وتصرخ وأنت تحكى لنا عن شىء

تافه كأنك تحكى قصة اكتشاف ضخم.. وكنت أتحمل سخافتك لأنى

كنت أعذرک.. فالأشياء عندما يراها الإنسان لأول مرة تبدو كبيرة..

والأفكار عندما تخطر على الرأس لأول مرة تبدو خطيرة.. وكنت

دائماً أحس بأنك تنظر إلى كائى لا أعرف شيئاً مما تعرفه.. ولم أر

شيئاً مما تراه.. كان يخيل إليك أن كل يوم يمر بك هو اكتشاف

جديد، لم يمر فى حياتى.. كنت أعلم أنك تعتبرنى الماضى.. وتعتبر

نفسك المستقبل.. وأن المستقبل لا يمكن أن يتفاهم مع الماضي.. وكان كل ذلك يقلب معدتى.. ويملؤنى بالسأم من حديثك.. لأنه حديث شاب جاهل مغرور..

وصرخت :

- أنت أول أب يقول هذا الكلام.. إنك حتى لو اعتبرتني جاهلا، فلا يمكن أن تعتبرني مملا.. ولا يمكن أن تسأم منى.. إننى ابنك.. والأولاد هم كل ما يبقى من متعة للآباء.. العواجيز !

وابتسم ساخرا :

- إن الأولاد متعة فعلا وهم صغار.. فى الثالثة وفى الرابعة من العمر.. إنهم فى تلك السن يكونون أشبه بالعرائس.. نلهو بها، فى أوقات فراغنا.. ثم بعد ذلك يكبرون.. ولا يصبحون عرائس، ولا لعبا.. يصبحون أشياء مملة.. أوعية من الجهل والغرور.. وكل منهم يعتبر نفسه شخصية كاملة منفصلة عن شخصية أبيه.. ورغم ذلك فهذه الشخصية الكاملة تعيش عالية على الأب.. عالية على الدنيا..

وقلت فى حماس :

- أنا لست عالية عليك.. بالعكس.. أنت عالية على.. لأنى مضطر أن أعيش معك حتى أسليك.. وحتى تتباهى بى أمام أصدقائك.. وحتى أملاً عليك البيت.. وأنت تصرف على نظير بقائى معك فى البيت.. لو أنك سمحت لى بأن أقيم فى شقة وحدى - وهو ما أريده - وظللت تدفع لى نفقات حياتى، لكنك فعلا عالية عليك.. ولكنك لا تفعل ذلك.. لأنك تدفع لى كل قرش نظير متعتك بى كأب.. إنك تدفع أجرا لى أكون ابنك.. ولكن مهما دفعت لى فلن أكون عروسة تلعب بها فى أوقات فراغك.. إنى لست عروسة.. أنا رجل.

وقال ساخرا :

- إنك ستحتاج حالا لإثبات رجولتك..

قلت :

- إن الأبناء فى السويد حلوا هذه المشكلة.. فالابن فى السويد
يترك بيت أبيه وهو فى السادسة عشرة من عمره..

قال فى استخفاف :

- اعتبر نفسك فى السويد.. فإننى سأتركك ما دمت لم تتركنى
رغم أنك بلغت الثامنة عشرة.

وصرخت أمى :

- وابنتك.. هل ستتركها هى أيضا.. هل تريد لها أن تبيع جسدها
فى سوق الرجال نظير أجر، حتى تعيش ؟

قالت أختى :

- لا تكونى ساذجة يا أمى.. إن الهاويات هذه الأيام لم يتركن
سوقا للمحترفات.. هذه مهنة لم تعد مصدر رزق.. إنما أصبحت
هواية.. سأبحث عن مهنة أخرى !

وصرخت أمى والدموع فى عينيها، كأنها لم تسمع كلام أختى :

- أنا لا أستطيع أن أترك أولادى..

قال أبى :

- إنك ستبقين معهم..

قالت فى دهشة :

- هل ستتركنى أنا أيضا ؟

قال فى هدوء :

- نعم..

قالت :

- ولكنى أحبك.. وأنت تحبنى.. كيف تتركنى ؟

قال :

- لقد كنت أحبك، وكنت تحبيننى.. ولكن هذا الحب انقلب مع

الأيام إلى عادة.. فقد حماسه.. فقد وهجه.. أصبح أشبه بشيء
نمارسه بحكم ارتباطنا.. إنك تقبليننى بنفس الاندفاع الذى تضعين
به الفرشاة فوق أسنانك كل صباح.. وكلما عدت من عملى نظرت إلى
كأنك تنظرين إلى وجه صحيفة الأهرام، فإذا لم تجدى فيها أخباراً
تهمك ألقيت بها جانبا.. وثلاثة أرباع كلامنا كلام معاد.. إنى أقول لك
« إزيك » كل يوم دون أن أشعر فعلا بأنى أسأل عن حالك.. وأنت
تقولين صباح الخير.. دون أن تحسى بأنك تتمنين لى فعلا صباحا
فيه خير. كل شيء بيننا فقد معناه.. وأهم من ذلك.. فقد إحساسنا
بحاجتنا إليه.. وعندما أتركك ستعذبين أياما قليلة.. ولكنه ليس عذاب
الحب.. حتى لو خيل إليك أنه عذاب الحب.. إنه مجرد الضيق من
اضطرارك لتغيير عادتك.. أنه ضيق أشبه بما تحسین به عندما لا
تغسلين أسنانك فى الصباح.. أو عندما لا تطلين فى وجه جريدة
الأهرام.. فلا تتركى خيالك ينطلق بك إلى عذاب أكبر.. ولا تحاولى
أن تتخلى نفسك ضحية، لتعذبي بخيالك..

وبكت أمدى..

و..

وتركنا أبى..

وكل ما تركه لنا - بعد إشهار إفلاسه - هو البيت الذى نقيم
فيه.. وقد أجرنا الدور العلوى منه، وخصصنا قيمة الإيجار لأمى..
وخرجت أنا وأختى نبحث عن عمل..
اشتغلت أختى سكرتيرة..

وأنا.. أنا لا زلت طالبا فى الجامعة.. ولكنى يجب أن أبحث عن
عمل.. واندفعت بكل شبابى أبحث عن عمل.. عمل عظيم.. عمل
يستطيع أن يقوم به الشباب.. بكل ما فى الشباب من مستقبل..
وصدمت.. إنى لا أملك شيئا أعمل به.. حتى أفكارى الكبيرة، كنت

اكتشفت أنها قديمة وصغيرة، كلما بدأت فى تنفيذها..
واشتغلت جرسونا.. أكسب ما بين ثمانية جنيهاً، وعشرة
جنيهاً فى الشهر.. وأذاكر بعد عملى لأحصل على شهادتى
الجامعية..

وأخذت أحسب مكسبى.. سيرتفع دخلى بعد أن أتخرج فى
الجامعة إلى عشرين جنيهاً.. وتمر سنوات ويرتفع إلى ثلاثين.. وتمر
سنوات أخرى ويرتفع إلى أربعين.. ثم إلى خمسين.. و.. و.. إنى لن
أستطيع أن اشتري سيارة قبل سن الأربعين.. إنى لن أستطيع أن
أستريح إلا فى سن الأربعين.. لن أستطيع أن أكون عظيماً قبل سن
الأربعين.. لن أستطيع أن أمتع بالحياة قبل سن الأربعين..

أريد أن أصل إلى سن الأربعين..

لا أريد أن أموت قبل الأربعين..

إن الحياة تبدأ بعد الأربعين..

و..

أتدرى..

لقد أوحشنى أبى..



منذ سنوات قرأت سطراً فى مسرحية لسومرست موم.. وتذكرت
السطر الذى قرأته.. وهذا السطر هو الذى جر وراءه كل هذا الكلام
الذى كتبته..



الزوجة العاقلة

إنى زوجة عاقلة..
وكنت بنتا عاقلة !
وأنا جميلة أيضا..
أجمل مما تتصور..



ومن عائلة كبيرة.. كل القوانين الاشتراكية التي

صدرت منذ قيام الثورة انطبقت على عائلتي.

وقبل أن أتزوج، كان على أن أختار بين اثنين : عصام،
ومصطفى..

كلاهما يحبني..

وكلاهما يريد أن يتزوجني..

ولكن حب عصام كان أكثر مما أحتاج إليه من حب.. حب يبلغ حد
العبادة.. كان يؤلهني.. ويذيب شخصيته في حبي..
وكان حب مصطفى، هو القدر الكافي الذي أريده من الحب.. لم
يكن حبا أكثر من اللازم.. ولكنه كان الحب اللازم..
ولم أستطع أن أعطى عصام من حبي، بقدر ما يعطيني من حبه..
فتزوجت الآخر..

تزوجت مصطفى، وأنا واثقة أن حبي في مستوى حبه.. إلى هذا
الحد كنت بنتا عاقلة..

ومرت خمس سنوات أنجبنا خلالها ولدا وبنتا.

ثم بدأت ألاحظ أن شيئا في حبنا بدأ يتآكل ويذوب.. ليس الحب
كله.. ولكن شيء منه.. ربما كانت رغبة كل منا في الآخر.. اللهفة
الحسية التي تدفع كلا منا ليأخذ الآخر..

متى بدأت ألاحظ ؟..

لا أدري بالضبط..

ولكننا كنا مدعوين إلى حفلة ساهرة.. وكنت أرقص معه.. وفجأة

لاحظت أنى وأنا أرقص معه أتلفت بعينى أرقب وجوه الرجال
الآخرين، وأحكم على وسامة كل منهم.. وصدمتنى هذه الملاحظة
التي تنبعت إليها فجأة.. والتفت إليه.. إلى زوجى.. وضميرى يؤلمنى،
وشىء كالأعتذار يطل من عينى.. وإذا بى أصدم صدمة أخرى.. لقد
ضبطته هو الآخر ينظر إلى سيقان النساء الأخريات.. وهو يرقص
معى !

ولم أتكلم..

مرت الشهور وأنا أشعر بهذا الشىء الذى يذوب بينى وبين
زوجى.. دون أن أتكلم، ودون أن أحاول شيئاً..

ولم يكن هذا الشىء هو كل مافى حياتنا.. طبعاً، لا.. إن فى
حياتنا أشياء جميلة أخرى تسعدنى وتسعده.. إنى أثق بعقله، وهو
يثق بعقلى.. وأحب أن أكون معه دائماً، ويجب أن يكون معى..
حديثنا دائماً شيق.. وضحكاتنا دائماً من القلب.. ثم إنه أب رائع
لأولاده.. وزوج رائع.. إنى أتمتع بنجاحه كطبيب شاب.. وأتمتع
بالمركز الممتاز الذى يوفره لى فى المجتمع.. وأتمتع بالحياة الباذخة
التي يوفرها لى.. فيلا.. وسيارة خاصة لى.. وطباخ.. واثنين
سفرجية.. ومربية للأولاد.. وثياب.. ومجوهرات.. كل شىء.. كل
شىء.. وأكثر من ذلك، وسامته التى أتخايل بها كلما وضعت ذراعى
فى ذراعه وظهرت به أمام الناس..

ثم..

بدأت ألاحظ أن زوجى اتخذ له عشيقة..

ثم..

تأكدت أن له عشيقة..

ثم..

عرفت أن عشيقته هى أعز صديقاتى.. فريدة !

وفريدة متزوجة أيضا..

وكدت أثور..

لقد أحسست بالثورة تتجمع فى صدرى وتكاد تنطلق.. ولكنى - كما
قلت لك - عاقلة.. عاقلة جدا..
وبدأ عقلى يطفئ ثورتى..
لماذا أثور؟..

ليس من حقى أن أثور.

لقد تزوجنى لأوفر له كل شىء.. فإذا نقصه شىء فإن من حقه
أن يبحث عن هذا الشىء لدى امرأة أخرى.. وهو يدفع لى لأوفر له
كل شىء.. وأنا فى حاجة إلى نقود لأحتفظ بالحياة التى أحيها..
صحيح أنى من عائلة كبيرة.. ولكنى لست غنية إلى الحد الذى
أستطيع أن أدفع تكاليف الحياة التى أحيها.. وبصراحة أهلى لا
يدفعون لى شيئا.. هو الذى يدفع.. وهى أنانية منى إذا أخذت نقوده
وأنا لا أستطيع أن أعطيه نظيرها كل ما يحتاج إليه.. وأنانية أكثر إذا
صممت على أن يظل محروما من شىء يحتاج إليه.. ثم هو عبط -
غاية العبط - والغباء، إذا طلبت الطلاق وتنازلت عنه وعن الحياة
التى يوفرها لى، لمجرد أنه ذهب يبحث عن شىء يحتاج إليه - ولا
أستطيع أن أقدمه له - لدى امرأة أخرى..

إن الزواج مسألة اقتصادية محضة..

رجل يدفع.. وامرأة تعطى نظير ما يدفعه !

قد تقول إن هناك شيئا آخر تقدمه المرأة للرجل نظير ما يدفعه.. تربية
أولاده.. وإدارة بيته.. وقد يكون هذا صحيحا فى الطبقات الفقيرة أو
المتوسطة.. لو كنت أنا التى أطبخ الطعام، وأنا التى أنظف البيت، وأنا التى
أغسل ثيابه، وأنا التى أربى الأولاد.. لثرت عندما أكتشف خيانة زوجى،
لأنى فى هذه الحالة أعلم أنى أقدم له أشياء أخرى نظير نقوده التى

يدفعها .. ولكنى لا أفعل شيئاً من كل هذا.. الخدم هم الذين يفعلون كل شىء.. والمربيات هى اللاتى يربين أولادى.. والإشراف على الخدم والمربيات لا يأخذ من وقتى أكثر من عشر دقائق فى اليوم.. وعشر دقائق لا تساوى كل ما يدفعه لى زوجى !

وقد تقول إن الزوجة تقدم أكثر من ذلك لزوجها.. إنها تشاركه تفكيره... وهى صديقة له.. كلام فاضى.. إن الأزواج عادة لا يشركون الزوجات فى تفكيرهم.. وآخر امرأة تصلح صديقة للرجل هى زوجته.. بل أنك تستطيع أن تعرف المتزوجين من غير المتزوجين من مظهر صداقتهم.. فإذا مررت باثنين - رجل وامرأة - يتحادثان ويضحكان فهما ليسا زوجين.. وإذا مررت باثنين « مبلمين » كل منهما سارح بعقله بعيدا عن الآخر، فتق أنهما متزوجان !!

وأنا فعلا صديقة لزوجى، ولكن هذه الصداقة لا تميزنى عن كثير من النساء.. تستطيع كل منهن أن تكون صديقة له، ويسعد بصداقتها.. إن الزوجة فى طبقتنا - الطبقة الغنية - ليس لها قيمة تستحق ما يدفعه لها الزوج من ماله، إلا قيمة واحدة.. قيمتها كامرأة، اختارها لأنها تستطيع أن ترضيه كرجل.. وكل ما يميزها عن أى امرأة من بنات الرصيف، أن الرجل لا يستطيع أن يصل إليها إلا إذا ظل يدفع لها الثمن طول حياته، بعقد مسجل اسمه الزواج !

وأنا لا أخجل وأنا أقول هذا الكلام.. لأنى أتكم بعقلى، لا بأعصابى، ولا بأحاسيسى..

وتغلب عقلى على.. أقنعنى..

ورضيت، أو سكت، عندما اتخذ زوجى عشيقه.

وسكت أكثر عندما علمت أن هذه العشيقه هى صديقتى فريدة فإن فريدة ممتازة بكل الصفات التى تطمئننى إذا أصبحت عشيقه لزوجى !

إنها جميلة... جميلة جدا.. وهذا يجعلنى أحس بأن كرامتى محفوظة.. لو أن زوجى لجأ إلى امرأة أقل منى جمالا لجرحت كرامتى .. لأن المرأة إذا كانت أقل منى جمالا فلا بد أن فيها شيئا آخر غير الجمال جذب إليها زوجى.. ربما كانت أذكى منى.. وأنا أخشى من المرأة الذكية.. ولا أخشى من المرأة الجميلة.. وفريدة مجرد امرأة جميلة !

ثم أنها غنية.. غنية جدا.. وزوجها غنى.. وهذا يطمئننى إلى أن زوجى لن يدفع لها شيئا من ماله.. لن يأخذ من نصيبى ليعطيها.. ستظل كل أمواله لى..

ثم إنها غبية.. وهذا يطمئننى إلى أنها لن تستطيع أن تأخذ من زوجى أكثر مما أسمح لها بأخذه.. إنها لن تستطيع مثلا أن تتزوجه، لأنى أعلم أنها أغبى من أن تستطيع أن تقنعه بالزواج، ولأنها إذا حاولت أستطيع أن أدمرها بذكائى..

وهكذا عشت..

شهورا..

وصداقتى مع فريدة تزداد.. إنها تزورنى كل يوم تقريبا.. وتتناول معنا العشاء أكثر من مرة فى الأسبوع.. وزوجى يجلس بينى وبينها.. وأحيانا تأتى مع زوجها عندما لا يكون مسافرا.. وهو يسافر كثيرا.. بل أنى كنت أنتقى لفريدة ثيابها.. وأذهب إلى بيتها وأصمم لها أثاثا جديدا لغرفة نومها !

هل أنا باردة ؟

حجر..

قل عنى ما شئت.. ولكنى أسمى نفسى عاقلة !

وقد احتار الناس فى عقلى..

كانت ألسنة المجتمع - المجتمع الراقى - قد بدأت تلوك سيرة

زوجى مع فريدة.. كنت أحس بما يقال، ولكنى لم أكن أسمعه.. لأنى لم أكن أريد أن أسمعه.. كنت لا أسمح لأحد، ولا أعطى الفرصة لأحد، ليتحدث عن زوجى وفريدة أمامى..

وكان الجميع يظنون أنى لا أعلم بقصة زوجى.. حتى أختى كانت تظن أنى لا أعلم.. وتحاول أن تلمح فى حديثها لعلى أعلم، ولكنى كنت أتجاهل تلميحاتها، ثم أوقفها عند حدها إذا حاولت أن تتعدى التلميح إلى الصراحة.. وأمى أيضا كانت تظن أنى لا أعلم.. ولكنها لم تحاول أن تلمح لى بشيء.. كانت تنظر إلى بعينين ملهوفتين كأنها تشفق على.. وكأنها توصينى بأن أتصرف بحكمة.. وأمى أكثر من يعلم أنى عاقلة !!

وعلى أى حال.. ماذا يريد المجتمع منى.. إنه يريدنى أن أتطلق.. يريد أن يخرب بيتى، ليرضى نزعة الشر والشماتة فى كل مجتمع.. لا.. لن أعطى المجتمع ما يريد.. وسأعطى زوجى ما يريد !! إلى أن كان يوم..

وكانت فريدة فى بيتنا تتناول العشاء معنا.. وزوجى جالس بينى وبينها !

وفجأة سمعت جرس الباب يدق.. ثم اندفع إلينا زوج فريدة كالثور الهائج.. ووقف أمامنا وكله يرتعش.. ثم نظر إلى فى عيني، وقال صاخبا :

- يا هانم، أحب أقول لك إن جوزك ماشى مع مراتى.. وارتعشت فريدة، ووجهها أصبح فى لون مفرش المائدة !

وقفز زوجى واقفا وعيناه خارجتان، وهو يتهته بكلمات غريبة !! وابتسمت أنا فى برود وقلت للزوج الهائج :

- أظن ما يصحش تواجهنى بكلام زى ده، إلا بعد ماتتأكد منه ! وصرخ الرجل وهو يضرب المائدة بقبضة يده :

- أنا متأكد..

قلت وأنا أسحب ابتسامتي وأنظر إليه نظرة جادة :

- تسمح تقول لى اتأكدت إزاي ؟

ومد يده فى جيبه وأخرج علبة سجائر ذهبية.. ولوح بها أمام عيني..
إنها علبة سجائر زوجي، وعلى طرفها الحروف الأولى من اسمه..
وعاد الرجل يصرخ :

- مش دى علبة سجائر مصطفى.. النهاردة جيت من السفر..
ودخلت أوضة النوم.. وقلبت مخدة السرير بالصدفة، لقيت تحتها
علبة السجائر.. يبقى معنى كده إيه.. عايزانى أتأكد أكثر من كده
إيه..

ومددت يدي فى بساطة، وتناولت منه علبة السجائر، وقلت وأنا
أبتسم :

- مرسى..

ونظر إلى فى جنون وصرخ :

- مرسى يعنى إيه ؟

قلت :

- العلبة بتاعة مصطفى صحيح، لكن أنا خدتها منه من زمان..
وامبارح كنت عندكم فى البيت، وكانت فريدة نايمة فى السرير، وأنا
جيت قعدت جنبها.. وطبعاً طلعت علبة السجائر علشان آخذ
سيجارة.. ويظهر أنها انزاحت ودخلت تحت المخدة، وقمت وروحت
ونسيتها.. المهم أنى طول النهار بادور عليها.. ماكنتش عارفة أنا
نسيتها فين.. وكنت خايفة إن مصطفى يعرف إنها ضاعت منى،
يزعل.. الحمد لله اللى لقيتها..

وسكت الرجل وهو ينظر إلى كأنه لا يصدقنى ثم قال :

- صحيح الكلام ده ؟

ونظرت إليه فى غضب، وصرخت فى وجهه :
- طبعا صحيح.. ومن فضلك تانى مرة قبل ماتتهم جوزى لازم
تتأكد.. أنت مش بس اتهمت جوزى.. واتهمت صاحبتى كمان.. وأنا
أفهم أنك تكون غيور على مراتك.. إنما ماافهمش أنك تحاول تفسد
حياتى بغيرتك... أنا عارفة جوزى كويس..
وعارفة صاحبتى كويس..
وأخذ الرجل يتلفت فى وجوهنا نحن الثلاثة.
وفريدة تبكى وترتعش..
وزوجى واقف ينظر إلى زوج عشيقته فى هلع وينظر إلى فى
عجب..

ثم هدأت نظراته..

ونكس رأسه..

وارتبك..

وقال زوج فريدة فى صوت خفيض :

- أنا آسف.. آسف قوى.. أنا مروح البيت يافريدة !!

وخرج..

ووقفت أنظر إلى زوجى وعشيقتة وبين شفتى ابتسامة ساخرة..

ورفعت فريدة رأسها وقالت ودموعها تبلل عينيها الجميلتين :

- أنا مش عارفة أقول إيه ؟

قلت فى حزم :

- ما تقوليش حاجة..

قالت :

- مش عارفة أعتذر لك إزاي..

قلت :

- ما تعتذريش.. إنتى ما خدتيش من جوزى أكثر من اللى

سمحت لك إنك تاخديه..

وشهقت كأنها فوجئت..

وقال زوجي وهو يقترب مني في حذر :

- قصدك إنك كنتي عارفة من زمان ؟

قلت في ثقة :

- من أول يوم.. لكن أنا كنت فاكراك أذكى من كده.. ماكنتش

فاكره إنك ممكن أنت وفريدة تنسوا نفسكم لدرجة إنك تروح لها

البيت، وتنسى علبة سجايك تحت المخدة..

وانفتحت عينا فريدة كأنها مبهورة، وقالت :

- إنتي مدهشة.. مدهشة..

ثم قامت من على مقعدها وهمت بالانصراف..

وصرخت فيها :

- رايحه فين ؟..

قالت كأنها تلميذة خائبة :

- رايحه أصالح جوزي..

قلت في حدة :

- إوعي تصالحيه.. بالعكس.. ازعلي منه.. جدا.. افضلي عيطي

على طول.. وماتخليهش يقرب لك، ولا يلمسك، ولا يكلمك.. فهميه أنه

جنى عليكى.. فهميه أنك مش حتصفحي عن عدم ثقته فيكى..

وافضلي كده.. لغاية ما يجيب هدية كبيرة.. والا يكتب لك العمارة

بتاعته.. فاهمة !

قالت وقد عادت مبهورة بذكائى :

- حاضر..

وخرجت.. وأنا أبتسم وراءها ساخرة..

واقترب مني زوجي أكثر وقال بصوت مخنوق يرتعش :

- حاتعملى إيه يا شهيرة ؟
ورفعت رأسى إليه، وقلت مبتسمة :
- مش حاتحلى.. تحب أقشر لك برتقالة ؟
وعاد يقول وفى صوته رنين مسكين :
- اعملى معروف.. حاتعملى إيه فينا.. فينا أنا وأنت !
ولم أرد..

أخذت أقشر برتقالة وأنا أخاطب نفسى فى سرى.. إنه لا يعلم
أنى حائرة فيما يجب أن أفعله.. هل أطلقه، وأخسر حياتى.. هل أظل
راضية بهذا الوضع الشاذ الذى وجدت نفسى فيه.. هل أخونه.. نعم
لقد فكرت أن أخونه.. وعصام الذى يحبنى من قبل أن أتزوج، لا
يزال يحبنى.. ولا يزال يبدى حبه فى كل مناسبة من المناسبات
العامة التى نلتقى فيها.. ولكن لم أكن أستطيع أن أخون زوجى وهو
يدفع لى من ماله.. وهو يصرف على.. أن بعض الثمن الذى أتقاضاه
منه، هو ثمن إخلاصى له، وثمان أن أكون ملكه وحده.. وإذا كنت قد
سمحت له بخيانتى فلأنى لا أدفع له ثمن إخلاصه.. أما هو، فيدفع
لى !!

لذلك لم أخنه..

ولكن هل أستطيع أن أستمر هكذا.. أن أعيش هذه الحياة ؟
إن الطريق الوحيد لى أبدل هذه الحياة هى أن أستقل عن زوجى
مالياً.. أن أتحرر منه اقتصادياً.. ألا آخذ منه ثمن شىء لا أعطيه له..
حتى لا أحتمل منه شيئاً لا أرضاه لنفسى ؟

كيف ؟

كيف أتحرر ؟

بأن أشتغل.. أن أكسب.. أن يكون لى دخلى الخاص حتى لا
أعتمد على دخله.. أن أرفض نقوده.. وتكون لى نقودى..

وكانت لى صديقة افتتحت محلا لتأثيث البيوت.. وهندسة الديكور.. وسبق أن عرضت على أن أشارك معها.. كانت تعرف أنى خبيرة فى الديكور، وأنى أستطيع أن أجتذب إلى المحل، صديقاتى اللاتى يثقن فى ذوقى، ولم تكن تريد منى أن أشاركها فى رأس المال، ولكن أشاركها بعملى.. ولى نصف الأرباح.. ورفضت أيامها..

رفضت لأنى كسولة، ولم أكن أعتقد أنى أطيق العمل.. ولكن الآن.. وبعد هذه الفضيحة التى ارتكبتها زوجى وفريده.. هل أصر على كسلى ؟

وعاد صوت زوجى المرتعش يقول :

- ما تسكتيش يا شهيرة.. قولى لى حانعمل إيه ؟

والتفت إليه وقلت فى بساطة :

- حاشتغل ؟

قال فى دهشة مفاجئة :

- إيه ؟!

قلت :

- حاشتغل مع صاحبتى منيرة فى محل الديكور ؟

قال فى حدة :

- وايه عرفك أنى حاسم لك تشتغلى !

قلت وأنا أبتسم له :

- أنا سمحت لك بحاجات كتير.. أظن ممكن تسمح لى أنى

أشتغل.. وما أظنش الشغل عيب..

ولم يستطع زوجى أن يقاوم طويلا..

واشتغلت..

وكل شىء بدأ يتغير..

زوجى ينتظرنى كل يوم حتى أعود من عملى.. وكان فى أول الأمر يطلق أعصابه فى وجهى كلما عدت.. ولكنه بدأ يتعود.. وبدأت أعصابه تنطق باللهفة.. اللهفة إلى رؤى.. ولكنى لا أشبع لهفته.. إنى لم أقرر بعد أن أشبع لهفته.. وشخصيتى تكبر أمام شخصيته.. شعورى بالاستقلال ينفخ فى شخصيتى.. وهو يحاول أن يسيطر على هذه الشخصية الجديدة.. ولكنه لا يستطيع.. فيخضع لها..

وقد سافرت فريدة بعد الحادث.. أخذها زوجها وأقاما فى الاسكندرية محل عمله.. وربما كان زوجى خلال هذه الشهور قد تردد على امرأة أخرى.. لا أدرى.. والواقع أنى لم أهتم..

وفى آخر العام، أخذت أرباحى من محل الديكور..
ربحت ألفى جنيه..

وهرعت إلى زوجى فرحة، وقلت مهللة :

- ربحت ألفين جنيه فى سنة واحدة..

وقال زوجى فى برود وقرف :

- مبروك..

وعدت أقول :

- وخطيت لك فى حسابك فى البنك ألف وخمسميت جنيه !

قال :

- ليه.. بتوع إيه دول ؟

قلت :

- نصيبى فى مصروف البيت طول السنة..

وقفز صارخا :

- مين قال لك إنى عايز الفلوس اللى صرفتها عليكى.. من إمتى

كنت باحاسبك على مصروف البيت ؟.

وقلت فى هدوء :

- ماتنساش أنى باشتغل دلوقت.. بقيت زى زيك.. ولازم أبقى
زى زيك فى المصروف..

وصرخ :

- أنا ما اسمحش.. كرامتى ما تسمحش !

قلت :

- أما مصممة.. لأن كرامتى برضه ماتسمحش.. وعلى فكرة.. أنا
مسافرة بكره لبنان..

قال فى زهول :

- لوحدك ؟.

قلت فى بساطة :

- لأ.. مع عصام ؟

وجن صارخا :

- يعنى إيه.. إزاي أسمح لمراتى تسافر مع واحد كان عايز
يتجوزها ؟.

قلت :

- ولسه عايز يتجوزنى..

قال :

- يعنى.. إيه.. تكونيش ماشية معاه ؟

قلت فى هدوء :

- أنت عارف يا مصطفى أنى مش ممكن أمشى مع حد.. أنت
متأكد أن ده مش من مبادئى.. أنا عارفه كويس أن الستات مش زى
الرجالة.. الراجل زى التور ما يهמוש أنه يعاشر ميت بقرة.. إنما
الست حاجة تانية.. الست يكفيها راجل واحد، لأنها بتمثل الأمومة
والحنان والنظافة.. والراجل لما يخون مراته ما بيخسرش حاجة..
إنما الست أما تخون جوزها بتخسر كل حاجة.. بتخسر

شخصيتها.. بتتمرط .. بتضيع منها أجمل ما فيها.. وبتلاقى نفسها
ماشية فى طريق ما تقدرش ترجع منه.. أنا عارفة كل ده كويس !
وسكت قليلا، ثم قلت :

- إنما عصام عايز يتجوزنى..

قال وكله يرتعش :

- أنا ما اسمحش أنك تسافرى معاه.. مش ممكن أسمع لك !!

قلت :

- ما تنساش أنى باسمح لك بحاجات كتير.. وأنا دلوقت زى

بعض..

قال وهو يكاد يبكى :

- إنتى بتنتقى منى.. كفاية يا شهيرة.. كفاية عذاب... إنتى

عارفة أنى بحبك.. وعارفة أنى محتاج لك... وعارفة أن الغلطة اللى

غلطتها راحت لحالها.. وعارفة أنى عايزك.. عايز أبوسك.. عايز آخذك

فى حضنى..عايز استريح على كتفك..

و..

و..

ولم أسافر إلى لبنان..

أنى أقضى مع زوجى عمرا جديدا..

كأننا تزوجنا من جديد..

ولا زلت أشتغل..

لأنى عرفت أنه لن يكون زوجى لى، إلا إذا كنت مستقلة عنه !!



هذه ليست قصتى.. ولكنها قصة مسرحية لسومرست موم،

تذكرتها.. ونشرتها مختصرة، معربة، بتحويل كبير لم يخطر ببال

سومرست موم !!

فهرس

صفحة

٥	قتلت عمى
١٧	الحاج مدبولى .. حرامى
٣١	سارق الأتوبيس
٤٥	لاعب الكرة .. يحب
٥٥	إمبراطورية «ميم»
٦٧	الشيخ فى بطن القطة
٧٥	حنان بنت السلطان
٨٥	إنهم يصفقون لى
٩٧	رسالة أم
١٠٧	لماذا أعيش
١٢١	أريد أن أقتل
١٢٩	المسئولية
١٣٥	قلب المضيفة
١٤٥	زواج البحار
١٥٥	بلا شخصية
١٦١	كيف ننسى
١٦٧	الحب والمجتمع
١٧٣	قبل الطلاق
١٧٩	تزوجت نجمة
١٩١	الناس يضربون عنتر
٢١١	مهنة الأغنياء
٢١٧	الثأر
٢٢٥	البحث عن أمى
٢٣٣	وأنا
٢٤١	العبرى
٢٤٧	الجميلة
٢٥٧	مصران أعور

فهرس

صفحة

٢٦٥	الخطوط الطويلة
٢٧٣	أين زوجى
٢٨١	الرصيف
٢٨٧	هكذا يتزوجون
٢٩٣	سأترك بيتى
٣٠٣	الزوجة العاقلة

بطاقة فهرسة:

عبد القدوس ، إحسان ، ١٩١٩ - ١٩٩٠
بنت السلطان / إحسان عبد القدوس. - ط ١.
القاهرة : قطاع الثقافة، (٢٠٠٩) ٣٢٠ ص ؛ ٢٠ سم . -
(الأعمال الكاملة)

تدمك ١٤٢٢٩ ٨ ٩٧٧٠

١ - القصص العربية

٨١٣ أ - العنوان

رقم الإيداع

٢٠٠٩/١١٢٨١٤

الترقيم الدولى

977-08-1422-9

الأعمال الكاملة للكاتب إحسان عبد القدوس

لا تتركوني هنا وحدي	٣٤	التجربة الأولى	١
اللون الآخر	٣٥	منتهى الحب	٢
يا عزيزي كلنا لصوص	٣٦	شفتاه	٣
البنات والصيف	٣٧	آسف لم أعد أستطيع	٤
لا أنام	٣٨	يا ابنتي لا تحيريني معك	٥
أنا حرة	٣٩	لا أستطيع أن أفكر وأنا أرقص	٦
شيء في صدري	٤٠	حتى لا يطير الدخان	٧
أنف وثلاث عيون ج.١	٤١	زوجات ضائعات	٨
أنف وثلاث عيون ج.٢	٤٢	الرصاصة لا تزال في جيبي	٩
لن أعيش في جلباب أبي	٤٣	البحث عن ثورة	١٠
سيدة في خدمتك	٤٤	ومضت أيام اللؤلؤ	١١
النساء لهن أسنان بيضاء	٤٥	في وادي الغلابة	١٢
دمي ودموعي وابتسامتي	٤٦	خواطر سياسية	١٣
الحياة فوق الضباب	٤٧	بعيداً عن الأرض	١٤
وعاشت بين أصابعه	٤٨	علبة من صفيح	١٥
وغابت الشمس ولم يظهر القمر	٤٩	الطريق المسدود	١٦
قلبي ليس في جيبي	٥٠	زوجة أحمد	١٧
كانت صعبة ومغرورة	٥١	لا ليس جسدك	١٨
فوق الحلال والحرام	٥٢	لا شيء يهم	١٩
وكر الوطاويط	٥٣	لا تطفىء الشمس ج.١	٢٠
لمن أترك كل هذا	٥٤	لا تطفىء الشمس ج.٢	٢١
ونسيت أنى امرأة	٥٥	في بيتنا رجل	٢٢
بنت السلطان	٥٦	النظارة السوداء	٢٣
وتاهت بعد العمر الطويل	٥٧	صانع الحب	٢٤
الهزيمة كان اسمها فاطمة	٥٨	بائع الحب	٢٥
الراقصة والسياسي	٥٩	أين عمري	٢٦
الحب في رحاب الله	٦٠	بئر الحرمان	٢٧
الوسادة الخالية	٦١	الخيوط الرفيع	٢٨
العذراء والشعر الأبيض	٦٢	عقلي وقلبي	٢٩
رائحة الورد وأنوف لا تشم	٦٣	على مقهى في الشارع السياسي	٣٠
أيام شبابي	٦٤	السعادة ليس لها تاريخ	٣١
ثقوب في الثوب الأسود	٦٥	حالة الدكتور حسن	٣٢
تاريخ أحد اللصوص	٦٦	لم يكن أبداً لها	٣٣